سلسلة أعلام التاريخ السودانى (٢)

الزبيـــر باشـــا

يروى قصته فى منفاه بجبل طارق

مركز الدراسات السودانية

٣٥ ش شامبليون شقة ١٢ - القاهرة - تليفون وفاكس ٧٦٩٨٧٨

صورة الغلاف: الباقر موسى

رقم الايداع: ٣٦٣٣/ ١٩٩٥
I.S.B.N.: 977-5508-07-X

سموك الزبير : فارساً تشدّ الحيل
وسموك الزبير: فارساً تصدّ الخيل
وسموك الزبير: صالحاً تقيم الليـل
وسموك الزبير: بتْغيرْ هوية ليـل



الزبيـــر ود رحمـه ((حدبـــاى))

الإهـــــداء

إلي قريتى العريقة الوادعة الواعدة ...

إلي الجيلى

التي أنجبت:

مـــن الأبطـــال الفـاتحـــين .... الزبيـــــــــر

ومن الدعاة الهداه الصالحين .... الشـيخ قريـب اللـه

ومـــن الــــرواد المربـــين المصـــلحين .... أبـى

إليها أهـــدي هـــذا الكتـــاب

(الخـليفة)

شكر وامتنان وتقدير وعرفان

ليس من السهل عليّ أن أستحضر هنا كل من حفزنى أو شجعنى أو أعاننى على إعداد وإخراج هذا الكتاب، كما إنه لا يجمل بى أن أغفل أو لا أورد ذكراً لقلة من بعض هؤلاء ولو من باب "مالا يدرك كله لا يترك جله ..."

فأنا مدين بالشكر فى البداية إلى الأخ الكريم الصديق الدكتور جعفر ميرغنى (أستاذ جامعة الخرطوم) الذى كان له الفضل الأول والأكبر فى اتحافى بالنص الإنجليزى الكامل لوثيقة الحوار الذى أجرته الصحفية البريطانية مع الزبير فى منفاه، الذى قمت بتعريبه فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

كما وأنى مدين لكل من قرأ موجز السيرة الذاتية للزبير فى الجزء الثانى من الكتاب من الإخوة والعلماء والأصدقاء العديدين ولما أسهموا به من تعليقات وملاحظات قيمة.

والشكر موصول للأخ وابن الأخ الكريم اللواء (م) يحى الزبير الطيب لقاء ما قام به وما بذله من جهد دؤوب وعون مقدر لتيسير طباعة مسودات الكتاب بشقّيه على الآلة الكاتبة ومتابعته مرات وتكراراً.

كما وأتقدم بخالص الشكر للأستاذ سعد الدين بديع سعد الدين (حفيد الزبير بالقاهرة) على ما أمدنى به من بعض ما يحتفظ به من الصور التذكارية النادرة والوثائق التاريخية الهامة لحياة جده الزبير.

وأخيراً وليس آخراً، أرى وجوباً عليّ أن أزجى خالص الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور حيدر إبراهيم على مدير مركز الدراسات السودانية بالقاهرة الذى لولا حثه لى وتشجيعه وتعاونه الصادق، ولولا ترحيبه وتوليه الإشراف التام والكامل على الطباعة والمراجعة والنشر، ولولا أناته وصبره وتقبله للتغييرات والتعديلات الكثيرة التى ما أكثر ما كنت أعمد إلى إجرائها حتى آخر المسودات، ... لولاه ولولا حرصه ومثابرته وشدة اهتمامه لما قدر لهذا الكتاب أن يرى النور وأن يتم طبعه وإصداره ونشره فى مثل هذا الزمن القياسى الوجيز خلال ما تبقى من زيارتى القصيرة للقاهرة.

فله ولكل هؤلاء وإلى كل من أسهم وأعان خالص الشكر وعظيم الامتنان.

والحمد لله وكفى ..

والصلاة والسلام على نبيه المصطفى ..

وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

القاهرة في مارس ١٩٩٥

الخليفة

مقدمة الناشر

وضع مركز الدراسات السودانية من بين أهم أهدافه توثيق التاريخ والثقافة فى السودان، ثم النظرة النقدية لكل ذلك. هناك ثوابت فى الواقع والذهن تحتاج إلى تناول جديد يحركها من وضعها السابق ويجعلها عرضة للتساؤل والنقاش وإعادة النظر. يقع كتاب سيرة الزبير باشا رحمة ضمن هُذه الاستراتيچية الفكرية القائمة على الشك المستمر وإيقاظ راحة العقل.

لقد توارثنا تاريخاً لم يكن صافياً الأساطير والانحيازات، ثم قبلناه بتلك الصورة وراكمنا معرفتنا التاريخية على الموجود أصلاً، ولم نعاكس التيار العام السائد لرؤية التاريخ السودانى. لذلك هذا الكتاب ليس دفاعاً عن أحد أو محاولة للتبرير، ولكن الكتاب يقدم رأياً مغايراً عن شخصية تاريخية سودانية هامة ومؤثرة. ولابد من التوقف عند هذه المعلومات الجديدة بعيداً عن العاطفة والانفعال والرواسب إلى أن نحدد أين هى الحقيقة أم الخطأ؟

نرجو أن يثير هذا الكتاب ما يستحقه من نقاش وحوار وإضافة لكي تصل إلى كتابة تاريخ وطنى وموضوعى ومنهجى فى آخر المطاف.

بسم الله الرحمن الرحيم
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تقـديم وتعـريف

الزبير باشا

عصامى بنى مجده بيديه: رجل سياسة وتجارة وحرب: بدأ حياته كمتسبب بسيط: لكن ذكاءه الفطرى، وما توفر لديه من الشجاعة والنشاط وقوة العزيمة، وما تميز به من صفات الزعامة والاستقامة، والقيادة والريادة، والكفاءة والرجولة والإقدام .. كل ذلك مكّن له من أن يتقدم فى التجارة، ثم فى السياسة، ثم لأن يخطو بعدها بخطوات سريعة ثابتة واسعة نحو الفتح والجاه والملك والسلطان:
وبعد فهذا الكتاب يشتمل على جزئين:

الجزء الأول منه ترجمة حرفية وتعريب دقيق لما نشرته الكاتبة الصحفية البريطانية (الآنسة فلورا شو) Flora Show فى سلسلة مقالاتها بمجلة مراجعات معاصرة "Contemporary Review" عام ١٨٨٧م .. تحت عنوان (قصة الزبير باشا كما رواها عن نفسه) عند مقابلتها له فى منفاه بجبل طارق، وهو يحكى سيرة حياته المفصّلة، ويدلل على عظمته وعصاميته وقوة شكيمته وإيمانه العميق، وعلى عبقريته السياسية والعسكرية والحربية وينفى فيه نفياً باتاً ما ألصق به من تهم النخاسة والإتجار بالرقيق.

أما الجزء الثانى فهو توثيق موجز لأهم ملامح ومعالم سيرته الذاتيه مسجلة فى تسلسل زمنى. لما عاشه من سنىّ عمره منذ مولده وحتى وفاته، فقد استقيتها وجمّعتها من مصادر مختلفة موثوق بها فى الأعم الغالب، وذيلتها ببعض الوثائق والملاحق ...

أسوقها للتعريف الموجز العابر به لكل من جهلوه أو تجاهلوه للحقيقة وللتاريخ.

خليفة عباس العبيد

الجـــــزء الأول

الزبيـــر باشــــا يروى قصــته

وهو فى منفاه بجبل طارق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الأول

بدأت ترجمة هذه المقالات الثلاثة التى يحتوى عليها هذا الجزء الأول من الكتاب ترجمة حرة وبتصرف شديد فى البداية عنيت فيها أكثر ما عنيت بالمضمون وبالمحتوى والتزمت بالسياق دون أى التزام أو تقيد حرفى بالأصل...

لكنى عندما احسست، بعد أن قطعت شوطا فيهما، بأن ذلك لم ينل كامل رضائى عنها ولم يشف ما بنفسى لأنه لم ينقل بأمانة وصدق كل ما حوته مقالات الكاتبة من سرد مفصل ومعبر وممتع ومن مقدمات معلله ومسببة تنثال كلها فى سلاسة وجزاله ويسر لتفضى إلى الخلاصات والحقائق والنتائج .. وطنت نفسى على أن أعيد الكره فأحاول من جديد القيام بتقديم ترجمة دقيقة كاملة وافيه تحرص كل الحرص-وبقدر الامكان- على أن تكون أقرب للأصل واكثر مطابقة له حتى تجىء بما يكاد يكون نقلا حرفيا معبرا عن كل ما حوته المقالات بالتفصيل .. كلمة كلمة، وجملة جملة، وفقرة وفقرة...

ولقد بذلت فى سبيل ذلك كما يعلم الله جهدا ولقيت عناء وعنتا بالغين استنزفا كثيراً من الوقت ومن الطاقة أعشت عيونى الكليلة فيهما أضواء المصابيح..

ومع ذلك كله، فلم أجد من اليسير، أو السهل علىّ دائما أن أنقل جميع الفاظ الكاتبة البليغة المعبره وتصويراتها الدقيقة ومعانيهما الجزلة كما اردت وكما ينبغى، خصوصا وأن الآنسة "فلورا شو" صحفية بارعة وكاتبة مرموقة متمرسة لها باع طويل فى الكتابة، ولها أسلوب ناصع ومشرق، وبيان متميز فريد، ولسان ذرب ويراع طلق، وإفصاح مبين، وخيال خصيب.

وحسبى أن يكون ذلك هو عذرى لدى الجميع، وأن تكون هاته المحاولة المتواضعة هى قصارى جهدى، وبالله وحده العون، وله الحمد على التوفيق،

(المعرب)
خليفة عباس العبيد

المقال الأول

الجانب الغربى من صخرة جبل طارق معروف لكل أحد، حيث تحدق بالساحل أشجار الفلفل والصنوبر وأشجار النخيل التى تشاهد متفرقة هنا وهناك فى "حدائق الجند" وكأنها أكاليل تزين مفرق المدينة المزدحمة الغاصة بحشودها، وشوارعها البيضاء وزرقة البحر من تحتها، وزرقة السماء من فوقها، وهى تبدو وكأنها تبترد مرتعشة ومتوهجة فى الق من النور. ومن ورائها يطل الجبل المشمخر صاعداً فى خطوطه وتعاريجه الحادة مغذا صوب السماء، بينما تنبسط تلال الساحل الأسبانى متدحرجة لتسترخى فى نعومة ورخاوة ولين تحت بساتين البرتقال والكافور وأشجار الفلين. والمدن البيضاء الأخرى كلها تومض وتتلاصف على طول حافة البحر. والسفن والمراكب التى تمخر العباب غادية رائحة، والميناء المكتظة تعج ملأى كأمتلاء الشوارع، ولا غرو ولا عجب، فهى نقطة التقاء المسافرين من الهند ومن المغرب ومن أسبانيا يعرفها كل أحد. كما ويحس كل من تطأ قدماه أرضها بإنه وكأن عاد أدارجه إلى بريطانيا مرة آخرى من جديد. لكن ليس كل أحد يعرف على وجه التحديد، أنه وحول الجانب الشرقى وعند استدارته، حيث تسمق الصخرة الرخامية الرمادية العاتية ولمدى بعيد مكونة حائطاً أشبأ عزيز المرتقى نحو البحر، وحيث يتكسر البحر الأبيض المتوسط تحت القمم الصخرية الشاهقة والمنتصبة عمودياً، وحذاء الساحل، وفى موضع به صخور ناتئة وغائصة تحت الماء، يوجد كوخ أو بيت صغير بنى على ارتفاع مائة وخمسين متراً من البحر.. لكنه فى أيام العواصف الهوج، وعندما تسوق الرياح الشرقية الأمواج المتلاطمة وتدفعها، يتصاعد رشاشها متواثبا ليبلغ فى ارتفاعه مستوى سقف ذلك البيت فيبلله بمائه المالح.. بينما يتشبث الصبَّار والماريقولد مشرئباً ليلتصق بجدار الصخر، وقد إنمحى كل أثر لأية خضرة إلى ما بعد الأكمة المرتفعة، وكأنها تخلص نفسها من ربقة وثاق البحر وقبضته، حيث تجد شجرة زيتون برية هنا أو هناك مواضع لجذورها. ويطبق الحائط الطبيعى المرتفع من خلف مبنى الكوخ على الموضع ساداً له من جهاته الثلاثة.

أما من الجهة الرابعة فإن المنظر ينبسط ممتداً إلى جهة الشرق بحيث لا يحده شىء سوى خط التقاء البحر بالسماء على حفافى الأفق، ولا يفصل بين هذا المنزل الوحيد وبين خليج جبل طارق الهائج الصخاب سوى كتل من الصخر، بيد أنه فى الأيام التى يسود فيها الهدوء يلف المكان بأسره من الصمت والعزلة والسكون

المخيم المطبق ما لا يمكن تجاوز مداه وطأة وعمقاً.

هنا، وفى هذا المكان، أحتجز الزبير وظل معتقلا حبيساً لأكثر من عامين من الزمان، وكان برفقته بعض أفراد أسرته وحاشيته من خدمه السود، وكان يستقبل زائريه. ولكن كان كل من يذهب من المدينة ليقوم بزيارة ذلك الكوخ يحس بمفارقة غريبة... فهناك ستة آلاف جندى كلهم كريم الوفادة مضياف، ليس لهم أى عمل سوى أن يتحدثوا فى دواخل أنفسهم عن الحياة فى ذلك الجانب الغربى من الصخرة. وبعد فراغك من لعبة للتنس هناك، ما عليك سوى أن تسلك طريقك صُعداً لتستدير حول موضع لا تكاد تتجاوزه حتى يبدو لك ولأول وهلة كأنك داخل فعلا إلى صميم الشرق ذاته... فليس هناك أى سكن سواه ولا شيء يرى عدا الإمتدادين الأزرقين عن يمينك، وحائط رخامى عات شديد الانحدار فى جهة اليسار، مما يوحى للخيال فى وسط هدأة وسكون ذلك المنظر المحيْط به ما يبدو وكأنه خط حدود واقعى يصل فعلاً بين أحد نصفى الكرة الأرضية وبين نصفها الآخر...

كانت مقابلاتى للباشا تتم خلال شهور الشتاء، كما كان يغلب على محادثتنا الطابع الإستطرادى العابر فى بدايتها ثم تأخذ فى التحول بالتدريج لتتخذ شكل الرواية المترابطة الحلقات لقصة حياته ولمغامراته. وعندما دار بخلدى أنه ربما يكون من المفيد أو الممتع لو قدر لها أن تعاد صياغتها لتروى بشكل صحيح فيما بعد، فقد أستاذنته ووافق الباشا، على أن أوالى زياراتى له بانتظام. كما سمح لى بأن أقوم بتسجيل وتدوين كل ما يعنُّ لى من ملاحظاتى فى التو وذات الحين. وكانت زياراتى له تتم من بعد الظهر حيث أصل إليه فى الساعة الثانية أو الثالثة وتتم المقابلة فى غرفة تطل على البحر، وضعت إلى جانب نافذتها طاولتان صغيرتان، كما صفَّ بها عدد من المقاعد فى شكل دائرى، وكان الباشا بسحنته السمراء الداكنه، وقامته المديدة الفارعة التى تبدو أكثر طولا عندما يكون واقفاً وهو يرتدى لباسه الشرقى الفضفاض، يجلس عادة على مقعد جلوس ذراعين أيادى، يدخن التبغ (وليس الحشيش كما ورد فى المقال) من شيشته، وعلى يمينه: منضدة عليها أوراق وقلم كثيراً ما كان يعمد اليها الباشا ليوضح بها حديثه إلىّ. وكنت أجلس قباله علي الطاولة الأخرى أخط وأدون كل ما يدور، بجهد وإهتمام فائق. وكان المترجم الذى اعتمد عليه كل الاعتماد لنقل الحديث يجلس فيما بيننا منحنياً إلى الأمام يرهف السمع إلى كل منا.. ومن وراء الكراسى ومن حولها كان الخدم السود من مواطنى المناطق التى كان يدور الحديث عنها يقفون على أهبة الانتظار مصطفين وكانوا يَسْتنِتون بشغف وباهتمام ظاهر. خصوصا عندما يصبح الحديث

شيّقاً ومثيراً. كما كان بعضهم بين الفينة والأخرى. ولدى سؤال الباشا لهم يقومون بتقديم بعض المعلومات عن بلادهم وعن أهلهم فيها.. وكان ميلان وإنحدار عمود الشمس وإيذانها بالغروب شارة لموعد إفتراقنا. فعندما لا يتبقى إلا نصف الضوء منعكسا على البحر يسارع الباشا ليصل بحديثه إلى نقطة يقول لي بعدها... "إلى هنا يجب أن ننتهي .. فلنتوقف" فيضيف المترجم على ذلك قوله... "نعم لأن عليه أن يؤدي الصلاة الآن". فأستأذن بعدها وانصرف. وفي خلال فترة تزيد عن الأربعة شهور بقليل كانت تتم اللقاءات والمقابلات بيننا، وعلى نفس ذلك المنهاج والنسق، بمتوسط مرة في كل أسبوع.

في أواخر تلك اللقاءات علم الباشا أن في نيتي أن أقوم بنشر ما سمعته منه، ومنحني إذنه بذلك. وعليه فبالإمكان أن تؤخذ القصة على أنها سرد تقريبي لما روى به هو شخصيا قصته بتروٍ وتمعن وعمد تام. ولعل من سوء الحظ أن الباشا لم يكن يتحدث أيه لغة أوربية وأن محادثتنا كلها كانت تجري عن طريق ترجمان اسمه "أحمد"، كان حظه من الصبر والأناة كبيرا بقدر ما كانت حصيلته من الإنجليزية قليلة. وكم أنا مدينة لروحه المرحه الطيبه ولأناته بالشكر على ما كان يتحمله من كثرة إعادتي لأسئلتي واستفساراتي التي لا تكاد تنقطع. وعلى الرغم من كل ما بذلناه كلانا من جهود، فقد كان لديّ أحساس قوي بوجود تباين ومفارقات بين الحديث الذي كان يقال وبين ما سمعته منه. وقد حاولت أن أقلل من شأن أثر ذلك. فالقصة قد رويت لي في دفعات كثيرة متفرقة، بحيث لم يكن من السهل تجميعها لتنسق ولتلائم الواقع، اللهم إلا إذا كانت كلها صحيحة لحد ما. وعلى هذا فيجب أن تقرأ القصة وفي الذاكرة دائما أنها إنما جاءت عن طريق ترجمان لم يكن محيطا إحاطة تامة بالظروف وبالأحوال وبالملابسات التي تعالجها القصة. وإذا صح من جهة أن كان هذا الجهل ذا قيمة فيما قام بتقديمه، فهو من جهة أخرى من شأنه أن يجعله أكثر عرضة لاحتمالات حدوث سوء الفهم. وفي اعتقادي أن سرد الرواية بصفة مباشرة كان أقل تأثرا في النقل عن مناقشة الموضوعات المجردة، ففي هاته الأخيرة المليئة عادة بما يمتع، كنت أحس بوجود فجوات واسعة قطعا فيها. وكان حديث الباشا يجري في طلاقة وبحيوية، وكان من عادته أن يوجه الخطاب لي مباشرة مصحوبا بحركات وإيماءات كما لو كنت أفهم معني الكلمات التي ترافقها فعلاً. وكثيراً ما كان يحدث أن يؤدي الضحك أو الصرامة أو التعقيب أو إشارات الحديث التي تشارك فيها العين أو اليد في وصف وقائع حية في الخطاب، لأن أواجه بتعميم مبتسر قاطع تظهر المقارنة البسيطة للوقت الذي يستغرقه القاء النقل

لأصله بأنه لم يكن وافياً أو عادلاً.

وفيما يتعلق بالحقائق العامة، فقد كانت هنالك إيضا صعوبات تستوجب محاولة التغلب عليها. فعندما يتطرق الحديث الى لغة الأرقام التى تتجاوز العشرات مثلاً فلا يمكن فى مثل تلك الحالة الوثوق بالمترجم أحمد. أما عن التواريخ وضبطها، فقد وجدت من الضرورى أن أنسب الأحداث فيها إلى نقاط ارتكاز محددة ومعينه وثابته اسميًها.. هى السنة الحالية، وعمر الباشا، والحرب الألمانية الفرنسية، كمثال أقارن به كل حدث هام عن طريق توجيه الأسئلة لأرى منذ كم من الزمان جرى حدوثه؟ وكم كان عمر الباشا وقتها؟ وفى أى زمن وقع؟ هل قبل أو بعد الحرب الألمانية الفرنسية؟ وعندما تتوافق الأجابات الثلاث أطمئن إلى صحة تحديد وتقرير التاريخ المعين.

أما عن المواقع الجغرافية فقد كنت أرجع فى أستيضاحها إلى الباشا نفسه مباشرة. وبما أن الباشا لم تكن له أيه معرفة بالحروف الأوربية فلم يكن بالطبع فى مقدوره أن يقرأ الخرائط الأوربية. لكن كانت هناك وعلى أحدى الطاولات إلى جوارنا خريطة المانية مفتوحة، وعندما يرد ذكر أحد الأمكنة المجهولة كان الباشا يطلب منى أن اذكر له من الخريطة اسماء المدن التى كان يعلم أنهاتقع أما شمالها أو جنوبها أو شرقها أو غربها على التوالى. وباتخاذها نقاطاً أساسية، كان بوسعه تحديد المكان بوجه التقريب على أقل تقدير. وكانت إحاطته الجغرافية ومعرفته لتلك المناطق تامة وصحيحة جداً.. وضع الباشا ذات مرة أصبعه علي أحد الأنهر التى كانت تكوًن نسيجا من النهيرات التى تخترق مديرية بحر الغزال وطلب منى أن اقرأ له اسمه فقلت له اسمه "الرحل" .. فما كان من الباشا إلا أن قاطعنى وهو يهز رأسه قائلاً .. "لا .. لا، أن خرائطكم الأوربية كلها خطأ فى خطأ فلابد أن يكون ذلك النهر هو الزراف..." وعدت أدقق النظر مرة أخرى فإذا بى أجد إننى فعلاً قرأت الاسم الخطأ من بين الاسماء العديدة المخطوطة.. وكان النهر هو نهر الزراف فعلا !!

أما عن تهجية الاسماء، فقد اخترت التهجية العادية فى الحالات التى كنت أجدها أما موضحة كما هي بالخرائط، أو كما ذكرها الرحالة والمسافرون الجوالة من قبل.. وفى حالة الاسماء التى لم تكن معروفة لدىّ إطلاقاً، فقد حرصت على أن تكون مطابقة بقدر الإمكان ومتوافقة صوتياً مع نطق الباشا الجليّ الواضح لها.. أذكر كل هاته التفصيلات لأوضح أنه لم يكن من السهل، وبلا عناء وجهد كبيرين من جانبنا، تحقيق صحة الرواية كما كتبتها.. وإن كان كل نصيبى منها هو محض

التأكد مما كان الباشا يريد أن يقوله فعلا.. خصوصا وأنه كان يتحدث عن نفسه.

يبدو أن المرء عند العرب لا يعتبر منتميا أو منتسبا إلى سلالة منبت طيب ومولد شريف كريم، إذا هو لم يستطع أن يحصى نسب إسلافه مسلسلاً لعشرات الأجيال. وكان الزبير يحفظ سلسلة نسبه خلال أربعين عقداً تنتهى به إلى عم النبى (صلعم) العباس مباشرة، وتصله بعد ستة وعشرين عقداً إلى من يدعى (بإبراهيم)، وهو رجل قدم من مكة إلى القاهرة منذ نحو الف سنة مضت. وكان مما ذكره الزبير حول نزول عائلته وإستقرارها بالقرب من الخرطوم أن إبراهيم هذا كان على رأس قبيلة مهاجرة، وكان ذا قوة ونفوذ عظيمين لم يأمنها أهل القاهرة، فلم يسمحوا له بأن يقطن بينهم. ولهذا أخذ إبراهيم فى الترحال والتنقل من بلدة إلى أخرى حتى وصل أخيراً إلى منطقة الجميعاب التى لم يكن يمتلكها آنذاك أحد فنزل وأستقر بها حيث تملك أسرة الزبير، وحتى يومنا هذا، أراض فيها.

كان الزبير يتحدث عن هذه الأشياء بإسلوب أكثر بساطة وتبسطا من أولئك البريطانيين الذين مازالوا يمتلكون أراضى توارثوها عن آبائهم وما تزال مسطورة باسمائهم فى كتاب الدينونة وسفر الحساب عندما يتحدثون عن أسلافهم.. لكنه كان يداخله ذلك الشعور الارستقراطى والاحساس بالزهو والغبطة الواضح عن طيب مولده وكريم محتده ومعروف نسبه، فقد حدجنى بنظرة متهلله ومشرقة طفحت بها أسارير وجهه عندما تعرضت فى حديثى معه ذات مرة إلي ذكر الخلفاء العباسيين فى المغرب وقال لى... "إذاً أنت تعلمين ذلك.. نعم.. لقد كان أولئك الذين تولوا الحكم فى أسبانيا عرباً من بنى جلدتى ومن قومى".

كان والده (رحمه) ما يزال حيا يعيش فى بلاد الجميعاب عندما كان الزبير صبياً، ولكنه مع ما كان يتمتع به من مكانه مشرفة فى قومه، فإنه فيما يبدو لم يكن غنيا موسرا يسمح له حاله بأن يعطى لابنائه تعليما جيداً. كذلك لم يكن الزبير نفسه بأى حال من الأحوال من الأغنياء إذ كان كل ما ملكته يداه فى الحياة، وهو إبن ثمان وعشرين سنه، هو مبلغ مائة جنيه فقط ليس إلا...

فى ذلك الزمان كانت المديريات التى تقع جنوب النيل الأبيض لها فى نفوس شباب الخرطوم، نفس تلك الجاذبية التى أستهوت بعض الشباب الإنجليز ودفعت بهم فى أوقات مختلفة لإرتياد مجاهل أمريكا وأستراليا المتوحشة، وكانت الحملات التى توجه للتوغل فيها، حملات تجارية.. ولكن كان من يقومون بها دائما على استعداد تام لخوض المغامرات الشخصية الجريئة الصعبة. فقد كانت تلك البلاد فى العديد من أنحائها مجهولة لم يتم استكشافها بعد... وكانت القصص التى تروى

عنها تثير التعجب والاستغراب، نفس ما كان يصل إلى أوربا فى البداية من عجائب الغرب وحكاياته... وكانت بعض أجزائها توصف بأنها حدائق تنمو فيها كل أنواع الفاكهة من غير زراعة (بروسا)، وبعضها الآخر مستنقعات مميته لا يعيش فيها سوى التماسيح والحشرات السامة، كما كان ممن بين من يقطنون تلك البقاع، الأقزام والعمالقة والمردة الخرافيون وأجناس بيضاء أخرى ذات شعر حريرى طويل. كما كانت هنالك أهوال ومخاوف أكلة لحوم البشر المفزعة، وما تبعثه لذة ونشوة اصطياد الحيوانات الكبيرة من إثارة ومن متعة. وكانت كل تلك الحملات التى تقتحم، تخرج مزودة بالتسليح الكامل لتعود فى بعض الأحيان بثروات كبيرة ضخمة... وكثيراً ما كانت تزهق فيها النفوس وتفقد فيها الحياة.

فى سنة ١٨٥٧ انخرط أحد أبناء عم الزبير فى خدمة حراسة تاجر معروف اسمه "على عمورى" كان متوجها إلى المناطق التى تقع بعد بحر الغزال بحثا عن العاج.. ومانعت الأسرة بشدة وأعترضت على ذلك السفر، وبعثت بالزبير ليلحق به ليثنيه عن الذهاب مع الحملة وليعود به راجعاً.. لكن الحملة كانت قد بدأت فى الإبحار فعلاً، ولحق بها الزبير فى موضع يقال له "ود شلعى" على بعد مسيرة ثلاثة أيام صعداً مع النيل، ورفض على عمورى فى البداية تسريح ابن عم الزبير من خدمته ولكنه، وبعد جدال طويل، أذعن مبديا الاستسلام والموافقة بقوله للزبير "إقض الليلة معنا هنا بالمركب" وفى خلال الليل أقلعت المركب مراسيها. وعندما أستيقظ فى الصباح وجد الزبير نفسه متجها صوب الجنوب. وكانت إجابة على عمورى الوحيدة للزبير هى قوله له ... "أردت أن تأخذ ابن عمك منا فأخذناك نحن... فيمكنك الآن أن تأتى معنا." لم يكن مع الزبير أى سلاح أو مال أو حتى ملابس يغير بها لأنه إنما جاء فى طلب ابن عمه فقط ولم يكن ينتظر أن يبلغ فى ملاحقته له حيث أدركه. ولم تجد اعتراضاته أذناً ولم تغن احتجاجاته ومجادلاته فتيلاً، بل لم يكن لها أى أثر أطلاقاً على "على عمورى" الذى كان الآمر الناهى والسيد المطلق على مركبه... وهكذا، كما قال الزبير، "بدأت مسكيناً وفقيراً كالعبد، وكان ابن عمى يقاسمنى لقمة الطعام، ولكن على عمورى لم يكن يحبنى ليعطينى أى شيء ولم يتحدث معى إطلاقاً مستخفاً بى، ولم يبد أى نوع من الأهتمام بى، فقد كنت مجرد راكب غريب فى قطاره...

جرت رحلتهم عبر أرض الشلك، متجاوزة كاكا وفشوده وبحر السوباط وبحر الزراف وبحر الجبل وعدداً كبيراً من الاسماء الغريبة الأخرى التى يصعب النطق بها، إلى أن وصلوا عند مشرع الرق إلى بحيرة عظيمة مترامية الأطراف لا حد لها،

حيث تركت المركب لتظل هناك طيلة أربعة أشهر كاملة.

كان الشيء الوحيد الذي يحمله الزبير معه هو نسخة من القرآن الكريم، ولم يكن له طيلة تلك الرحلة من عمل يقوم به سوى أن يقرأ في كتاب القرآن، وأن يقوم بتسجيل بعض المذكرات عن المناطق التي يمر عليها، وعند وصولهم إلى البحيرة إبتدر على عموري الزبير مخاطباً له بإحتقار قائلاً له.. "إنك لا تعمل أي شيء غير أن تقرأ القرآن ليس إلا.. وإنه ليست هناك أية فائدة لنا نرجوها من قسيس (فقيه) مثلك... وعليه فعندما نبدأ حملتنا فإن من الأفضل لك ولنا أن تبقى أنت مكانك هنا مع المركب... " ورفض الزبير ذلك كلية بشدة وبأباء... فلسعات الذباب والناموس في ذلك المكان كانت فوق طاقة الاحتمال. ولم يكن الزبير يملك من وسائل الدفاع عن نفسه شيئا يمكنه أن يحيا به بين غرباء. وإستمر على عموري يسخر من الزبير في تهكم مسائلاً له إن كان قد ظن أو دار في خلده حينما رافقهم أنه كان في نيتهم اصطحاب مبشّر معهم!؟ فأجابه الزبير قائلاً "إن لديك مائة رجل من حراسك وعندهم السلاح وسأصير أنا مثلهم..." وبعدها أعطى على عموري إلى الزبير بندقية صدئه، وظرفيْ خرطوش من الذخيرة، وسرّ الزبير كثيراً بحصوله حتى على ذلك.. وعمد إلى بندقيته فنظفها وقام بإصلاحها وواصل سفره مع القافلة. وبعد مسيرة ثمانية أيام وصلوا إلى "بحر الجور" وأنشأوا محطة على بعد أربعة وعشرين ساعة وراءه. ومن "الجور" ساروا إلى أموكوال وأبيم وبأياديد (لعلها بايزيد) ولُقْلُق إلى أن وصلوا إلى عفوق على مقربة من ماكسوا...، وهنا وجدوا الأهالي معادين لهم ومتحرشين بهم: وحدث أن هوجمت إحدى سرايا "على عموري" التي كانت في المقدمة من قبل أعداد كبيرة من السود الحقت بها هزيمة نكراء واضطرتها إلى الإنسحاب عائدة إلى معسكرها. وكان الزبير المحتقر من قبل على عموري قد ترك ليبقى مع المتخلفين في المعسكر الذين عندما أبصروا عودة زملائهم منهزمين وفارين من وجه الأعداء تحركوا لمنازلتهم. وكان من حسن حظ الزبير أن قام بتصويب بندقيته نحوهم فأصاب بإحدى خرطوشتيه زعيم السود المغيرين فأرداه قتيلاً. وفي الوقت الذي كان فيه خمسة عشر رجلاً من رجال عموري على مقربة منه تتناوشهم الرماح فيتساقطون كالمطر وهم ببنادقهم الجيدة وبذخيرتهم، كانت بعض البنادق التي بجوار الزبير معدة ومعبأة. فعمد اليها الزبير وإستطاع عن طريق طلقات نيرانها السريعة لبضعة دقائق، بالإضافة إلى ما أحدثه قتل زعيمهم من فزع في صفوف الأعداء، إن يقلب دفة المعركة رأساً على عقب. إذ صمد رجال عموري ودحروا جحافل السود وردوهم على أعقابهم خاسرين. وتحولت بذلك

الهزيمة التى كانت لن تسفر أو تتمخض إلا عن مذبحة، إلى نصر مبين، منذ ذلك اليوم صار عمورى يعامل الزبير بحب وتجلة وإحترام يفوق كل ما كان يعامله به من استخفاف ومن احتقار وازدراء من قبل. فخصص له خيمة، وأمده باللبن وبالبلح وبالخبز وبالسلاح وبالملابس وبكل ما طلبه أو احتاج إليه. وعملاً بنصيحة من الزبير أرسلوا ترجماناً إلى أهالى ذلك الموضع من السود ليقول لهم "تعالوا الينا... وهلموا وكونوا لنا أصدقاء.. وسندفع لكم خمسة وعشرين خرزة بيضاء فى مقابل كل رجل قتل منكم". وعقد المتاجرون صلحا مع القبيلة وعاهدوهم على السلام وأوفوا بما وعدوهم به من أعطائهم خمسة وعشرين ودعة عن كل قتيل، وأعطوهم بالإضافة إلى ذلك خواتم نحاسية للأحياء منهم ليتقاسموها فيما بينهم. وبهذا هرع اليهم الأهالى ووافقوا على أن يجلبوا لهم العاج وأن يتاجروا معهم، ثم تحركت القافلة بعدها قاصدة محطتها التى كان يقيم فيها زملاؤهم وأصدقاؤهم، إذ كان على عمورى هو واحد من أربعة عشر تاجراً أتفقوا على أن يتاجروا فى ذلك الإقليم. وبعد تعزيزهم لقوة تلك المحطة، عادت القافلة نهائياً إلى محطة الديوم (أو الديم) التى قاموا بتوسعتها وإتخذوها مركزاً لرئاستهم.

فى تلك المحطة ظلوا يتاجرون مع الأهالى ويبعثون بسراياً صغيرة لتقوم بإستكشافات فى المنطقة ولتتوغل فى داخلها مخترقة لقبائل غير معروفة. وكان من عادة التجار فى ذلك الوقت أن يتعاملوا مع الأهالى بخشونه وقسوة وغلظة، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن يصبح الأهالى معادين لهم، وأن تكابد تلك السرايا والحملات الصغيرة كثيراً وأن تلقى عنتا كبيراً، إذ يندر أن تعود قافلة أدراجها دون أن تفقد واحدا أو أثنين من أفرادها. كان الزبير قد رافق عدداً كبيراً من تلك الحملات، وكان من رأيه أن الطريقة التى كانوا ينتهجونها كلها خاطئة، فقد تبين له منذ الوهلة الأولى أن أولئك الناس كانوا ضعفاء جداً ومتحفزين بطبعهم للشر بلا داع ولا سبب. وأفضى الزبير بأرائه تلك إلى "ابو عمورى" الذى قال للزبير... "إذا استمر الحال على هذا المنوال فمن الواضح إننى سوف أفقد كل حراسى... وعليه، فبإمكانك أن تتولى زمام أمرهم أنت إذا شئت، وأن تقوم بترتيب الأمور وفق ما تريده وماتراه..." وبناء على ذلك، تولى الزبير إدارة ذلك الفرع من أعمال تجارة "ابو عمورى" وسار فيه وفق مبدأ ومنهج جديد. فلم يسمح بقيام أية حملات أو سرايا غير نظامية لا يزيد قوامها عن أربعة أو خمسة أشخاص لتذهب إلى حيث تشاء ولتفعل ما تريد. لكنه دأب على أن يتولى قيادة تلك السرايا بنفسه، واشترط أن تكون قوتها كبيرة لا يقل عدد أفرادها عن العشرين

رجلاً. كما حرص على تطبيق النظام العسكرى المنضبط الصارم عليهم، مصراً على أن لا تتم أية تحركات إلا بعد أتخاذ كل الاحتياطات الحربية اللازمة لها... كما حرص فى الوقت ذاته على ضرورة كسب ثقة الوطنين المحليين بالتودد لهم وبعدم أخذ أى شيء منهم قسراً وعنوة وبالقوة، بل بالسداد الفورى الناجز لاثمان البضائع التى يجلبونها. وكانت سياسته أن يكون دائم الحذر وعلى أهبة الاستعداد دائما لمقاومة أى تعد عليه ومواجهة أى عدوان ورده، وألا يعمد إلى شن أى هجوم أو غزو إطلاقاً. وأسفرت طريقة الحزم والموادعه هذه عن أن تكفل له تأمين القبائل بالسلم وأن تمكنه من إرتياد المناطق وإستكشافها. وذاع صيت الزبير فى آفاق المنطقة وصار معروفا لدى الجميع فيها، حتى أن القبائل أطلقت اسمه على أطفالها، وقصده المواطنون من كل حدب وصوب ينسلون ليعرضوا بضائعهم عليه وليبيعونها له. وإرتفعت كنتيجة لذلك مكانة الزبير لدى "ابو عمورى" الذى قدم له بعد مضى خمسة شهور عرضاً لان يصبح شريكاً له. لكن الزبير رفض ذلك العرض مفضلاً أن يظل محافظا على استقلاليته من جهة، ولأنه من جهة أخرى لم تكن لديه النية أو الرغبة آنذاك لأن يقضى حياته فى تلك المناطق. وعزم "ابو عمورى" على السفر إلى الخرطوم ووافق الزبير على أن يبقى مسئولا عن المحطة بدلا عنه لمدة أربعة شهور هى فترة غيابه على أن يتقاضى فى مقابل ذلك مبلغ ١٢٠٠ جنيه يكون بعدها حراً ليذهب حيثما يريد... وترك معه ستة وثلاثين رجلاً.

وفى أثناء فترة غياب ابو عمورى ظل الزبير يمارس تطبيق سياسة المسالمة فقام بأسفار عديدة متنقلاً بين بلاد الإقليم مكونا صداقات كثيرة مع الأهالى، ومتعرفاً على طبائعهم وعاداتهم ومتطلباتهم، ومتعلماً لبعض لهجاتهم، وأحرز نجاحاً عظيماً فى عملياته التجارية معهم ومحققا جمع ثروة طائلة من كميات العاج لم يسبق لها مثيل فى ذلك الوقت القصير. وفى حديثه عن هذا الجزء من سيرته ركز الزبير على أهمية وضرورة التعامل السمح اللطيف الأمين مع الأهالى الذين قال عنهم إنهم وإن كانوا على درجة كبيرة من التخلف فإن اكثريتهم لم يكونوا من أكلة لحوم البشر بل كانوا يفهمون تماما الفرق بين الصدق والكذب وبين الخطأ والصواب وقال.. "إن بوسع أى شخص أن يتاجر معهم إذا ما توجه اليهم بالموادعة والمسالمة مستعملاً فكره وذكاءه بدلاً عن اللجوء إلى فوهة بندقيته"، وأضاف "إنك إذا أوضحت لهم بهدوء، مثلاً، بقولك لهم.. هذا هو الخرز فأعطونى سن فيل بدلاً عنه، فهموا أن ذلك فى مصلحتهم وفى مصلحتك على حد سواء وما عليك إذاً إلا أن تعاملهم بالعدل وبالحسنى، وأن تدفع لهم ما تعدهم به فيحضرون لك كل ما لديهم

من الريش والعاج والصمغ والجلود، ولكنك إذا ذهبت اليهم بغطرسة وبصلف وعنجهية محاولاً إخضاعهم بإستعمال القوة معهم، فإنهم سيلجأون إلى رماحهم وإلى حرابهم وتكون أنت قد فقدت بذلك تجارتك وحياتك فى وقت واحد معاً". طال غياب "ابو عمورى" حتى بلغ ستة أشهر كاملة، وعندما عاد قافلاً كان الزبير فى إنتظاره وفى حوزته خمسمائة "كنتال" من العاج.. الأمر الذى زاد من إعجاب "ابو عمورى" وتعلقه به، فعرض عليه للمرة الثانية أن يقبل مشاركته فى العمل لكن الزبير رفض ذلك. وبعدها عرض "ابو عمورى" على الزبير أنه سيدفع له ١٢٠٠ جنيه إذا وافق على البقاء مشرفاً على المحطة بينما يعود هو بالعاج إلى الخرطوم. لكن الزبير الذى أمكن له فى خلال فترة غياب "ابو عموري" أن يحيط إحاطة تامة وأن يلم الماما كاملاً بالمنطقة، والذى تعرف لكل ما يحتاج إليه الأهالى فيها فعلاً، وتبين له طريق المتاجرة المجدية المثمرة واضحاً، قد قرّ رأيه على أن يشق لنفسه طريقاً فى تلك الديار وفضل أن يعمل لحسابه مستقلاً بنفسه، فرفض عرض عمورى الثانى وقرر أن يعود إلى الخرطوم بعد غياب دام لأكثر من سنه كاملة.

كان كل ما يملكه الزبير فى ذلك الوقت هو مبلغ مائة جنيه فقط، وبإضافة ذلك إلى مبلغ الـ ١٢٠٠ جنيه التى كان ابو عمورى يدفعها له بإنتظام، اشترى الزبير لنفسه مركباً حمّلها بكافة أنواع البضائع التى رآها مناسبة لأن تروج فى البلاد التى قدم منها. واستغرق الإعداد لذلك عدة شهور. وفى حوالى نهاية عام ١٨٥٨م استاجر ٢٥ حارساً وبدأ يتاجر لحسابه الخاص. فاتجه صوب الغرب إلى منطقة "النيام نيام"، وكان الملك على ذلك الموضع الذى تخيَّره يدعى (زنقابور). ظل الزبير يتاجر معهم بصفة ودية وبنجاح ملحوظ ملتزماً سياسته المسالمة لمدة سنة، توفى فى نهايتها "زنقابور" ليخلفه على الملك فيها ولده المسمى "تلكمه". ويبدو أن الزبير كان قد أحرز نفوذا واسعاً وقوياً فى بلاط زنقابور يعيد إلى الأذهان حكايات ما بلغه يوسف من منزلة لدى فرعون.

قال الزبير أنه من العسير على الذهن الأوربى أن يتصور حالة معشر النيام نيام، فقد كانوا وثنين لا إله لهم ولا رسول ولا قانون. فبينما كان يعبد أحدهم شجرة مثلاً، ويعبد آخر دجاجة، كان البعض الآخر يتخذ من النار أو من الماء أو من فرس البحر أو من الثعبان إلهاً يعبده ولم تكن لهم أية مهنة يحترفونها غير الصيد وقتال بعضهم البعض، كما كانوا كلهم من آكلة لحوم البشر... وقد تفشى آكل لحوم البشر فيهم للحد الذى وجد أنهم لا يأكلون سواه عندما وصل إلى ديارهم أول مرة. وكان الرجال والنساء والأطفال يقتلون فى السوق ويقطعون ليباعوا كما يبيع

الأوربيون شرائح لحوم البقر والضأن. وكان كل السجناء وأسرى الحروب يؤكلون.. وكل سيئ الأخلاق.. وكذلك الرجال الذين يغدون سمانا جدا بحيث لا يصلحون لعمل أى شىء آخر، والذين يموتون موتاً طبيعياً. وعلق أحد شباب النيام نيام الذى كان ضمن الحاضرين من خدم الباشا على ما ذكر، بأنه لم تجر العادة بأن يأكل الفرد منهم لحم أى من أقربائه. فلو فرض مثلا أن أم أحدهم أخذت تحتضر وأشرفت على الموت، فإنه يقوم بالتفاوض مع أى شخص من قرية مجاورة ليسمى ثمناً لجسدها. فإذا صحت ولم تمت بطلت المبايعة. ولكن إذا ماتت فيبلغ خبر موتها فوراً إلى من اشتراها لتنقل إليه لتُلتهم فى رقة وفى لطف ومتعة بتلذذ بعيداً عنهم! وبين أناس كهؤلاء، عرفوا قليلاً جداً عن الزراعة، ولم يعرفوا أى شىء عن التجارة، كان ما يزال هناك الكثير جداً مما ينبغى عمله فى سبيل الأخذ بهم للتعلق بأهداب المدنية...

وقد أباح الملك لنفسه أن ينقاد كثيراً بما كان ينصحه به الزبير فى ذلك المضمار من آراء. كان من ضمن الأشياء الكثيرة الأخرى التى علمها الزبير للملك تعريفه له بفائدة الاحتفاظ بجيش ثابت دائم وإدراك قيمته. وكانت العادة السارية فى إقليم "زنقابور" أن يقسَّم الأنفال إلى أسرى وغنائم، وأن يكون الأسرى من نصيب الأهالى، وتكون الغنائم من نصيب الملك. ولكن عندما رأى الزبير أن شبابا طيباً حسناً يمكن الاستفادة منهم فى الخدمة يقتلون من أجل أن يؤكلوا، شعر وأحس بأن ذلك أمر يدعو للأسف وللأسى حقا. فأشار على الملك بأنه سيكون من الأجدى والأنفع له إن هو أعطى للأهالى جزءاً من أقمشة الشيت والخرز الذى يكون من نصيبه، وأن يستحوذ هو على الأقوياء الذين هم فى سن الشباب من الأسرى لتدريبهم كعساكر لينخرطوا فى خدمته، ولتكون الخطوة التالية لذلك تحديد فدية ودية معينة لكل أسير من الأسرى. وسرت أنباء هاته الإجراءات الجديدة وإنتشرت وحازت القبول، فأوقفت القبائل المجاورة أكل من يأسرونه وأبطلته، واعتاضت عن ذلك بأن عمدت إلى عرضهم إلى البيع، وبذلك منيت عادة آكل لحوم البشر بصادٍّ وكابح ومانع قوىّ للحد منها. وبدأت بذلك سنة اتخاذ تجنيد الجيوش من الأرقاء تجد طريقها حتى صارت معروفة ومعمولا بها فيما بعد لتتأصل وتترسخ وتعم.

بإرتقاء "تكمة" على العرش، أعلن أحد جيرانه الأقوياء-الزعيم المدعو "مريسة" الحرب عليه، وجرد "تكمة" جيشاً عظيماً من الأهالى مسلحاً بالحراب والسهام والعصى، خرج الزبير معه مصطحباً حرسه القليل العدد والمسلح بالبنادق الفرنسية الصنع. وأبدت جنود "تكمة" تفوقاً فى البداية تراجع أمامه "مريسة"،

ولكن وبعد قتال امتد لأربعين يوماً، تمكنوا من الاختراق إلى عاصمة إقليمه التى كانت مدينة كبيرة جداً فى حجمها. ولكنهم ولدهشتهم وجدوها خالية تماماً والبيوت فيها مفتحة الأبواب على مصاريعها، وفى كل بيت منها وجدوا كميات كبيرة من مشروب الجعة "المريسة" المصنوع فى تلك البلاد، اللذيذ الطعم الشهى القوى المسكر. وأثار المشهد شكوك الزبير الذى خيّل إليه أن كمينا أو فخاً ربما يكون قد نصب له، فجمع كل رجال حرسه ومنعهم منعاً باتاً من أن يتناولوا أو يمسوا ذلك الشراب. لكن رجال قوات "تكمة" الذين كانوا جياعاً وعطاشاً، والذين لم يكونوا متعودين على الإلتزام بالنظام والإنضباط والتقيد بهما، هجموا على الشراب فى شراهة واندفعوا إليه بنهم، فعبوا ونهلوا منه كالهيم العطاش. وكانت النتيجة ما هو متوقع. إذ طفحت المدينة بأفواج السكارى المترنحين وامتلأت بهم عرصَاتها. فكرّ "مريسة" قافلاً وذبح رجال "تكمة" ذبح الشياه، وأحاط الزبير وحرسه القليل والتفوا حول شخص الملك "تكمة"، وأفلح فى إخراجه من المدينة مصطحبا له فصيلة من الجيش من حوله. وفى أثناء ذلك جرح الزبير جرحاً بليغاً بحربة أخترقت جسده فوق رئته اليمنى ونفذت من خلال كتفه محطمة لعظمه. وأراد أحد الحراس أن ينتزع الحربة، ولكن الزبير الذى خشى أن يتسبب ذلك فى نزف دمه مما قد يشل حركته أمر بأن يكسر نصل الحربة فقط وأن يبقى على سنها ليظل غارزاً فى الجرح. وإستمر وهو بتلك الحالة يبذل الجهد لسلامة وحماية تقهقر الملك "تكمة" وإنسحابه، عبر نهر كانوا قد تجاوزوه من خلفهم، وإصيب الزبير مرة ثانية بجرح فى فخذه ولكن الإنسحاب كان قد تم بنجاح. وبعودتهم إلى مقر "تكمة" بسلام تولى "تكمة" سحب الحربة بيده شخصياً وحدث، وكما توقع الزبير من قبل، إن إندفع الدم جياشاً بكميات غزيرة من جرحه جعلته يرتمى فاقداً الحس والشعور بين يدى "تكمة". وقاموا بمعالجة جروحه. وفى اليوم التالى وبعد وصول من بقى حياً من زعمائه عائدين لمقرهم، دعا "كتمة" مجلسه للانعقاد وأخذ بيد الزبير وهو مثْخن بجراحاته وقدمه لهم قائلاً: "أنتم يامن كنتم أصدقائى وكبار رجالات مملكتى... أنتم يا أخوانى الذين غمرتهم بالهدايا، فررتم منى حين أحدق بى الخطر وتركتمونى لأموت... لكن هذا الغريب وهبنى الحياة مرة أخرى.. لقد كنت فى عداد الموتى ولكنه أعادنى إلى هذه الدنيا.. لقد جُرح من أجلى... ولهذا فسيكون منذ الآن صديقاً وإبناً لى." ثم استدار نحوهم واستمر فى مخاطبته لهم قائلا: "إحضروا إبنتى." ولما جيىء بها قام بإعطائها إلى الزبير أمام ذلك المجلس، وأمتعض قومه محتجين. ولم يكونوا من الزنوج بل كانوا من ذوى البشرة الرقيقة بشعورهم الحريرية

الناعمة واعتدادهم العريض وزهوهم بنبل مولدهم... وتوجهوا إلى ملكهم يسألونه "كيف تعطى إبنتك لرجل غريب لا تعرف عن مولده أو نسبه شيئا؟... فأنت لا تدرى إن كان فى بلده ينحدر من سلالة طيبة أو من نسل ردىء؟" ورد الملك عليهم قائلاً: "لقد كشف الرجل عن معدنه وعن طيب عنصره وكريم محتده بفعله. وقد أظهر نفسه لنا بانه رجل عاقل وطيب لم يتخل عنى، ولولاه للقيت حتفى. من منكم ياترى له من الشجاعة مثله؟ دعوه لأن يهب لأبنتى ولداً مثله وبحسبى هذا ويكفينى ذلك قناعة ورضى."

ظل "تكمة" يتعهد علاج جراحات الزبير لمدة أربعين يوماً تزوج فى نهايتها الزبير بابنة الملك، وبعد برهة وجيزة قفل راجعاً لمحطته القديمه فى "الديم" حيث بقى بها ثمانية عشر شهراً مخلفاً وراءه زوجته مع أبيها. ولم يكن تركه لها بسبب أى عدم رضى بالزواج، بل على العكس من ذلك تماماً. فقد كانت زوجته سيدة جميلة ومليحة جداً وطيبة، أحبها كثيراً وقد حزن عليها حزناً عظيماً عندما توفيت بعد مضى أثنى عشر سنة. ولها الآن بنتان متزوجتان فى القاهرة ولم تنقطع أو تنفصم عرى صداقة الزبير بأبيها ابداً.

ظل الزبير يعمل بنجاح طيلة ثمانية عشر شهراً أبحر فى نهايتها عائداً إلى الخرطوم بمركبين محملتين بالعاج والعرديب والصمغ، وبرفقته ٦٤ شمالياً و١٥٠ من السود. وقد ذكر الزبير أن الأحد عشر شهراً التى تلت ذلك كانت من أقسى وأعنف وأشق وأخطر سنى حياته المليئة بالمخاطر-فلم تكن مسالك مجرى النهر معروفة لديه. وقد ضل طريقه فيها منحرفاً إلى جهة الغرب وسط أنهار ومستنقعات لم تكن قد أكتشفت بعد، ولم يكن فيها أى نوع من أنواع الطعام، والاسوأ من ذلك أنه وفى بعض الأحايين لم يكن بها من ماء الشرب الصالح إلا ما هو سام وخيم، ومضت عليهم أسابيع تلو أسابيع وهم لا يرون أى شىء حىّ. وحدث ذات مرة أن ضلوا خمسة وسبعين يوماً دون أن يجدوا شيئاً يقتاتون به بعد أن قضوا على كل ما كان يمكن أن يؤكل بالمراكب من طعام. وأشرفوا على أن يهلكوا جوعاً، وقاسوا مرارة ذلك الحرمان، ومات عدد كبير منهم، كما أصيب البعض الآخر منهم بمس من الجنون، وتردت أحوالهم جميعاً حتى لاح لهم وهم يتطلعون من فوق سارية المركب ذات يوم دخان أبصروه على مسافة بعيدة. وخرج الزبير فى ستة من رفاقه فى محاولة لتتبع ذلك الدخان ومعرفة مصدره وبلوغ موضعه، وأستمر بهم البحث ثلاثة أيام بطولها دون أن يكتشفوا وجود أى نوع من الأحياء. عادوا بعدها أدراجهم إلى النهر بعد أن أخذ منهم التعب كل مأخذ، وبعد أن تملكهم اليأس وأستحوذ

عليهم القنوط. وبينما هم يجدفون فلوكة صغيرة على أحد فروع النهر، وصلوا إلى جزيرة صغيرة بها بعض الأشجار وأبصروا هنالك تمساحاً نائماً فاصطادوه وأوقدوا ناراً من حطب الغابة وشووه شرائح عليها فدبت فيهم الحياة وبعثت فيهم تلك الوجبة قوة جديدة. ولكنهم عندما عادوا إلى مراكبهم التى أنطلقوا منها وجدوا أن ستة من رجالهم قد ماتوا وفارقوا الحياة من الجوع ثم أخذوا يتشاورون وقد خامرهم اليأس. وفى اليوم التالى لاح لهم دخان جديد رآه الزبير بعينى رأسه، فأخذ ثمانية من رجاله وقال لهم: "يتحتم علينا الآن أن نجد مصدر مكان ذلك الدخان ايا كان أو أن نموت.. ولن نعود إلى هنا أبدا إلا ومعنا طعام." وسافروا أربعة أيام بلياليها، فوجدوا أن الدخان كان منبعثا من جزيرة كبيرة على النهر اسمها (بوهول)، ليس لأى من الأوربيين أى علم بها وليست بالطبع موضحة على أية خارطة. وأشار الزبير إلى الموضع بأنه يقع فى شمال حفرة النحاس، ولكنه فى ذات الوقت على الجانب الجنوبى من بحر العرب محدداً له بتسع درجات ونصف من درجات خطوط العرض فى الشمال وخمسة وعشرين درجة شرقى خط الطول، وبمجرد رؤية الأهالى الوطنيين لأولئك الأغراب تجمهروا وهرعوا نحوهم وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وهم بحرابهم وقابلوهم بشعور عدائى ملوحين بحركات كحركات الحرب. وكانت دهشة الزبير عظيمة جداً عندما وجد أنه يعرف لغتهم، إذ سبق له أن التقى منذ نحو العام ببعض الأهالى الذين كانوا يتحدثون بتلك اللغة أو اللهجة والذين علم منهم أنهم يقطنون فى جزيرة كبيرة تقع فى جهة الغرب، وإن لهم ملك يدعى "كوريام" وانه، وكما هى عادته، قد وعى ذلك وحفظه فى ذاكرته تماماً. فتقدم نحو أهالى الجزيرة مصطحباً معه رجلاً واحداً من رفاقه، وعندما رأووه يأتى اليهم وحيداً بمفرده القوا رماحهم وسألوه: "من أين أتيت؟ هل هبطت من السماء أم أنشقت عنك الأرض؟ أم خرجت من الماء؟ " عندها سألهم الزبير إن كان ملكهم اسمه "كوريام" فأجابوه بنعم وقال لهم الزبير أن شهرة ملكهم كوريام قد طبقت الآفاق، وإن صيته قد ذاع وذكره قد شاع ممتداً فى بلاد بعيدة كثيرة، وقال لهم أنه جاء قاصداً له ليزوره وليشترى من بلده طعاماً ليس إلا. فعاملهم الأهالى بعدها معاملة حسنة ودية كريمة، وذبحوا لهم بقرة وأعدوا لهم ناراً ليقوموا بشواء لحمها عليها. كما قدموا لهم الخبز واللبن الخاثر، وأستمتع الزبير ورجاله بمأدبة ومائدة عظيمة من موائد الأعياد، تلك الليلة. وفى الصباح أخبروا الأهالى بأنهم يريدون شراء طعام لرفاقهم فى المراكب وأروهم الخرز الذى كان معهم فباع لهم الأهالى أبقاراً بواقع ثلاث خرزات كبيرة لكل بقرة. وكان لذلك السعر من الوقع ما

يشبه فعل السحر فى نفوسهم، إذ أخذوا يعبرون عن سرورهم وإبتهاجهم بالرقص والمسح على بطونهم وبإشارات وتعبيرات جنونية صارخة من الفرح، وأراد كل منهم أن يبيعهم بقرة. فاشترى الزبير منهم عدداً كبيراً من الأبقار وبعث بها مع خمسة من رجاله الثمانية الذين كانوا معه إلى المراكب. بعد ذلك صحب الزبير رفاقه الثلاثة الباقين لمقابلة الملك. وهنا قطع الزبير حديثه وسرد قصته ليسألنى بأسلوب ساخر يشبه التهكم إن كنت أريد منه أن يصف لى سراى ذلك الملك العظيم ولبسه وهندامه. ورجوته أن يفعل فقال "إن سرايته كانت عشة منخفضة متدنية. وإن الملك العظيم"كوريام" يستلقى وهو عارى الجسد تماما على سرير من روث البقر المحروق. أما مخدته فكانت قطعتين من الحطب، وليست هناك أية قطعة أثاث واحدة أخرى فى تلك المؤسسة وفى ذلك المقر الرسمى المرموق.

عندما قابل الملك الزبير وجه إليه-كما فعل رجال قبيلته من قبل-نفس ذلك السؤال... أهبطت من السماء أم أنشقت عنك الأرض أم نبعت من الماء؟ إذ لم يكن يعتقد أن فى إمكان أى شخص غريب أن يجد طريقه إلى تلك البلاد النائيه. وأجابه الزبير بأنه إنما أتى على ظهر مركب عن طريق النهر، وأنه يريد شراء طعام. وأراد الملك أن يكشف عن ذكائه فوجه إليه اسئلة عديدة خصص له بعدها إحدى العشش الخالية التى كانت بجوار زريبته من الخارج مباشرة ليقضوا بها ليلتهم وبعث لهم بخبز ولبن خاثر. وفى الصباح لاحظ الزبير أن الأهالى أخذوا يتقاطرون ويتجمعون من جميع الجهات. وكان أحد رجال الزبير ترجمانا ملما بلهجة تلك القبيلة مثله، فأرسله الزبير ليتمشى متجولاً بالقرب منهم ليصتنت وليسمع ما يقولون. وسرعان ماعاد إليه رسوله يجثو على قدميه ليبلغه بأن زعماء القبيلة قد تجمعوا وأجمعوا أمرهم على أن يأتمروا به وإنهم يحثون الملك على قتل الغرباء وانهم كانوا يسألونه عن من يكونون. ويجيب عليهم الملك بأنه لا يعرفهم ولكنهم يعرفونه وإنهم قدموا من مسافة بعيدة لشراء طعام، ويرد الزعماء عليه بقولهم: "إنهم وبعد أن رأوا منطقتنا فلابد من أنهم سوف يعودون لنا مرة أخرى ومعهم أعداد غفيرة من الرجال ليسلبوها منا ثم يقتلوننا يوما ما، ومن الخير إذا أن نبدأ نحن بقتلهم. بسماع ذلك خرج الزبير اليهم بعد أن تقلد سلاحه وكان الأهالى كلهم يجلسون القرفصاء متقاربين على الأرض فى كل مكان من حوله، وبيد كل منهم حربة، وكان منظر الحراب المشرعة بشكل يجعلها تبدو وكأنها حقل من الحنطة. ومشى الزبير بينهم ليجد الملك والزعماء تحت شجرة فصاح بهم قائلاً.. (كوريام أننى أسمع أن كل نساء ورجال قومك يقولون لك دعنا نقتل هؤلاء الغرباء الأجانب

الآن.. فلأى سبب ذلك؟ إننا لم نحدث أى ضرر لك. وأجاب عليه الملك كوريام بالنفى قائلاً "هذا صحيح، إنك لم تسبب لنا أو تلحق بنا أى ضرر فعلاً، ولكنك قد رأيت بلادى". فقال له الزبير "أمن أجل ذلك تريد قتلنا؟" ثم أضاف "نعم من أجل ذلك وحده... لكن لتعلم إننا إذا ما قتلتنا فعليك أن تجفف هذا النهر العظيم أولاً، لأنه وعبر متنه، سيجىء أصحابنا اليك ليأخذوا بثأرنا.. وسيأخذون بلدكم ويستولون عليه وسيحطمونك، وسيمحونكم من الوجود وسيقذفون بكم خارج هذه الدنيا.. لكن إن لم يكن فى مقدروكم أن تجففوا النهر، فإنى أنصحك الآن بأن تتركنا وتبقى علينا أحياء". كان جواب الملك عليه بأنهم سيكونون آمنين عنده ماداموا فى معيته ولن يمسهم أحد بسوء وهم في كنفه. ولكنه أضاف بأن أفراد قبيلته لا يؤتمنون. ولهذا السبب فأنه لن يضمن لهم أمر سلامتهم وهم بالطريق بعد أن يغادروه، فشكره الزبير على ذلك قائلاً: "إنك قد قمت بما يجب وبما تستطيعه. لكن عليك أن تتذكر أننى إذا هوجمت فأننى وحتى إذا مت فسأقتل الكثيرين جداً منكم". وفى أثناء ذلك الحديث قفز رجلان نحو الزبير يلوحان بحرابهم المشرعة. لكن الملك قابل ذلك بامتعاض شديد وزجرهما وأمر بالقاء القبض عليهما قائلاً... "إن ما قمتما به يعد أمراً مخجلاً." وإنهم قد أساءوا إليه بالهجوم على ضيفه فى حضرته وعاد الزبير دون أن يصيبه أى أذى إلى عشته. وكان الوقت عندها يقارب دلوف الشمس للغروب. وسأله رفاقه الذين كانوا معه بالعشة عما حدث، فأجابهم بإنهم سيتعرضون إلى هجوم أكيد فى الغد وهم على الطريق، وقال: "سيكتب القتل والقتال علينا بلاشك، ولكن لدينا الآن الطعام لمن هم بالمركب من رفاقنا، ومن الخير أن يموت أربعة منا فقط وأن يجد الكثيرون الآخرون القوت. فعليكم أن تكونوا رجالاً شجعانا وأن لا تكترثوا.. والآن دعونا لننام".

كانت نية الزبير أن يبدأ سيره خلال ساعات الظلام وقبل حلول الصباح وأن يبذل أقصى ما هو مستطاع من صمود عند النزال، ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن مطمئنا إبدا أو واثقا بوعد الملك "كوريام" له بإنهم سيكونون آمنين خلال تلك الليلة، ولهذا فقد فرض على نفسه أن يتولى الحراسة، وأن يقوم بالمراقبة الشديدة من عند مدخل باب الكوخ من الداخل، وكان ذلك الكوخ خارج زريبة الملك ولكن على مسافة قريبة جداً منها. وكانت الليلة مقمرة تطفو فيها السحب على وجه القمر. وأبصر الزبير كتلة سوداء تتحرك من تحت حاجز حظيرة الملك ثم رأى تلك الكتلة تتحرك ببطىء ثم تقف لتتقدم ثم تقف مرة أخرى، وظنها الزبير لأول مرة أنها مجموعة من الأهالى، ولكنها عندما أخذت تتقدم فى خطاها للمرة الثالثة، أدرك

أنها حيوان عظيم مفترس تقوده حاسة الشم نحو الكوخ الذى كان يقبع فيه هو ورجاله. وتقشعت السحب قليلاً كاشفة عن وجه القمر، فتوقف الحيوان للمرة الثالثة-وفى وضوح ذلك الضوء تبين له أنه أسد. وكان الزبير متعوداً على صيد الأسود، وكان ذلك الأسد على مرمي قريب من باب كوخه فرفع بندقيته وأطلق النار مصوباً على الجزء الواقع خلف الأذن من الجسد فأصابه وجرحه. بيد أن الأسد كانت ما تزال فيه بقية قوة من الحياة مكنته من أن يثب ثلاث قفزات قوية صوب الزبير أوصلته الوثبة الثالثة منها إلى عتبة الكوخ حيث خر ساقطا عليها فأجهز عليه الزبير بغدارته (مسدسه).

وأيقظ صوت الطلقة النارى "الملك كوريام" فانطلق يعدو هو ورجاله نحو مبعث الصوت، وعندما أبصر الأسد صريعاً متردياً، هرع إلى الزبير يطوق عنقه بيديه ويحتضنه تعبيراً عن فرحته الكبرى، وتبعه فى ذلك جميع أفراد أسرته جذلين مبتهجين، وأخبروا الزبير بأن ذلك الأسد ظل قرابة الثلاثين سنة سوط عذاب مسلط على الحى، وانه كان فى كل ليلة يقتنص منهم شيئا، وانه فى خلال حياتهم قد قضى على أكثر من المائتى ضحية من الأهالى، بخلاف الأطفال والماشية، وإنهم بذلوا عديد المحاولات للقضاء عليه دون أن يفلحوا فى قتله والتخلص من شروره-أما الآن-وكان الحديث للملك: "فبما إنك قد قمت بهذا العمل العظيم، فإنى سأبرم معك تحالفاً لئلا يمسَّك أى أحد بسوء." وأخذ الملك لبنا وصبَّه على الزبير ونثر فوقه رماداً قائلاً له: "والآن فقد صرت أنت منذ هاته الساعة آخا لى وواحداً من أفراد بلدى، وإنه لن يقدم أى أحد على أن يلحق بك أى أذى أو ضرر". وهرع الأهلون ليروا ما حدث وعندما شاهدوا الأسد المضرج بدمه، أظهروا فرحاً وإبتهاجاً عظيماً أنتظمهم جميعاً، وأضفوا على الزبير عبارات التجلة والتشريف، ووصفوه بإنه المنقذ والمخلّص لهم وجاء كل من الزعماء باللبن وبالرماد وصبوه عليه من فوق وفى الصباح القى الملك أمام الزبير خطبة بحضور جميع قومه قائلاً له "لقد عرفنا الآن أى نوع من الرجال أنت، ورأينا أنك تملك أسلحة أمضى وأشد فتكا من أسلحتنا.. ونحن نرغب فى أن نستبقيك معنا هنا بصفة دائمة وسنجعل منك زعيماً كبيراً معظّماً فيناً، وسنعاملك بكل تشريف وتوقير وتكريم، ولكنك لن تذهب عنا أطلاقاً، بل ستبقى معنا أبد الدهر لتقتل لنا أعداءنا كما قتلت هذا الأسد". ثم عرض الملك على الزبير أبنته لتكون زوجة له، لكن الزبير، الذى كان كل همه منصرفا ومنشغلاً بإمداد المؤونة لمراكبه، أجاب فقط بقوله: "استميحكم العذر لأن رفاقى ما يزالون جياعاً ولن أستطيع أن أفكر فى أى شئ حتى يتم إمدادهم بما

يلزمهم." وفى التو وعلى أثر ذلك، أرسل الملك الأبقار والحنطة، كما عبر كل من المواطنين عن امتنانه بتقديم سلال من السعف مملؤة بالحنطة، كذلك وبعد بضعة أيام تم تزويد المراكب بالحنطة وشحنها فيها لتستأنف الأبحار لرحلتها. وبقى الزبير محفوفاً ومطوقاً ومحاصراً محاصرة شديدة من قبل حراسه الجدد المعجبين به والذين أفتتنوا به للدرجة التى لم يستطيع معها أن يمضى فى سبيله وأن يرحل عنهم، وزفت إبنه الملك إلى الكوخ الذى خصص للزبير وكان عمرها سبعة عشر سنة. وكانت وسيمة عطوفة متوددة. فلبثت فى الكوخ ثلاثين ليلة ولكن الزبير لم يكن فى نيته البقاء مع تلك القبيلة. ولأورد القصة بالبساطة التى رواها بها لى، فإنه لم يكن من السهل عند الزبير أن يخلّف وراءه ولداً يولد له بعد هجرة إبيه، كما كان من المستحيل عليه أن يصطحب الفتاة ويأخذها ويسافر بها معه على النهر لتلاقى ما قد يواجهون به من تعرض للمجاعة مرة أخرى.

وفى ذات ليلة وبعد أن هيأت له الطعام وتهيأت له، دنت الفتاة من الزبير وركعت إلى جواره جاثية على ركبتيها وأبتدرته قائلة "هل أنا دميمة بشعة وقبيحة الخلق؟ "فأجابها الزبير مسارعاً يطمئنها بالنفى، ومضت تسائله... "هل بدر منى ما يعكر صفوك أو لا يسرك أو لا يرضيك حتى تصدف وتنصرف عنى هكذا ولا تبتغينى؟ ألا أعجبك؟ "وعاد الزبير يؤكد لها أنها على عكس ما ذكرته تماماً، واطراها بقوله لها أنها عطوفة ودودة وأنه يحبها. وعادت تسأله... "إذاً فلماذا لا تتخذنى زوجة لك؟ ورد عليها الزبير بأنه رجل يدين بالإسلام، وإن المسلمين لا يتزوجون بالطريقة التى يتزوج بها قومها، وأوضح لها أنه من الضرورى والواجب عليه أن يحضر من يتولى إتمام مراسم العقد والزواج من فقهاء ملته وفق الطريقة الشرعية، كما أنه يرى لزاما عليه أن يجلب ما يقدمه لها من الهدايا من بلده هو. وأبدت الفتاة ارتياحا وفرحا شديداً بذلك وأبلغت والدها بما قاله لها الزبير. وطلب الزبير أن يسمح له بالعودة إلى المركب للتحدث مع رفاقه فى الأمر ووافق الملك كريوم على ذلك وأرسل معه ثلاثين رجلاً من حراسه ليرافقوه. وعند وصول الزبير إلى أصحابه وبعد أن أستقر به المقام معهم تحدث أولئك إلى الحراس قائلين لهم. "إن الزبير هو كبيرنا وزعيمنا وأنه هو الذى جاء بنا إلى هاته الأصقاع النائية وعبر هذه الأنهار، فإذا حاول أن يهجرنا نحن ويتركنا هنا من أجل أن يبقى ويقيم معكم أنتم وأن يتزوج بأبنة ملككم، فسيكون فى نظرنا رجلاً تافها شريراً وخائنا لا أخلاق له ولا خير فيه، ولدينا الأسلحة النارية..وسنقتله ونقتلكم معه.. فعليكم أن تخلوا سبيله وأن تدعوه ليمضى معنا، فبذلك وحده تبقون على حياتكم وعلى

حياته" ولم يجد الحراس بدأ من الانصياع للأمر فخلوه ومضوا بعد أن حملهم الزبير أطيب تحياته وتمنياته إلى الملك ولأبنته. لكنه لم يرهم من بعد ذلك اليوم مرة أخرى.

كان مقرراً على الزبير ورفاقه أن يواجهوا صعاباً ومشاق عديدة وهم يجوبون على غير هدى عبر تلك الأنهار التى يبدو أنها كانت المنابع الغربية لبحر العرب. ومات أكثر من كانوا معه من الرجال السود ولم يبق من أبناء الشمال العرب الستة والأربعين الذين قدموا معه سوى سبعة رجال فقط، ثم تناقص عددهم مرة أخرى للحد النهائى الأدنى عندما وصلوا إلي قبيلة من صائدى الأسماك أرسلت معهم بعض الأدلاء ليدلوهم على الطريق وليوصلوهم إلى محطة "القنصل باتريك". ثم توفى بعد ذلك رجلان من بين الخمسة الباقين الذين وصلوا إلى الخرطوم وأصيب أثنان بالجنون وماتا بعد بضعة أيام من ذلك. وأستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً وخمسة وعشرين يوما بأكملها يعتبرها الزبير نهاية مغامراته ومكابداته ومجاهداته الأولى.

ووصلت المراكب إلى الخرطوم وهى تحمل أثمن وأقيم ما شحن بها من بضاعته وأصبح كل شىء بعد ذلك واضحا وممهدا أمامه، وأصبح يشعر فى نفسه، وكما جاء على لسانه.. "إن تلك كانت هى الأرهاصات الأولى لبداية الرجل العظيم الذى سوف يكونه."

بقى الزبير ثلاثة شهور فى الخرطوم أتم خلالها تصريف العاج، وأشترى بضائع أخرى للمقايضة بها، وإستاجر مائتى رجل ليصبحوه كحراس. وفى أوائل عام ١٨٦٢م شد الرجال لحملة أخرى توجه فيها هاته المرة إلى مدينة يقال لها "مندقبا" فى بلاد البونقو عرفت فى الخرائط الأوربية "بديم سليمان". وكان اسم ملك مندقبا هو "ادو شكو" وهو من أعظم الملوك المحليين والذى إمتدت رقعة إقليميه لتزيد عن مسيرة عشرين يوماً، وكانت حدودها بالتقريب تقع بين خطى عرض ٩ و٧ درجات شمالاً، وخطى طول ٢٣ و٢٥ شرقاً، ويحدها من الشرق والغرب "دار بنة" و"دار فرتيت"، ومن الشمال والجنوب "حفرة النحاس" و"بلاد النيام نيام"، وكان قد سبقه إليها ستة من التجار لم يحسنوا التعامل مع الوطنيين المحليين محدثين قلاقل فيها وحاربوا الملك مما أدى إلى طردهم من البلاد. وخشية أن تتكرر تلك القلاقل، رفض الملك مقابلة الزبير فى البداية. وعند إعلان الملك لذلك القرار قال له الزبير: "حسناً جداً .. وسأذهب ... فإنى لم أجئ لأقاتل، ولن أعمد إلى القوة لأخذ أى شئ قسراً، فإذا كنت لا تريدنى فسأتركك، ولكنى سأكون سعيداً ومسروراً إذا

منحتنى إذنك بالإقامة إلى ما بعد نهاية موسم الأمطار والخريف فقط وسأتاجر معكم بسلام". وقدّم إلى الملك هدايا سرَّ بها كثيراً. وبعد نقاش وجدال توصلاً إلى اتفاق يسمح بموجبه لقافلة الزبير أن تبقى لمدة ستة شهور فى الإقليم ولكن ليس فى مدينة "ماندقبا". وخُصص لمعسكره مكان على بعد أربع ساعات خارج المدينة وأنشأ الزبير به محطة أحسن تحصينها وبنى بها عدداً من المخازن. وظل الزبير طيلة الفترة المحددة التى اتفق عليها وفياً لمبادئه السلمية ملتزماً بها، وكذلك بتعامله الودى مع الأهالى وتقديمه الهدايا إلى الملك والى مستشاريه، وفرض الانضباط الحازم على رجاله وتقيدهم بالنظام محرماً عليهم أن يتشاجروا مع أى مواطن محلى بأية ذريعة أو سبب من الأسباب، أو أن يأخذوا أى شئ منهم ولو قصبة سكر واحدة دون أن يدفعوا ثمنها لهم، ووضع الزبير قاعدة ثابتة لدفع أسعار محررة لكل ما يشترى من بضائع. وكانت نتيجة كل ذلك أن هرع إليه الأهالى بالعاج وبغيره من الحاصلات والمنتجات الأخرى. وعنما سمع الملك بما أنشأه الزبير من استحكامات وبما أقامه من تحصينات حول معسكره، خرج ليراها بنفسه واستفسر عنها وتساءل باهتمام واضح يشوبه القلق عن لماذا يقيم الزبير أبنية فى بلد لم يسمح له بالبقاء فيه لأكثر من ستة أشهر فقط؟ وأجابه الزبير بأنه، وبسبب وجود الوحوش والسباع والفهود فى المنطقة، فقد رأى لزاماً عليه أن يحصن رجاله وأن يحميهم. وبعد فترة قام الزبير ببناء ثكنات داخل حدود المنطقة التى خصصت له أثارت هى الأخرى شكوك الملك واعتراضاته، ومضى الزبير يعلل لزوم إقامتها بتذكيره له بقرب موسم هطول الأمطار وبأنه من الضرورى للبضائع وللرجال أن يوقُّوا بغطاء ضدها على حد سواء، وأومأ له بأن ذلك كله سيؤول إليه فى النهاية و"سيعود خيره ومنفعته لأدوشكو عندما يجلو هو وقافلته عن المكان راحلين عنه."

وسر الملك بسماع ذلك وأذن للزبير فى أن يقيم وينشئ من أبنية كما يشاء، -فشيد الزبير موضعاً دفاعياً قوياً كدّس بداخله المؤن والعتاد- وكان الزبير مزوداً تزويداً جيداً بالذخيرة، كما كان كل فرد من رجاله مسلحاً ببندقية فرنسية الصنع وبمسدس وبسيف. وعلى الرغم من إجراءات الحذر والحيطة الشديدة تلك التى اتخذها، فقد ظل الزبير حريصاً على أن يستمر السلام سائداً ومستمراً، وبأن يتاجر تجارة ناجحة، وبأن يجعل نفسه مميزاً معروفاً، وأن يصير فى الوقت ذاته، محبباً لدى أدوشكو وقومه. وحدث بعد مضى فترة ثلاثة شهور من إقامته أن قتل أحد رجاله وسرقت أسلحته فلم يلجأ الزبير إلى الانتقام ولكنه بدلاً عن ذلك حمل

جثة الرجل القتيل إلى الملك وقال له .. "انظر إلى ما حدث ... والآن إذا كنت ملكاً عظيماً فإنك ستقضى بالعدل، وإن كل ما أطلبه هو أن تعاد أسلحة القتيل التى سرقت منه إلينا .. وسأترك أمر عقوبة الجانى والقصاص منه إليك." فمنحه الملك أرضاً ليدفن فيها الميت وعمل على أن تعاد له أسلحته وقام بعقاب القاتل. ثم تكرر حدوث نفس الشئ بعد مضى فترة أربعة شهور أخرى، فكرر الزبير نفس ما فعله من قبل بالتقدم بطلب العدالة والحصول عليها بسلام -ومضت سبعة شهور أخرى وحل موعد الحصاد فقال له الملك .. "أن عليك الآن أن ترحل فأنا لا أريد بقاءك أكثر من ذلك فى بلادى" وأصبحت مخازن الزبير التى اتسعت فى ذلك الوقت ذات أهمية كبرى وذات قيمة عظيمة، فأجابه الزبير بأنه ليست لديه من القوة ومن الوسائل ما يمكنه من السفر بحرسه القليل الذى كان معه، وطلب من الملك أن يسمح له بالبقاء إلى أن يتمكن من استقدام أو استجلاب مزيد من رفقائه ليساعدوه على الجلاء. ورفض الملك الطلب. بعدها أخذ الزبير يوفد رسله إلى الملك فترددوا عليه خمس مرات ليطلبوا منه أن يمدهم بمؤونة من الحنطة عن طريق البيع ليتزودا بها فى سفرهم فقتل الملك أولئك السفراء وقرر أن يشن الهجوم على معسكر الزبير وأن يستولى على ما فيه. ولم يكن ذلك القرار من جانب "أدوشكو" مفاجئاً كما يبدو من هذا الحديث المقتضب، لأنه لم يكن أبداً على وفاق مع التجار المصريين، وكان الزبير يتوقع منذ وقت ليس بالقصير مثل ذلك الهجوم إذ كان له أصدقاء من بين رجال أدوشكو سبق أن حذروه من ذلك.

كانت قوات الأهالى الوطنيين بقيادة الملك شخصياً وكانت أعدادها كبيرة جداً تتجاوز وتفوق كل النسب إذا ما قيست بقوات الزبير، لكن معسكر الزبير كان محصناً تحصيناً شديداً، كما كان رجاله المائتين جيدو التسليح والتدريب. وأمرهم الزبير بأن لا يبددوا ذخيرتهم ويضيعوها شذر مذر فى الإطلاق العشوائى، مشدداً عليهم أن يحسنوا التصويب، وأن يتعقبوا زعماء جيش العدو ويجعلونهم أهدافاً لرميهم. واستمر هجوم الأهالى ثلاثة أيام متوالية، وأمكن إيقاف زحفهم، لكن ذلك لم يكن بدون وقوع خسائر على الجانبين. وجرُح الزبير نفسه فى المعركة، كما فقد أدوشكو أثنى عشر زعيماً من زعمائه، وفى اليوم الثالث قتل "أدوشكو". وفى اليوم الرابع عندما أصبحت قوات الأهالى بغير قائد واختل نظامها، تحول دفاع الزبير بدوره إلى هجوم شنه بسريَّة من رجاله، فكانت النتيجة نصراً عظيماً مؤزراً خضعت مدينة "ماندقبا" بعده له بالتسليم، وفر ابن الملك "أدوشكو" المسمى "شايدا" مع آلاف من رجاله إلى جبل يقال له "ساروقا أو سارانقا".

وعندما انتشرت أخبار وقوع "مندقبا" فى يد الزبير، أخذت القبائل المجاورة تفد إليه وتعلن خضوعها واستسلامها له تباعاً، وتوسلوا إليه ليحل محل "أدوشكو" فيهم على أن يتاجر معهم لا أن يحاربهم. وكان أول من جاء إليه منهم "الزعيم أودو" ليكون حليفاً له ضد الآخرين، ثم جاء "أندقو" و"قولو" "ومانقا" و"انقنواراف" و"كوتى" و"فارا" و"شايروا" و"فاروره" وغيرهم ممن كانوا يدينون بالولاء "لأدوشكو".

وهكذا فجأة انتقل الزبير من تاجر ليصير ملكاً. وبعد عشرين يوماً توجه الزبير إلى القبائل بمخاطبته لهم قائلاً .."نحن الآن فى زمن الحصاد فدعونا نوقع تعهداً على السلام وانصرفوا لجنى حنطتكم ولحصادها، وإلا فستكون هناك مجاعة عندما يحل الشتاء" وسرت القبائل سروراً عظيماً بذلك، وساد السلم فيما بينها، ورجعت أعداد كبيرة منهم إلى بيوتهم وإلى ديارهم، لكن "شيدا" ابن الملك بقى مقيماً ومعتصماً بالجبال، وأخذ يهدد بنزوله للقتال. وخاطب الزبير الأهالى بقوله: "إنكم تتحدثون عنى بأنى رجل عاقل وعادل .. وأنتم تريدون منى أن أتولى حكمكم .. فإن كان الأمر كما تذكرون فمن منكم سيكون فى صفى ومستعداً لأن يقابل شايدا بن أدوشكو؟". ووعده خمسة آلاف منهم بأن يقاتلوا فى صفه، فقال لهم الزبير: "إذاً فليمض كل من يخذله قلبه أولا تطاوعه نفسه إلى بيته ولن يصيبه منا أى أذى .. بل عليه أن يقوم بحصاد الحنطة هناك وهو آمن". فمضى عدد قليل منهم، وبهذا فلم يبق معه فى جيشه منهم إلا من كانوا شجعاناً أقوياء، توجه بهم وهو على رأسهم يقودهم صوب الجبال التى يقيم بها "شايدا" وبادره بالهجوم، وارتد مرتين مُنِىَ فيها بخسائر فادحة تبين له بعدها أن موقع "شايدو" أقوى وأعتى بكثير من أن ينال عن طريق الهجوم. فضرب حصاراً حول الجبال استمر لمدة ثمانية عشر يوماً.

عند شروق شمس اليوم التاسع عشر، أبصر أحد رجاله وهو يطل من باب خيمته، شخصاً قادماً نحوهم فى الصباح وصاح قائلاً ... "إنه شايدا! وبالفعل جاء "شايدا" معلناً الخضوع، واعترف بكل أخطاء أبيه. وأذعن ستة عشرة من الزعماء الذين كانوا معه بالتسليم واضعين أنفسهم وحياتهم فى يد الزبير. وقبل الزبير تسليمهم، وأبلغهم بأنه ليست لديه أية رغبة فى أن يحكم أو أن يقتل أحداً. وعاد "بشايدا" إلى "ماندقبا" وأعاد تنصيبه ملكاً على عرش أبيه ولكن بشروط محددة وخلع على الزعماء الستة عشر الخلع والكساوى، وسمح لهم بأن يعودوا إلى منازلهم بعد أن أصدر أوامر مشددة بأن لا يُمس أى من نسائهم أو أطفالهم بسؤ. وكان هذا

الصنيع المتسامح، كانت هذه الرأفة والرحمة من الزبير، مثار دهشة بالغة واستغراب لدى أناس كانوا يتوقعون أن ينزل بهم أشد أنواع القسوة والعذاب. ولهذا ذاع خبرها وانتشر على نطاق الإقليم كله. وبعد مضى خمسة عشر يوماً من عودة الزعماء إلى ديارهم، أعلنت كل مقاطعات إقليم "أدوشكو" ولاءها وخضوعها للزبير، واتفقت جميعها على أن تختاره ملكاً لهم، وظل "شايدو" يتمتع بلقب والده وبرتبته الاسمية فقط، لأنه وفيما يبدو ،وقع فريسة الاعتماد الكلى والاستناد على الزبير، ليجد نفسه ملقياً خارج دائرة التاريخ . . شخصية صورية لا وجود ولا أثر لها. وقبل الزبير أن يحمل لقب السلطان الذى خلعه الملوك من ذوى المرتبة المتدنية عنه، والذين كانوا أقل شأناً منه، وبدأ يحيا بعدها حياة بلاط ملوكية فى ماندقيا.

المقال الثانى

تحدث الزبير عن طبيعة البلاد التى حل فيها فوصفها بأنها بلاد مخضرّة ومزهرة ومليئة بالأمواه الجارية. وكانت وفرة المياه فيها هى التى حملته لأن يتخذ منها مقراً لإقامته، ووصف طقسها بالجودة وبأنه صحى جداً وأقل حرارة بكثير من بعض أجزاء دارفور وكردفان، ووصف التربة فيها بالخصوبة التى تكاد تفوق حد التصور، وذكر بأن الأشجار الأوربية تنمو وتزهر فيها مع الأشجار الاستوائية جنباً لجنب، وقال أن كل ما رأيته هنا فى جبل طارق كان ينمو هنالك أيضاً ولكن بشكل أكثر اكتمالاً وأعظم نضجاً. فالموز فيها ينمو بُرياً من غير أن يزرع (ينبت بروسا)، وبأنواع عديدة ومختلفة يبلغ حجم بعضها ثلاثة أو أربعة أضعاف الحجم المألوف الذى نعرفه، وبوفرة وبغزارة جعلته يستعمل بصفة عامة علفاً للبهائم. كذلك كان البطاطس ينمو (بروسا)، وذكر الزبير له ثلاثة أنواع، بعضها بحجم رأس الإنسان، ولكن بشكل أكثر طولاً، والبعض الآخر منها أطول من ذلك ولكنه أضيق، وتتصل به جذور تمتد أحياناً لنمو عشرين قدماً على مسافة عمق قريبة من سطح الأرض، وعندما يكتمل نضجها، تشق قشرة الأرض التى فوقها لتبقى مكشوفة فى العراء ومتعرضة للهواء. أما النوع الثالث فهو البطاطس الأوربى العادى الذى نعرفه، وهو بحجم قبضة اليد ويستطاب جداً ليتناول كوجبة طعام شهية إذا ما غلى بالماء. ويعتبر التبغ من النباتات المتوطنة لتلك التربة المحلية وكذلك شجرة تعرف "بالكمبة" تستعمل ثمار أعلاف بذورها كبديل متميز لقهوة البن. وقد وصفت لى بأنها من أشجار الغابة التى تنتج محصولاً وفيراً من البذور. ويمكننى أن أتحدث عن المشروب الذى يصنع منها عن تجربة، ذلك لأننا كنا نتناوله ونحتسيه عادة خلال زيارات ما بعد الظهر التى كنت أقوم بها للباشا، وقد أرونى تلك البذور وشرحوا لى طريقة تحضيرها وصنعها، وهى أغلفة أو جيوب سمراء ذات رائحة ونكهة طيبة يحتوى كل منها على أربع أو خمس حبات صغيرة قرمزية اللون، وقد انبئت بأنها عندما تكون جديدة وطرية فإن حبة واحدة منها تكفى لأن تضوع غرفة كاملة برائحتها الحلوة وشذا عبيرها الفواح، أما الحبوب التى صنعت منها القهوة التى شربناها فقد تم جمعها منذ ثمانية عشر سنة مضت كما ذكر الباشا، وكانت ما تزال رائحتها طيبة وزكية جداً. وقهوتها طعمها حار وحارق ولاذع أكثر من القهوة العادية، ويخيل إلى بأنها أشد تنبيهاً وأكثر إنعاشاً فى تأثيرها منها. وهى لا تختلف كثيراً فى طعمها عن القهوة التى توضع عليها أغلفة

الفلفل الأحمر الحرّاق أو التى تخلط بالزنجبيل. وتنمو كذلك الأعناب بأنواعها المختلفة الأحمر منها والأسود على السواء بريّة دون زراعة فى ماندقبا (١) وقصب السكر والمطاط والتمر هندى (العرديب) والبلح وكل أنواع الحنطة الأوربية وعدد كبير من الفواكه التى لم يسمها الباشا، وكذلك الزهور بغزارتها المخضلّة التى تكسو الأرض مرة حلة قرمزية، وتحيلها مرة أخرى خميلة موشاة بالبياض أو الزرقة. أما أنواع الحيوانات والطيور فتوجد بأعداد يضيق بها الحصر. وهناك نوع من أشجار النخيل يستخرج منه الأهالى الزبد (لعله جوز الهند) تنمو ثماره فى شكل سبائط هى من الضخامة بحيث تعدل كل سبيطتين منها حمولة جمل. وبلحها صغير ولكنه غنى مكتنز، وعندما يغلى فإنه يذوب ويستحيل إلى مركب فى صفرة النحاس بمذاق فيه بعض الحلاوة، ولكنه أشبه ما يكون بالزبد (أو السمن) ويستعمل مثله لأغراض الطبخ. والعسل كثير كثرة الماء .. كما يكثر وجود الحديد والنحاس ولكن الباشا لم يورد ذكراً لأى من المعادن الأخرى مبدياً أسفه عن قصور معلوماته بمثل ذلك الموضوع ومضيفاً وهو يبتسم بأنه: "مثله مثل الأهالى. فهو جاهل ينتظر أن يتعلم". غير أنه كان على اعتقاد بوجود معادن أخرى. وقال أن البلاد غنية للدرجة التى تجعلها وكأنها مستودع للكنوز ولكن مواطنيها فقراء وذلك بسبب الجهل وعدم المعرفة، فهم يجهلون ما يملكونه من خيرات، ومع كل تلك الفواكه الكثيرة الملقاة على الأرض فإن بعضهم يأكل بعضاً ويقتتلون، لأنهم يقضون كل حياتهم عادة فى القنص والصيد ولا يعرفون أية طريقة أخرى يُقضُّون بها خصوماتهم ومنازعاتهم ومعاركهم. ومع كل هذا فهم بطبعهم طيبون ولطاف المعشر ولديهم الاستعداد الفطرى التام لتعلِّم سبل السلام ممن يفدون إليهم بسلام.

تلك كانت هى حالة البلاد، وأولئك هم سكانها، الذين طلب من الزبير أن يتولى حكمهم، وجد الزبير نفسه كتاجر أمام سوق غنى جديد، وكرجل، وجد أمامه أعمالاً لتشغله وتكفيه. أوكما قال لى ببساطة: "إننى منذ بداية ذلك الوقت صرت بالفعل مشغولاً جداً ولم أجد أى فراغ بعدها إلى أن أتيت إلى القاهرة، ولم تكن لدى أية رغبة فى أن أكون ملكاً، لكن كل رغبتى كانت فى أن أتاجر وأن أعمل لنشر المدنية والتحضر، ولكنى لم أكن أملك من أمر نفسى شيئاً، ولقد كنت آنذاك هناك، كما أنا الآن هنا، أصنع ما أراده الله بى ... سلطاناً، أو سجيناً، فإن ذلك أمر لا يهمنى

---

(١) يطلق "شوونفيرث" على هذا المكان اسم (ديم اندقو) أما تسميتها بماندقبا فمأخوذ عن ما سمعته من الزبير، وقد حدثنى أيضاً بأن الأهالى يطلقون عليها اسم باهية وكريش (الكاتبة) وأم دقو اسم معروف بالجيلى يحمله بعض خدم الزبير (المعرب).

أو يعنينى كثيراً، بقدر ما وضعت مصيرى وأمرى كله بين يديه (الله)، فقد حاولت جهدى وبنفس القدر هنا وهناك، أن أحافظ على حياتى لتكون صافية ونقية وطاهرة، ولى القناعة والوثوق والطمأنينة التامة بأنك، إذا ما ذهبت إلى بلدى وسألت قومى عنى، فلن تجدى من بينهم من يقول لك أن الزبير كان رجلاً قاسياً، أو ظالماً، أو غير عادل، وسيقولون لك أن الزبير لم يخدعنا يوماً ما، أو يغشنا أو يكذب علينا، وأنه لم يظلم أياً من المساكين أو ينسى التعساء والمحرومين من السعادة، ولكنه كان يمضى قوياً فى سبيل تحقيق العدالة والإنصاف، وأنه، طيلة فترة حكمه لنا، كان النظام سائداً على الأرض، ولم يخش أحد من أن يناله من جيرانه أذى أو يمسه سوء."

ولكى نفهم رأيه الشخصى عما حققه وما قام به من أعمال حتى نقوّمه بعدالة، فمن الضرورى معرفة أحوال الناس الذين تولى حكمهم آنذاك. فقد كانوا جميعاً من السود تقريباً، كما كانت غالبيتهم العظمى من آكلة لحوم البشر، وإن كان من بينهم كما سبق أن ذكر من قبل، بعض أجناس وسلالات المواطنين البيض. كانت تجارة الرقيق قد بدأت تروج وتزدهر فى تلك المديريات النائية، كما كان اقتناص الرجال أمراً عادياً فى كل مكان فيها سواء كان من أجل أن يؤكلوا أو لأن يباعوا.(١)

وتقول الصحفية أنها تعلم حقيقة تروج بين قبائل السودان أن الناس يترنمون بأغانى وأهازيج كثيرة فى مدح الزبير.

كان من الطبيعى أن يؤدى كل ذلك إلى خلافات وإلى ضغائن وأحن لا نهاية لها، وأن يكون الاحتراب والتقاتل وحده هو ما يقوم به الناس من عمل. وكان جهلهم بدرجة لا يمكن وصفها. ولم تكن لهم أية فكرة ولو مبدئية عن التجارة أو الزراعة، كما كان رأيهم الوحيد فيما يتعلق بأى من المسافرين هو أن يقتلوا، أما العدالة والأمانة فما كانوا يعرفون عنها شيئاً ومن أوجه الغرابة الشديدة فى الأمر التى كثيراً ما كان الزبير يتناولها فى حديثه، أن أياً من هاته الفضائل لم تكن معروفة بينهم، ولكنهم عندما يتعرفونها، كانوا يقدرونها ويعجبون بها بوجه عام. وكانت لهجاتهم متعددة ومختلفة جداً، ولكى يتسنى للزبير أن يتفاهم مع الزعماء مباشرة

---

(١) كما ورد فى كتاب شوونفيرث "قلب أفريقيا" بالصفحة ٩٣ تحت باب آكل لحوم البشر عند المابوتو كان ما يستعملونه على نطاق شامل، هو شحم الإنسان فقد كانت توزع جثث كل من يتساقطون قتلى فى الحرب لتجهز عن طريق التجفيف، ثم لتنقل إلى منازل الغزاة المنتصرين الذين كانوا يسوقون أسراهم أمامهم دون تبكيت أو تأنيب ضمير، كما يسوق الجزارون الأغنام إلى المسالخ ... حيث يحتفظ بهم ليكونوا ضحايا فى وقت لاحق لإشباع أطماعهم البشعة المخيفة التى تدعو للاشمئزاز.

قام بتعلم ستة عشر لهجة منها، ولكنه مع ذلك كان يجد نفسه مضطراً أحياناً لأن يستخدم التراجمة كوسيط. ولم تكن الديانات أقل تعدداً واختلافاً عن اللهجات، إذ كان لكل شئ نصيب من العبادة لدى كل قبيلة وأخرى، ولكن تنوع الديانات لم يكن عائقاً خطيراً فى سبيل خطط الزبير مثل ما كان تنوع اللغات، ولم يكن هناك تعصب شديد ضد المتطرفين والمتشردين من المتدينين. فإذا حدث أن لم تستجب النار للدعاء مثلاً فإنهم يقدمون إلى الماء، الضحية كقربان. وتنطلق صيحاتهم عند نفاذ صبرهم بقولهم: "ربما كان إلاههم ذاك قد خرج للصيد ... أو ربما كان نائماً !" ويتم عند ذاك تحولهم من معتقدهم بنفس السرعة واليقين والسهولة التى يرتد بها عباد الأصنام الأقدمون. ومع أن الزبير كان له إيمان عميق وصادق، وثقة فى عقيدته وفى دينه، فإنه لم يقم فى بداية أمره بمحاولة تحويل الغير إلى دينه، لأنهم وكما قال: "كانوا على جانب كبير من الجهل". وكانت المهمة الضرورية الأولى عنده أن تتحقق سيادة النظام. وليقوم بذلك، ومهما كانت غاياته ووسائله وأهدافه ومراميه سلمية، فمن اللازم له أن يكون هو نفسه قوياً. ولم تمض أيام قليلة على قبوله تولى زمام السلطنة حتى سارعت أغلبية الدويلات المجاورة مذعنة له بالخضوع. ومن بين هاته القبائل "الانقاتو والبندا والكتواكا وعبد البارى والداهوت والتاكا". وبقيت قبيلة "والوقهى" وحدها مناوئة له إلى أن تم إخضاعها بعد قتال دام سبعة أيام.

وفى غضون فترة شهرين كانت كل المنطقة الداخلة فيما يمكن أن يقطعه المسافر فى رحلة تبلغ العشرين يوماً، تنعم بالسلم التام. "وعقد الزبير بعد ذلك مجلساً ضم جميع الزعماء الذين حالفوه وخاطبهم قائلاً : "لقد حققت الآن لكم السلام فى بلدكم "وأجابوه قائلين: "نعم لقد كان من حسن طالعنا أن تجئ لتتولى الحكم فى بلادنا." فقال لهم الزبير "أنكم ترون أنه قد أمكننى القيام بذلك كله لأنى قد صرت قوياً، وذلك بمعونة عدد قليل من جنودى، وأن الحكمة والمعرفة وليست الكثرة والعدد هما سبب وسر قوتى. فاعطونى فتيانكم من الشباب وسأقوم بتدريبهم لأجعلهم يحاربون مثل جنودى تماماً، وسأقوم بتسليحهم وسوف لا نكون نحن بعدها دويلات ضعيفة متفرقة وإنما دولة قوية واحدة." وأبدى الزعماء سروراً عظيماً بما سمعوه وأخذوا بعدها فى إرسال شبابهم إليه ليقوم بتدريبهم. وعمل الزبير على استجلاب أسلحة كثيرة من مصر، وكون جيشاً بلغ عدده فى النهاية أثنا عشر ألف رجل (١٢,٠٠٠) تم تجنيدهم بالطريقة التى سبق ذكرها. لكن كل شئ فى تلك الفترة كان فى الطور الأوّلى البدائىّ كحال الجنين عند التكوين، إذ أنه كان ما

يزال هناك الكثير مما يجب عمله للتنظيم وللتدريب. فجعل الزبير من جنوده النواة، ثم وجد بعد ذلك فى أبناء الملوك وأتباعهم الذين أحسن اختيارهم وتم انتقاؤهم، والذين رأوا فى تمكينهم من استعمال الأسلحة الأوروبية ميزة وامتيازاً، وجد فى هؤلا وأولئك مادة صالحة للبداية. وطيلة فترة تكوين الجيش، بذل الزبير جهوداً مضنية لغرس ولترسيخ المبادئ الأولية والأساسية للزراعة وللتجارة الداخلية. وكان جنوده هم الموظفون الوحيدون للحكومة الذين يستخدمون فى أغراض شتى. وقبيل موسم نزول الأمطار قام بتقسيم من كانوا معه وتوزيعهم، وأخذ فى إرسالهم إلى كبار الزعماء الرئيسين فى المنطقة ليطلبوا منهم تجميع الأهالى وحشدهم لتنظيف الأرض ولتنقيتها من الأعشاب، وليقولوا لهم أن الأمطار قادمة، وأن عليهم أن يغرسوا البذور فى جميع الأماكن المكشوفة، إذ لم تكن عمليات الزراعة معروفة بينهم على ذلك العهد وتوفر بذلك للأهالى جمع كل ما يكفيهم لأكلهم من نتاج البذور التى شتتوها شذر مذر بين الأعلاق. وعندما اكتشفوا الفرق الكبير فيما جنوه من محصول فى الأراضى بعد أن قاموا بتنظيفها المسبق جيداً، تملكتهم الدهشة والاستغراب، ومع ذلك كانت هناك حاجة بالضرورة لإرسال بعض الجنود كل سنة للتأكد من إنجاز تلك المهمة، وإلا فإن المعاذير كثيراً ما تأتى بما يتعلل به الأهالى من أسباب، كخروجهم أو انشغالهم أو نسيانهم للأمر، واستن الزبير بعد ذلك قاعدة تجعل كل زعيم مسؤولاً عن منطقته، وأعارهم الجنود ليعاونوهم فى العمل، كما قرر أن تدفع جميع الضرائب تقريباً عيناً من الحنطة. ورغم خصوبة أرض تلك المناطق، فقد كانت بطبيعة الحال تخضع لما تزخر به المناطق غير المزروعة من تباين وشذوذ عن القاعدة، ولهذا كان تأمين الإمداد بالطعام للغذاء من أولى ضرورات ومقومات التقدم. وفى سبيل تحقيق ذلك اهتم الزبير بدراسات أمور الزراعة شخصياً، وأصبح عليماً بما تنتجه التربة فيها من محاصيل، وعندما حل الوقت الذى رحل فيه الزبير عن أولئك القوم مغادراً لمنطقتهم، كان اعتقاد الزبير أن أحسن وأصدق ما يمكن أن يوصفوا به هو أنه يمكن أن يطلق عليهم بحق بأنهم غدوا فعلاً شعباً من المزارعين".

أما عن التجارة، فقد شرح لى الزبير، وقد علت وجهه ابتسامة رضى عريضة، كيف أنه أوجد ونظّم بيديه أعداداً كبيرة من الأسواق، وكان فى أحاديثه مع الزعماء يوضح لهم أنهم بدل أن يكونوا أعداء لبعضهم البعض فإنما هم فى واقع الأمر إخوان لجيرانهم يساعد بعضهم الآخر كأبناء البيت الواحد، ويقول لهم: "أنكم عندما تتقاتلون وتتحاربون يصاب شباب الفريقين منكما بالضر وبالأذى ويفقد

كلاكما القتلى ويخسران الجرحى ويقتاد شباب الفريقين منكم ليؤخذوا أسرى، ولكنكم إذاتتاجرتم فيما بينكم فسيصبح كل من الفريقين منكما أكثر غنى، لأن كلا منكما سيعطى ما ليست له قيمة عنده لينال به كل ما هو محتاج إليه، إذاً فهيا تعالوا وأقيموا سوقاً واشتروا وبيعوا مع إخوتكم". هكذا ظل يحاورهم بحديثه دواليك حتى إذا ما عقلوه صاح فيه أحدهم بدهشة متعجباً "... سوق!!؟ أرنا ماذا تراك تعنى بالسوق؟"، فأحضر الزبير بعض الجنود ورتب الأهالى وبضائعهم فى صفوف وخاطبهم كما لو كانوا أطفالاً، بقوله "اجلسوا هناك وبيعوا"، وبعث بالعساكر ليجوبوا أرجاء المنطقة ليخبروا الأهالى بأنه بوسعهم بعد ذلك أن يحضروا ليستبدلوا كل ما عندهم بما يريدون من حاجيات، وظل الزبير يستحثهم لعقد ذلك السوق فى نفس اليوم مرة من كل أسبوع ليعرفه الجميع وليحضروا إليه، وأدرك الناس شيئاً فشيئاً ما وفره لهم ذلك من فائدة ومن راحة، وأخذوا يتقاطرون من جهات بعيدة، للحد الذى شكا منه الزعماء الذى يسكنون بعيداً عن تلك الأسواق، من أنهم يقضون كل أوقاتهم فى السفر جيئة وذهاباً. وكلما حدث ذلك اغتنم الزبير الفرصة وقال لهؤلاء، "إذاً عليكم أن تنشئوا أنتم أسواقاً فى مناطقكم مثلهم ودعوا الآخرين ليسافروا هم إليكم لحضورها" وهكذا، وبالتدرج تمت إقامة أسواق عديدة فى داخل أعماق المنطقة، فانتشرت فكرة ومفاهيم السلام مع مفاهيم التجارة جنباً لجنب.

وعندما سألت الزبير عما إذا كان قد حاول فرض أية رسوم على الأسواق أنذاك، ابتسم الباشا ساخراً من جهلى وقال: "أنا لم أكن أريد أن أمنع التجارة، وإنما كنت أريد تشجيعها." وكانت الضرائب الوحيدة التى فرضتها يتم استيفاؤها من أكثر الحاصلات وفرة وأغزرها إنتاجاً فى الإقليم، والتى تنحصر عادة فى الحنطة والعرديب والعسل، وكانت الجزية المتقاضاة تحدد بمقادير ضئيلة، ولا يجرى تحصيلها بشكل منتظم أو ملزم أو دائم، ففى سنىّ الخير والوفرة والرغد يتم دفعها وتحصيلها، ولكنها فى السنوات السيئة العجاف، فإنه لا يصر على تقاضيها. والجزية أمر لابد منه، إذ بدونها لا يعتقد الأهالى بأنهم محكومون، ولكن جبايتها بانتظام فى مواسم المحل والجدب، ستكون بالمثل فوق طاقاتهم وبعيدة عن فهمهم وإدراكهم. فالحاكم كما يردد الباشا فى كثير من أحاديثه يجب عليه أن يفهم من يحكمهم جيداً، لأن القوانين التى تكون صالحة لقوم قد تكون سيئة عند الآخرين، وذلك هو السبب فى أن الأتراك لم ولن يمكن لهم أن يحتفظوا بالسودان فى قبضتهم إطلاقاً لأنهم لا يعرفون السودانين ويعاملونهم كما لو كانوا من سكان

القاهرة أو اسطنبول. وبسؤالي له "لكنك إذا لم تفرض ضرائب ثابتة وبشكل منتظم فكيف كنت تستطيع إذاً أن تصرف على نفقات الحكم وتكاليفه؟" فأجابني بقوله "إنما كان ذلك من حر مالي ومن ربع تجارتي الخاصة التي ستعلمين بها عندما يأتي حديثي لك عنها، فقد كنت تاجراً أعمل لنفسي ولم أكن موظفاً يدفع له الأهالي، بل كان من مصلحتي ومصلحتهم هم أن تكون البلاد في وضع طيب ومستقر".

وبقدر ما كان الزبير يرغب في السلم فقد وجد أن الحرب هي التي كانت تفرض نفسها عليه، إذ استأثرت السنوات الأولى من سنى حكمه بحملات عديدة ومختلفة ضد زعماء المناطق الممتدة إلى الجنوب وإلى الشرق، وكان من أهمها تلك الحملات التي وجهها ضد "موتو" ملك أنداقو فمنذ سنوات خلت، وحينما كان الزبير ما يزال مقيماً في الديوم، قاد أحد أبناء عمومته "المدعو منصور" حملة مشؤومة منيت بكارثة، إذ اتجه بها جنوباً صوب منطقة أنداقو، وباغته فيها "موتو" بغارة ليلية ذُبح فيها منصور مع مرافقيه. وقام الزبير وقتها بتجميع عدد قليل من العساكر وزحف بهم ليثأر لابن عمه، ولكن قوته كانت قليلة جداً فأجبر على التقهقر دون إحداث ما يحقق أي حسم للأمر، ولهذا فقد كان هناك حقد قديم ومتأصل بينه وبين "موتو"، الذي كان ألد خصومه وأعدائه ومعارضيه الأوائل عندما استقر ووطد مركزه في ماندقيا وهو ذلك الزعيم المرعب المهيب، وتسبب "موتو" في إزعاج الزبير بتوجيه غارات عديدة شنها على جبهة حدوده. ولكن الزبير، بسابق خبرته وتجاربه، فضل أن يتريث حتى يكمل تنظيم قواته قبل أن يخرج بها لمواجهته وقتاله، وعندما أحس الزبير في نفسه باكتمال استعداداته، أعلن عليه الحرب، وكانت النتيجة انجلاء المعركة عن هزيمة نكراء "لموتو" إذ تفرق كل أتباعه بعدها فارين بعيداً عنه، وأعجب جيران "موتو" إعجاباً شديداً بالقوة القاهرة لجيش الزبير وبقواته المنتظمة والمزودة بالأسلحة الأوربية للحد الذي، بدل أن ينحازوا فيه إلى صف "موتو"، فإنهم رفضوا حتى مجرد أن يقبلوا به ملكاً عليهم بعد أن انهزم: وظل "موتو" فاراً يتنقل من زعيم إلى زعيم دون أن يستدر رحمة أو شفقة أي أحد منهم، ودون أن يقبل أي منهم إخفاءه عنده من الزبير، وأعطاءه حتى مجرد الطعام، وأصبحت بلاده كلها بعد أن دمرتها الحرب في قبضة العدو، وكانت نهاية أمره. إلى أن جاء مصطحباً معه ولديه وأخيه ودخل بهم إلى معسكر الزبير، فأثار بذلك شكوك الزبير في البداية الذي خاطبه بقوله: "هل هذا الذي أراه هو موتو؟" فأجاب موتو "بنعم" فرد عليه الزبير متعجباً: "لماذا تضايقني

وتؤذيني وتأثم في حقي وتعلن الحرب عليَّ ثم تأتي لتدخل في معسكري هكذا ومن غير أن يكون معك حراس؟" وأجابه موتو بقوله "أنني أعلم ما أصنع، ولديّ لذلك الأسباب، فلم أجد من بين أصدقائي جميعهم من يقبلني، وأنهم كانوا أصدقاء لي عندما كنت عظيماً فقط، وهم جميعاً يخافونك الآن ... إن بلادي قد دمرت وفرّ عني قومي وانفضوا من حولي ولم تعد حياتي تهممني بعد، ولهذا أتيت لأسلم نفسي بدون أي شروط فأفعل بي وبمن معي ما تشاء"، ومضى يتحدث طويلاً في هذا السياق وعلى هذا النسق حتى إذا ما فرغ من حديثه، قال له الزبير: "موتو إنك ملك ولست عبداً، وإنني لن أعمد قط إلى ما يشين أو ما لا يليق." وأمر بأخذه إلى خيمة، وبعث بالطعام والملابس له ولأبنائه، وأمر بأن يعامل معاملة الملوك: وبعد مضي يومين أمر باستدعائه لحضرته وقال له: "إنك قد قتلت عمي منصور يا موتو." فأجابه موتو بقوله "نعم هذا صحيح، ولكنك أعلنت الحرب عليَّ وأقلقت مضاجع قومي." وكان رد الزبير: "حسناً فقد تم الأخذ بالثأر إذاً، وأني أعفو عنك، وليسالم بعضنا بعضاً، ولن أقضي على حياتك ولن استرق بنيك وأجعلهم عبيداً، ولكني سأسمح لك بالذهاب إلى بلادك لتعود ملكاً عليها ولتعود عظيماً في عيون قومك. ولكني لن أطلب منك إلا ثلاثة أشياء: أولها، أن لا يكون حكمك لقومك بأسنة الحراب المشرعة بل بالحكمة. وثانيهما، أن تحافظ على سلامة الطرق حتى تكون سالكة وآمنة للمسافرين، وأخيراً، إذا أعجبتك معاملتي لك، أن تكون لي صديقاً. وسأله موتو "كم من الجزية تفرض عليّ؟" فقال الزبير: "اذهب واجمع قومك أولاً وعلِّمهم يزرعوا ويشتروا ويبيعوا، وعندما يتم ذلك وبعد مضي ثلاثة سنوات وليس قبلها، عليك أن تسدد الجزية إليَّ حنطة." وجمع موتو رجاله بعد ذلك وعاد بهم إلى بلده، وظل يحكمهم طيلة ثماني سنوات إلى حين وفاته، ولم يكن بعدها مصدراً لأي قلق أو إزعاج للزبير بل قام بسداد كل ما فرض عليه من جزية من الحنطة بعد ثلاث سنوات كما تم عليه الاتفاق.

كان من عادة الزبير أن يمنح كل من يخضعهم في حروبه ومناوشاته الصغيرة فترة ثلاث سنوات، يستعيدوا فيها تطبيع أحوالهم قبل أن يفرض أية جزية عليهم، وكان يقدر احتياجهم لمثل فترة السماح تلك، لأن المحاصيل عادة تتلف في سنة الحرب الأولى. وفي سنتهم الثانية، وبعد معاناتهم لما يتعرضوا له من صعاب، يكونون بحاجة لكل ما يزرعون ويحصدون لأنفسهم ليسدوا به رمقهم. أما في السنة الثالثة، فسيكون قد مضى عليهم من الوقت ما يمكنهم بعده وبسهولة أن يسهموا بنصيب مما يحصدون، وبتطبيق هذه القاعدة كسياسة حقق الزبير هدفين، أولهما

أن يكون محبوباً لدى الأهلين وثانيهما أن يحيط نفسه بقرى مزدهرة من حوله، يستطيع أن يتاجر معها بدل أن يواجه بأناس مسحوقين ومحرومين ومهزومين وربما يدفع بهم الكرب والفاقه والعوز، لإقلاقه بتجريد حملات وغارات دائمة عليه. وفى استرساله عن هذا الجانب من شرح سياسته، لم يبد الزبير أى إعجاب مطلقاً بانتهاج سياسات اللين والتساهل، بل عرّفها بما كان يعتقده ويؤمن به بأنه لابد من أن تقوم كل العلاقات المثمرة بين الحاكم والمحكوم، كما قال، على أساس مصلحتهم هم ومصلحتى أنا المشتركة بيننا".

تقدم زحف الزبير بعد حملته مع "موتو" متغلغلاً داخل بعض أراضى النيام نيام(١). ولم يكن غرضه من ذلك قتالهم بل التفاوض معهم، وتمكن من عقد تحالفات ودية جديدة مع زعماء "الأويهايمو والسابانقا والآبدنقا" وغيرها من المناطق الواقعة فى جنوبها، وظل الزبير يكرر دواماً، ويردد قناعاته وأحاديثه حول عدم جدوى اللجوء إلى محاربة السكان المحليين وقتالهم بقوله .. "ليس هناك أى شئ إطلاقاً يمكن أن يستفاد منه عن طريق الحرب أبداً، فأنت إنما تدمر بها البلاد وتخربها، وتخيف بها الناس، وترعب بها الرعية، بحيث يكفوا عن المتاجرة بعدها كلياً، وكل شئ يمكن تحقيقه بالفطنة والدهاء والعقل، ولا شئ يتم عن طريق استعمال القوة، وفى تلك البلاد، فإن الشجعان فيها حقاً هم العقلاء.

كانت الجهات التى ذكرها فى آخر حديثه الذى سبق، هى مراكز الرقيق الكبرى، وعند تلك النقطة من الحديث، أفضى الزبير إلىّ للمرة الأولى، بالتحدث حول موضوع كان بطبيعة الحال حاضراً دائماً فى ذهنى، وشاغلاً لأفكارى حين قال، "يتحدث الناس عنى بأنى كنت تاجر رقيق، وهذه فرية أبعد ما تكون عن الحقيقة، وقول ليس بصحيح أبداً، لأنى لم أقم إطلاقاً ببيع أى عبد واحد من الرقيق. إن الذين يقولون ذلك لا يفهمون حقيقة ماذا كان موقفى". وهنا، وفى تلك اللحظة بالذات، حدث ما أعاق الاسترسال فى الحديث بيننا، وعندما التقينا فى مقابلتى التالية، وأصل الزبير ليتابع بالتسلسل، سياق حديثه الذى لم أقطعه.

---

(١) سيتم من غير شك، وقبل مضى زمن طويل، تعريف الحدود الجغرافية لتلك المناطق التى لم يتم اكتشافها من جهاتها الجنوبية كما هى كانت محددة من جهة الشمال وسألت الباشا عما إذا كانت تلك الحدودو ممتدة جنوباً إلى الكونغو ولكنه لم يعرف الكونغو، وبعد تشاوره مع الشاب "النيام نيامى" الذى سبق أن أفضى إلىّ بمعلوماته حول آكلة لحوم البشر، رد بما تفوه به الشاب وأورده على لسانه، من أن بلاد "النيام نيام" يحدها من جهة الجنوب نهر عظيم يسمى "القونقوا"، وليس فى وسعى أن أبدى أى رأى عما إذا كان ذلك يعنى "الكنغو" أو "موبانقى" أو أى نهر آخر غيرهما، غير موضح بالخرائط.

فى حوالى هذا الزمن اندلعت حرب خاضها الزبير مناصراً فيها صهره "الملك تكمة"، الذى ظلت تربطه به علاقات صداقة حميمة، والذى درج على أن يبعث إلى أبنته التى تزوج بها الزبير، قوافل محملة بالعسل والحنطة والعاج سنوياً. وبعد مضى عامين من حروبه مع "موتو"، تسلم الزبير رسالة من "تكمة" يقول له فيها بأن أقواماً يخرجون من داخل الأرض يوشكون على استئصال شأفته وتدميره، وتوسل إليه ليخف مسرعاً لنجدته، فخرج الزبير على رأس قوة قوامها ألفىْ.. رجل، والتقى "بتكمة" فى الطريق فاراً من بلده وهو يرتعش فرقاً. وسأله ممن كان فراره؟ فأجابه بأنه ليس بوسعه أن يخبره، لأن أولئك الأقوام الذين أغاروا عليه لا يشبههم أحد، وأنهم خرجوا من باطن الأرض وقاموا بالهجوم عليه، وأنه أراد أن يثأر لنفسه، فروا من أمامه ثم اختفوا مرة أخرى داخل الأرض، ولا أحد يدرى من أين كان مجيئهم، وإلى أين كان ذهابهم، وأنه كان عندما ينظر إليهم، يراهم تارة فى تجمعات وحشود، وتارة لا يرى منهم أحداً أبداً، وأنه ليس بوسعه، والأمر كما ذكر، أن يبقى ليعيش مستقراً ومطمئناً فى مملكته خوفاً منهم، فقال له الزبير: "حسناً فانهض الآن وتعال معى لترينى إياهم عنما يأتوا فى المرة القادمة": ومضى "تكمة" بالزبير وقاده فى الاتجاه الذى كانت تُشن منه الهجمات عليه، فأبصر الزبير بعينى رأسه صدق ما قاله "تكمة"، بشهود رجال يخرجون أفواجاً، وفى حشود كبيرة من داخل الأرض، ولم يقل الزبير شيئاً لكنه شرع فى الاستكشاف والبحث حوالى المنطقة المجاورة، وبتفتيشها، وجد فيها مدخلاً يقود إلى عدة كهوف واسعة، وانكشف بذلك السر، فخبأ الزبير قواته فى كمين داخل الأجمة الملتفة حول مدخل الكهوف، وترك ساكنى المغارات عندما خرجوا ليمروا باطمئنان للقيام بهجومهم، ثم قطع خط الرجعة عليهم، وكانت النتيجة هى ما ينتظر، إذ أُجبروا على التسليم التام وبلا شروط. وعندما أعلنوا استسلامهم للزبير وسألوه عن شروطه، أجابهم بأنه لا يريد منهم شيئاً سوى أن يعدوه بالالتزام بالسلام، والحفاظ عليه، ومراعاته فى المستقبل، وأن يمكنوه من رؤية مساكنهم التى ظلت خفية ومحجوبة عن أنظار كل الغرباء، وأتيحت له بذلك فرصة رؤية تلك الكهوف غير العادية والاطلاع على مساكنهم فيها، التى كانت حسب تصوره، طبيعية التكوين جزئياً ثم أكمل البعض الآخر منها بيد الإنسان، فبدت فى أشكال ذات تشييد فنِّى آية فى الروعة والجمال وفى الاتساع، وكانت تبلغ أكثر من الخمسين قدماً فى الارتفاع، ويأتيها الضوء من فوقها وأعلاها، ويجرى خلالها غدير نهر صغير. ولم يكمل الزبير تتبعها للتعرف عليها حتى النهاية، ولكنه كان قد امتلأ تعجباً وإعجاباً بما شاهده، وبدأ يسائلهم

بقوله "أنتم حقاً قوم عظماء وأمة من المهندسين المعماريين الأكفاء من ناحتى وقاطعى الأحجار والصخور، وإلا، فكيف أمكن لكم أن تقوموا بكل هذا الذى أراه أمامى؟" فأجابوه بأنهم ليست لديهم أية معرفة أو علم بذلك، وإنما كان آباؤهم هم الذين اهتدوا إليها فى الماضى البعيد، وأنهم عاشوا وتزايدت أعدادهم فيها عبر الأجيال. وكما تبين للزبير فأنهم لم يكونوا يستعملون تلك الكهوف لسكناهم، وإنما أقاموا أكواخاً صغيرة من القش بداخلها ليأوُوا إليها، وكان اعتمادهم الرئيسى فى معيشتهم على الحنطة واللوبيا والعدس التى كانت تنمو على مقربة منهم، كما أنهم لم يتحرشوا أو يكونوا مصدر إزعاج لأى من الأجناس الأخرى، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم (قروندى). ولم اتحر من الزبير عن سبب خصومتهم "لتكمة" ولكنهم لم يتسببوا فى أية متاعب له، ولم يعد الزبير يسمع عنهم من بعد ذاك شيئاً إطلاقاً .

كانت الحرب ذات الأهمية الخاصة عند الزبير، هى فتحه "لحفرة النحاس" المتاخمة لحدود منطقته الشمالية والتى القت بحيازة مناجم النحاس الواسعة فى يديه، وأضافت بذلك إلى دخله إيرادات كثيرة طائلة. ولم أفلح فى تحديد تاريخ وقائع وتسلسل أحداث المرحلة الأولى لحكمه بوجه قاطع، ولكنها وقعت قطعاً فيما بين حروبه الأولى وبين فتحه لحفرة النحاس، وأعنى بذلك تلك الإصلاحات التى قام بها والتى يعتبرها هو من أهم وأعظم ما حققه، مما كانت تدعو إليه الحاجة كضرورة لازمة، والمتمثلة فى فتح وحماية كل الطرق، وهو إنجاز قد يشمل فى طياته ويتضمن أيضاً وبنفس القدر، إبطال اقتناص البشر والمتاجرة بهم فى أرجاء منطقته كلها. وكانت تلك هى أولى خطوات سياسته المحددة بل ومفتاح النجاح لسياسته التى اقتادت مسار حياته كلها والتى يتحدث عنها أحياناً بأنها هى فى الواقع جوهر ولب سياسته الوحيدة.

وقال لى الزبير : "فى البلاد التى أتحدث لك عنها، وبين الأقوام الذين وصفتهم لك، لا يستطيع رجل واحد بمفرده أن يفعل إلا القليل. ولكن ما يستطيع أن يعمله بالفعل، هو أن يفتح الباب للمدنية لتدخل. وستقوم المدنية بعد ذلك بعمل ما تبقّى ."

كان الزبير يؤمن كتاجر مستنير، بالتجارة كوسيط للتمدين، وكما كان يعتقد، بأنه حيثما تدفقت التجارة بحرية ودون تعويق، فأن الأمن والنظام والمعرفة، وكل هبات وبركات أى مجتمع منظم، سوف تأتى وتتقاطر تبعاً لها لا محالة، وكان حديثه هذا وبكل توكيد حديث الواثق المطمئن المحترم لنفسه،

المتواضع الحيي، وهو به قانع وراض "كإنجاز عظيم لحياة لم تكن كلها مضيّعة هباء" على حد قوله". ويعني بذلك فتحه لقنوات جديدة لتجارة العالم المتمدين. وقال لي .. "سترين وأنا أحدثك عن تاريخي، أن كل حرب عظيمة خضتها كانت من أجل هاته الغاية، وكان ذلك هو الشرط الرئيسي في كل معاهدة عقدتها مع الزعماء المحليين، وأنه من أجل هذا، حاربت الرزيقات، ومن أجل ذلك فتحت دارفور، ولم تكن لدى أية مشاكل أو منازعات أخرى مع العرب، ولم أرد شيئاً من سلاطين دارفور سوى أن يقلعوا عن قيامهم باصطياد البشر عبر الطرق، وأن يسمحوا للقوافل لأن تمر بسلام" وقد جاء إيقاف اقتناص البشر وقمعه حادثاً عرضياً تالياً وناتجاً عن فتح الطرق، ولكنه كان في حد ذاته، أمراً ضرورياً لا مندوحة عنه."(١)

ولم يعالج الزبير الموضوع على أسس عاطفية أو أخلاقية، ولكن كأمر جبري فرضته السياسة قسراً فقد قال. "إن أي رجل دولة يعلم، بأنه من المستحيل حكم أي بلد يسمح فيها باقتناص الرقيق. فعليك أن تقمع ذلك أولاً، قبل أن يستقيم أو يستقر لك أي نظام أو صناعة." وقد تم له في البداية تحقيق ما أحرزه في إقليمه عن طريق التعاون الودي ومصادقة الزعماء كما جرت بذلك العادة ولهذا انتظر طويلاً ليستوثق أولاً من تعزيز موقعه، قبل أن يدعوهم إلى اجتماع ماندقبا الكبير. وكان قد طلب من الزعماء أن يحضر كل منهم ترجماناً معه، وقام الزبير بمقابلة التراجمة فرداً فرداً كلاً على حدة قبل لقائه بالزعماء مجتمعين، ووقف منهم على طبائع وعادات واحتياجات القبائل التي يمثلونها، ثم بعث إلى كل زعيم من البضائع كهدايا، ما يعدونه ذا قيمة وفائدة لهم، وبعد ذلك اجتمع الزبير بالزعماء كلهم معاً في لقاء رسمي كبير موحد وخاطبهم مجتمعين، وحضر التراجمة الاجتماع لكي لا تضيع كلمة واحدة، وظل الزبير يحدثهم لعدة ساعات. وكانت فوائد ومزايا المدنية وإمكانيات الحصول عليها وإداراتها عن طريق التجارة الخارجية، هي الموضوع الذي شغل الشطر الأول من خطابه الطويل الذي أعده باعتناء، ولهذا كانت خيوطه واضحة ومبسطة حتى لمثل أولئك المستمعين البدائيين السذج، لكنها لم تكن بأسلوب غير مألوف كما تصاغ عادة أحاديث الفصاحة البليغة الأكثر تمدناً ، قال لهم "... عندكم هنا العاج والريش والجلود،

---

(١) عندما ذهب غردون إلى غرب السودان كان فتح طرق المواصلات من جهة، وإبطال اصطياد الرقيق من جهة أخرى، هما الهدفان الوحيدان اللذان وجه إليهما اهتمامه، وإنها لتجربة تدعو إلى العجب أن يسمع الزبير وهو يتحدث عن هذه الأشياء بالذات، ليست كمثل عليا، ولكن ولحد ما، باعتبارها العمل الجليل الأسمى الذي أوقف لإنجازه كل حياته.

وأنتم تحتاجون للأقمشة والخرز والسكاكين والمُدى، ... وفى بلاد الغير لديهم الأقمشة والخرز والمُدى، وهم بحاجة للسن والريش والجلود، فدعوهم ليجيئوا إليكم جالبين معهم تلك الأشياء التى تحتاجون أنتم إليها، وليحملوا معهم ما يريدونه هم، وبهذا يصبح كل الرجال أغنياء." وكانت الحرية والتحرر من أجل ترويج وتطوير الإنتاج والتبادل هو كل ما يقصده فى الحقيقة وواقع الأمر.

كانت نفس عوامل الخوف وخشية الإجحاف التى جعلت الإنجليز منذ خمسين سنة مضت يموتون جوعاً (فى الوقت الذى كانت فيه سفن بكاملها محملة بالحنطة ترسو فى موانئ العالم ليستعملوها) ماثلةً فى أذهان الزعماء المحليين. بمثل ما استحوذ على أذهان ملاك أراضينا أنذاك. ولكن المكس الذى طالب الزبير بإلغائه كان رسماً من الدم ... أما الشق الثاني من خطبته، فقد أفرده للإجراءات العملية. فإذا أراد الزعماء أن يجنوا ثمار ما تحدث لهم عنه، وإذا أهمهم أمر الإبقاء على صداقته ومناصرتهم له، فعلى كل واحد منهم أن يتعهد بأن يكون مسؤولاً عن حماية وحراسة الطرق التى تقع داخل منطقته، كما يجب أن لا تكون هناك أية غزوات منهم، يشنها أحدهم على الآخر من أجل الرقيق، ولا القيام بأية هجمات على المسافرين دون أى تذرع بأعذار واهية تحط أوزارها على الجار، بل يجب أن يسود فهم واضح وإدراك كامل، ليقوم كل فرد منهم بالمحافظة على النظام ليسود وليعم كل قومه، وأن يصبح هو شخصياً مسؤولاً عن أرواح المسافرين. فإذا ما قبلت هاته الشروط، فإن الزبير من جانبه، يتعهد بأن يعطى لكل منهم عدداً معيناً من العساكر ليساعدوه فى الحفاظ على السلطة، وأن يستمر فى منحهم الهدايا كالتى أعطاها إليهم، وأن يقوم بحمايتهم والدفاع عنهم فى الحرب، وأن يكون صديقاً لهم فى السلم، وقبل الزعماء مقترحاته تلك. ومنذ ذلك الوقت بدأت قناصة الرقيق تسير فى طريق الاضمحلال وتم القضاء عليها فى كل البلاد الواقعة تحت سلطانه مباشرة وقد جرت عليه وسببت له صنوف عذاب وصعاب جمة، كما كانت هنالك تعقيدات ومضاعفات عديدة لم يسمح الزمن بالخوض فيها. ولكنه، وفى غضون أربعة سنوات، كان فى إمكانه أن يقول لى بأن النخاسة قد بطلت فى أقاليم بلاده تماماً. وعند فتحه "حفرة النحاس" فيما بعد، قام بتطبيق نفس هاته السياسة وبنفس تباشير النجاح على الإقليم الشمالى الذى كان يعج بقانصى الرقيق، ولكن الأحداث حرمته من أن يشهد إتمام تطور تلك التنظيمات هنالك واكتمالها، وهو لم يمس أو حتى يحاول أن يمس عمليات قناصة الرقيق التى كانت جارية فى الجنوب لأبعد من بلاد "يوريهامو" ولكن، بانتشار قوته وازديادها، أصبح اسمه يحمل معنى

الحماية، وصار مفعوله نفّاذاً ومعمولاً به كذلك، ليصل فى أبعاده إلى آفاق المديرية الاستوائية وكانت اتفاقياته ومعاهداته مع الزعماء المحليين تنص دواماً على ضمان سلامة مرور القوافل، وحتى أولئك الزعماء الذين لم يبرم أى معاهدات معهم، كانوا يخشون من مغبة التعرض بأى سوء أو أذى إلى أى مسافر يكون محتمياً أو محمياً باسمه.

أصبحت لفظة الزبير هى الكلمة السحرية والوسيلة الناجحة وصارت بمثابة كلمة "افتح يا سمسم" لتلك المناطق المتخلفة الهمجية المتوحشة - كما كانت بمثابة "امتياز جواز المرور" أو هى مطابقة له تستعملها ككلمة سرّ للمرور" حتى القوافل التى لم يرها الزبير أو يسمح بها إطلاقاً، فإذا سئلوا "من أين جاءوا؟ أجاب التجار بقولهم "من الزبير". وقد انتفعت قوافل الرقيق من هذه الحماية كغيرهم، وبهذا، كما يصر الزبير ويؤكد، أنه إنما عن هذا الطريق، بنيت والصقت وانتشرت وذاعت تهمة سمعته العريضة عن الرق(١).

كان من الطبيعى أن يصحب فتح الطرق فى بلاده وأن يجر معه إصلاحاً آخر، هو استبدال فوضى الأخذ بالثأر الفردى، الذى كان شائعاً آنذاك بين الأهالى وذلك باستحداث مؤسسة منظمة لإقامة العدل. فحتى ذلك الوقت كان كل رجل يثأر لنفسه ويأخذ ثأره بيديه. وعلى مدى استمرار ذلك الحال بطوله، أصبح الزعماء معرضين دائماً للضغائن، وللأحن السرمدية بينهم. وقال الباشا: "لقد كان علىّ أن أقنعهم دائماً بأن أخطاء جماعتى هى أخطائى، وأننى سأتصدى لاثأر لها بنفسى". وقام بتسمية عدد من العساكر ليكونوا رجال شرطة، وأتم تأسيس محاكم عدلية للعدالة فى كل جهات المدن الرئيسية، وأمر الأهالى بأن يحملوا كل شكاويهم ليقدموها إليها، وكان الغرض من هاته المحاكم بشكل خاص، هو أن تفض المنازعات والمشاكل والخصومات التى تقع بين قبيلة وأخرى، وبهذا تقلُّ الأسباب التى تقود الإقليم ليصبح متردياً فى حالة عدم استقرار أو فوضى، وعهد بسن القوانين إلى مجلس مكون من عشرة فقهاء علماء بالقرآن، شكلوا محكمة عليا فى مدينة "ماندقبا" ذاتها. أما المحاكم الصغرى فكانت تتألف من أربعة أعضاء ممن تفقهوا بالقرآن أيضاً، ولكن لهم سلطات إدارية فقط. وجاء أولئك العلماء والحكماء من "مصر" بدعوة وجهت من الزبير، تاركاً وضع القوانين وصياغتها كلها فى أيدى مجلس العشرة بحذافيرها ، مبدياً رغبته فقط فى أن تكون تلك القوانين قائمة

---

(١) انظر ما ورد فى كتاب "غردون فى أفريقيا الوسطى" حول القبض على قافلة رقيق عرفت بأنها تابعة للزبير والتى ظهر فيما بعد أنها كانت ملكاً لضباط غردون نفسه.

على حكم الشريعة وعلى أساس القرآن، ومزوداً لهم بما يراه ذا قيمة وفائدة من خلال تجاربه ومعرفته بأحوال حياة الأهالى. وإذا ما حكم عليها من وجهة النظر الغربية، فإن تلك القوانين ترى بدائية جداً، فهى لم تتجاوز إلى أبعد من ذلك الخلط والارتباك القديم بين مقابلة الشر بمثله، وبين العدالة. ويبدو أن سياسة "العين بالعين والسن بالسن" كانت هى الروح الموحية والطاغية التى أثرت. ولكنها تضمنت كذلك المبادئ التى من شأنها أن تحافظ على سلامة الجماعة ووحدتها، وإن ارتكاب الخطأ هو جريمة ضد الدولة، وهى على الرغم مما توصف به من توحش وهمجية، فهى أقل صرامة وشدة من قوانينها السارية فى بداية هذا القرن. وكان القتل وحده يصدر فيه بما يستحق الحكم بالموت، كما كانت جريمة السرقة، عندما تحدث فى المرة الثالثة، وتعاقب عليها بقطع اليد، واقتناص الرقيق يعاقب عليه بالجلد وبالسجن، وكانت العقوبة الأخيرة تطبق على الأجانب وعلى المواطنين المحليين سواء بسواء. وقد جلد وحبُس أتراك ومصريون بعد إدانتهم بخطف الرقيق، ولكن الأتراك كانوا بوجه خاص، مصدراً لكثير من المتاعب. بعد تأسيس محاكم العدل، أدخل الزبير إجراءات إصلاحية مختلفة أخرى ترمى إلى توحيد وتأمين سلامة البلاد، كما تمكن من أن يسيطر عن طريق الإقناع على حمل القبائل للتخلى عن عادة أكل لحوم البشر، كما شجعهم على التزاوج فيما بينهم، وأنشأ مدارس لتعليم اللغة العربية (فى المدن التى كانت تدرس فيها الديانة الإسلامية بالطبع) كما شجع الزعماء وحثهم على إرسال أبنائهم إليه ليتعلموا. وكان يقول لهم: "عندما نتحدث بلغة واحدة فسنكون أمة واحدة". وكان الزبير فى ذلك الوقت يحيا حياة يغلب عليها طابع الملك، إذ كان من ضمن حرسه الشخصى الخاص وبطانته خمسة وسبعون ولداً من أبناء الملوك، كان يتحدث إليهم كثيراً عن "المدنية"، مما جعل أذهانهم مهيأة لتقبل الأفكار المتعلقة بأمور الحكمة والدين. وكان يشرح لى بعناية وتبصر، أن تعليم القرآن كان من بين آخر ما قام بعمله من الأشياء، تقديراً منه ووعياً بأنه أمر لن يمكن تقبُّله، إلا عندما ترتفع أذهان الناس بدرجات عن حالة البدائية لأولئك الهمج المتوحشين.

وفى ذات مرة قال لى الباشا "أننى أرى بواخركم العظيمة ماخرة تمر عبر المضائق، فإذا ما أريد للسفينة أن تحقق رحلة ناجحة ومثمرة، فأن من الواجب على قبطانها أن يظل متيقظاً ومتنبهاً دائماً، وأن تكون عيناه متفتحة لكل هبة ريح، وأن يفكر فى كل شئ ... فللسفينة أجزاء كثيرة مختلفة، ولكن القبطان هو الذى يوجهها جميعها .. وكل شئ يعتمد على ذهن رجل واحد وفكره، ولكن حكمته هى

الأكثر أهمية من الريح ومن البحر ... وتصنع السفينة الآن من الخشب والحديد، أما المملكة فإنها تبنى من الرجال، وعلى ملكهم أن يعنى بالتعامل مع كل طبائعهم واختلافاتهم ورغباتهم، بل أن الأمر لأصعب من ذلك، فعليه أن يهتم بالرقابة والإشراف الدائم عليهم، كما يراقب القبطان سفينته. وعليه أن يتأكد ويتحرى ليعرف وليرى من أين ستهب العاصفة، وعليه أن يعرف متى يمضى قدماً فى مساره، وأن يكون كل شئ فى محله وفى حالة نظام تام. فإذا ما أحسن الرقابة، ودقق النظر، وكان حكيماً وعاقلاً، فإن مملكته سوف تنعم بالرخاء وستزدهر."

ويبدو أن سفينة دولة الزبير فى ذلك الوقت كانت تسير محرزة تقدماً طيباً وسط أمواج هادئة ناعمة، ورياح مواتية رخاء. كما نجحت منشآته فى "ماندقبا"، كمغامرة تجارية، نجاحاً عظيماً. وظل الأهالى يتاجرون معه بثقة وباطمئنان، ويجلبون إلى محطاته كميات كبيرة من الأموال ومن ريش النعام والصمغ والعرديب والعسل والشمع، ومن كل حاصلات الإقليم الأخرى، وكان من عادته أن يدفع لهم أسعاراً حسنة كانت تحقق فوائد رابحة له ولهم، مكنته من أن يكدس ويخزن إمدادات هى دائماً فى ازدياد، وقال إن التجار الآخرين لم يكونوا يدركون أنهم إذا ما توسعوا وتاجروا على نطاق أكبر، فإن ذلك سيهبهم من الأرباح ما يوازى أضعاف ما يحققونه من الأرباح الصغيرة. ولما تكشفت له هذه الحقيقة البسيطة التى أخذ بها، وجد أنه، وبحسب النهج الذى كان محبباً له، والذى اختطه، أن الفوائد التى تعود عليه وعلى الأهالى، إنما تجئ عن طريق التعامل الحر.

بدأ الزبير ينظر إلى إقامته فى تلك البلاد بعين من يريد أن يبقى فيها بصفة دائمة، فلم يغشّ الأهالى أو يكذب عليهم، كما يفعل من يظن أنه لن يرى وجوههم أبداً مرة أخرى، ولكنه عاش بينهم ببساطة وبأمانة كما لو كان يعيش وسط رفاقه وقومه وعشيرته، وبفضل ذلك -كما يقول- تعلموا أن يثقوا به كل الثقة، وأمدوه وزودوه بأفضل ما كانوا يحصلون عليه.

وكملك كان له قناصون للحيوانات وصيادون يتبعون له شخصياً، ويستخدمهم بصفة دائمة فى مطاردة الفيلة والأسود والفهود والغزلان ووحيد القرن (الذى ما يزال قرنه يحتفظ بنفس المقولة الصادقة التى كانت سائدة عنه فى عهد ماركو بولو، من أنه لا يمكن لأى نوع من السموم أن يشرب عن طريقه دون أن يكتشف أمره) ... والذى جعل له من أجل ذلك قيمة عظمى. كذلك كان يستعملهم لصيد الزراف حياً، والنعام، وكل الحيوانات الوحشية الأخرى التى يعلمون قدرها وقيمتها، ويثمنونها لتقتنى، من أجل عاجها أو ريشها أو جلودها. وكانت هنالك

مقادير كبيرة من الحديد فى المنطقة، كما كان للزبير فيها مناجم قام بتشغيلها. وفيما تدفقت الحاجيات لتنساب إليه بوفرة كبيرة، فقد كانت نتائج سياساته العامة، من جهة أخرى، تشق طريقها فيحس بها الجميع، لتمنحه وتهيئ له السوق الذى كان هو بحاجة إليه.

وقد أوردت التقارير عن الطرق الآمنة الهادئة، أنها أتت بأعداد متزايدة ومستمرة من القوافل، التى كانت تدفع بالبضائع الأوروبية وبالنقود، أثمان جميع أصناف السلع التى كانوا يبتاعونها منهم ليحملونها معهم

كانت المرة الأولى التى تطرقنا خلالها للحديث بحرية حول تجارة الرقيق، هى عندما بدأنا نتناول ونخوض فى المسائل التجارية. فقد نفى الباشا نفياً باتاً قاطعاً، ما كان ينسب إليه عادة من أى إسهام فيها. وعندما كشفت له بعض التقارير التى نشرت عنه بصفة عامة حول ذلك الموضوع، أجابنى قائلاً: "أننى لست طفلاً .. وأنى أشكر لك إن كنت أمينة معى". وكانت تلك الإجابة فيها رد على ما قدمته من اعتذار، قبل أن أقرأ عليه بعض المقاطع المريرة القاسية التى أشير فيها إليه فى خطابات غردون ومذكراته الأولى، وقد كان موقفى معه فى ذلك الأمر هو أن أقابله بمنتهى الصراحة والمواجهة والوضوح، وبكل الشجاعة فى إبداء الرأى، لأن مثل ذلك الموضوع، بطبيعة الحال، سيكون من العبث، بل لن تكون للحديث فيه أى معنى أو أية فائدة تجنى، إذا نحن لم نتحدث فيه بالصراحة كلها. وكان الباشا على علم تام من قبل، وملماً لحد ما بما صرح به غردون من أقوال، إذ أن كثيراً منها كان قد ترجم إلى اللغة العربية ونشر، وفيما يتعلق بها، كان يجيب إجابات معممة، واصفاً لها بأنها كانت فى بعضها تستند على معلومات خاطئة وتقارير كاذبة، والبعض الآخر منها مبنى على سوء الفهم، كما اتضح ذلك لغردون نفسه فيما بعد ويشير فى التدليل على ذلك إلى الطابع المختلف جداً وإلى النبرة التى يمكن لنا أن نجدها فيما قاله غردون نفسه خلال الأربعة شهور الأخيرة من حياته.(١)

---

(١) فى رأيى أن مصداق ذلك كله فيما يتعلق بالزبير، يتضح بما أشار به غردون فى آخر مذكرة كتبها، بإطلاقه على إحدى بواخر الخرطوم اسم "الزبير" وكذلك بالالتماس الذى طلب فيه حضور الزبير الأمر الذى أثار دهشة الجماهير فى وقتها، وعندما طلب سير أيفلين بيرنق (اللورد كرومر) من غردون أن يعيد النظر فى الأمر كله بتمعن أكثر وأن يوضح فى برقية واحدة ما يوصى به بعث غردون برقية قال فيها "أن الجمع بين الزبير وبينه، ضرورة قصوى لازمة لإحراز أى نجاح فى مهمته، وأنه من أجل ذلك، ولكيما يتم القيام بأى عمل جيد ونافع، فمن اللازم أن نكون معاً، وأن يتم ذلك كله على وجه السرعة ودون أى تأخير."

كان للزبير شخصياً رأى حسن فى غردون، وكان يرى فيه رجلاً له قيمته، وبانه أحد أولئك الأفذاذ من الرجال الذين قلما يوجد لهم مثيل فى أيه أمة وفى أى زمان. ويقول عنه أنه "شخصية من تلك الشخصيات التى نجلها أجلال القديسين والصالحين فى ديننا، كما توقرونها وتجلونها أنتم بلا شك فى دينكم كذلك، وهو الشخص الذى وجدته سواء مما سمعته أو روى لى عنه أو عن طريق معرفتى به بإنه من الذين لا يخافون ولا يخشون من هم فوقهم من ذوى الجاه والسلطان أبدا، ومن الذين يولون أمور الفقراء والمساكين أهتماما أكثر من اهتمامه بالأغنياء. وهو رجل يمكن له أن يحكم السودان. من أجل ذلك السبب ومن أجل أهتمامه واعتنائه بالفقراء. بيد أنه وحسب رأى الزبير، هناك شيئان أصيلان فى طبع غردون هما اللذان قاداه فساقاه إلى الطريق الخاطىء: أولهما، هو تصوره وأعتقاده اليقين بأن كل أنسان آخر هو فى مثل صلاحه وطيبته، وكثيراً ما كان يتصرف تلقائيا بتهوّر ودون تبصر، بوحى ما كان يملى به عليه ضميره وحده، واضعا ثقته فى من ليسوا لها بأهل، والسبب الثانى، هو أنه لم تكن لديه المعرفة الكافية بلغة البلاد التى جعلته عرضة لأن ينخدع أحيانا وبأن لا يوثق به فى الوقت ذاته كذلك. أما فيما يختص بالحكايات التى تتعلق بشخصه، فإن الزبير كان يرى أن غردون كان مخدوعا فيها تماماً، مثلما حدث فى أمر سليمان الصغير، والتى كانت فى أغلبها قد حيكت عن قصد من قبل من كانت لهم مصلحة فى ذلك، وبخاصة بفعل رجل اسمه "أدريس أبتر"، الذى سوف أقص عليك حديثا طويلا عنه بعد قليل، وأيضا بفعل ابن أخت الزبير اسمه "سعيد ود حسين" الذى كان هو الأخر يمثل النوع الردىء التافه الذى لا قيمة له والذى يوجد مثله فى كل عائلة، وقد كشف أمر هذا الأخير مؤخرا وتم أعدامه بأوامر غردون، لأدانته بجريمة الحنث بالعهد والحلف الكاذب..."

قال لي الباشا... "بوسعك أن تتصورى أنه كان يوجد فى ماندقبا، كما هو الحال فى أى مكان آخر، رجال شريرون تجب عقوبتهم، وكان أولئك الأشرار يكرهوننى بالطبع، كما كان هنالك غيرهم عدد من المصريين الذين كانوا يأتون إلىّ ليعبروا عن عدم رضاهم بما أصطنعته لهم، أو كانوا يغارون من نجاحى حسداً لى. وليس من المهم عندى أن أسميهم لك. آذ ليس ثمة من رجل يصعد إلى أوج العظمة دون أن يكون له أعداء. وكان من الطبيعى لكل هؤلاء أن يتحدثوا عنى بالسوء، وكان هناك أيضا الكثيرون ممن كانوا يتظاهرون بالصداقة وبالتزلف، بغية أن يرتقوابأنفسهم ليكونوا كباراً فى أيام قمة عظمتى، ممن كانوا على استعداد ليفتروا وليشنّعوا

وليجرّحوا سمعة أي رجل عظيم عندما يتهاوى فيسقط أو يتردى... إن ما قرأته عليّ قد كتب كله عندما كان غردون لا يعرفنى إلا عن طريق الحكاية أو النقل والرواية والخبر، فقبل أن يذهب إلى الخرطوم فى المرة الأخيرة، حدث أن تقابلنا معا بحضور السير "إيفلين بيرنق"، حيث جرى توضيح وتفسير وشرح كامل بيننا شخصيا، قمنا فى نهايته بأن تصافحنا بالأيدى وعدنا أصدقاء. وأنت تعلمين أن غردون كان يريد من الحكومة أن تبعث بى إليه فى الخرطوم، وإنى لأعتبر مقتله بمثابة سوء حظ عظيم بالنسبة لى، لأنه إذا ما كتب له أن يعيش، لوجدت فيه صديقاً نافعاً له قيمة ومنزلة غالية جداً عندى."

وحول موضوع النخاسة عموماً، بدا من الواضح أن ما كان يجول فى ذهن الزبير، كان مماثلاً لموقف ومفاهيم الفرد البريطانى العادى فى خلال العقد الثانى من هذا القرن، وهو إننا عندما قمنا بأجراء مفاوضات ناجحة مع كل من أسبانيا والبرتغال لإبطال تجارة الرقيق فيهما، كنا قد أخفقنا فى الوقت ذاته فى أن نفكر فى إبطال النخاسة فى مستعمراتنا نحن. وحاول الزبير وهو يجادل ليبرهن على ذلك بقوله أنه لا يمكن لأى نظام أن يستقر فى أى بلد يسمح بممارسة الإتجار بالرقيق فيها، معربا عن إيمانه العميق بأن الإنطلاق الحر والتنقل بحرية أمر ضرورى بالنسبة لحياة ولصحة كيان أى أمة، لأنه يمثل أهمية الدورة الدموية بالنسبة للجسم تماماً، مشيراً إلى أن ذلك أمر يتعارض كلية مع ممارسة تجارة الرق.

كان رأى الزبير، الذى عبر لى عنه بأنه لا يمكن لبلد أن يكون عظيماً دون تجارة، ولا يمكن لأى تجارة أن توجد أو تنجح عبر طرق غير مأمونة المسالك، يوازى عنده فى مجال الجدل وفى معرض التداول بالحجة، ما هو أرجح بكثير فى الموازين من الإعتبارات الإنسانية، أو من المعاناة والأذى الذى يلحق بالأفراد أو يصيبهم من جرائها. غير أن النظرة لتلك الاعتبارات لم تكن مفقودة أو غائبة كلية. فقد قال لى الزبير: "إننى لن أستطيع أن أعبّر لك كيف سيكون من المستحيل تصور أن أقوم ببيع أفراد قومى إلا إذا أدركت أنت بأن ملك أى قوم هو أب لهم جميعاً.. وقد نشأت ودرجت على حب الأطفال بفطرتى ومنذ صغرى، فقد كان يحدث كثيراً أننى كلما أتيت إلى قرية أقوم بحمل أطفال أهلها بين ذراعىّ، وإذا جاز لى أن قمت ببيع الأبناء والبنات أفتراضاً، إذاً لتشبّثن بأهدابى، ممسكات بجلابيبى، ولصحن باكيات يطالبننى فى الحاح... "أعد إلىّ إبنى أو "أعد إلىّ إبنتى" الذين قمت ببيعهن، ولكانت خطواتى كلها ترافقنى فيها الدموع، ولأصبحت الحياة لى كلها غير

محتملة وجحيما لا يطاق". ومع أن الزبير قد دافع فى حديثه مسوغاً استمرار استعمال الرقيق كعبيد فى مصر، إلا أنه في الوقت ذاته نفى نفياً باتاً أن يكون قد باع هو أى رأس رقيق واحد، وإن كان قد أعترف فى غير مواربه ودون محاولة تقديم أى أعتذار أو تنصل، أنه عندما كان فى "ماندقبا"، قام فعلا بشراء أكثر من عشرين ألف رأس، معللاً ذلك ومبرراً له بأنه، وفى تلك الإقاليم، كلما توغل الإنسان إلى الداخل أكثر فيها بعيداً عن مواطن ومراكز المدنية، يجد أن السكان المحلّيين فيها لم يكن قد وصل إلى علمهم أو سماعهم إستعمال البخار، أو الطاقة، أو الماء بعد... وإن كل شيء وقتها كان يقوم به العبيد، وإن القوة المحركة الوحيدة كانت هى قوة العبيد. فإذا قطعت قوة العبيد عنها، فستكون النتيجة هى نفسها وبذاتها، إذا ما قطعت البخار أو الماء عن إنجلترا، إذ ستدمر كل الصناعات، وسيعنى ذلك فى حالة الأقطار الصغيرة، الرجوع بها إلى الهمجية أو الزج بها فى براثن البربرية المتوحشة، وعبر الزبير عن اعتقاده بأن ذلك إنما هو وضع عارض لن يلبث أن يتبدل أو يزول، وإنه يتطلع إلى الوقت الذى يفهم ويدرك فيه أهل بلاد مصر والسودان، الحرية بالمعنى الذى أدركه أهل أوربا الغربية.. (أعنى حرية كل فرد فى العمل للكسب الشخصى الذى تكون فيه، فى الوقت ذاته، المصلحة القومية متوفرة كذلك، وإنهم عند ذاك فقط سيكونون أهلاً للتحرر) وكل ما أمكن للزبير أن يقوله عن الوقت الراهن، هو أن مسلمى "القاهرة" "واسطمبول"، عندما يتحدثون مع ساسة الغرب عن الإبطال الكلى للرق فى تلك البقاع، فإنهم إنما كانوا يتحدثون عما يعلمون فى دخائل نفوسهم بانه أمر مستحيل تحقيقه، لأنهم يعلمون علم اليقين بأن بلادهم ليست مهيأة أو مستعدة لتقبله بعد.

استمع الزبير باهتمام إلى وجهة النظر البريطانية وقال لى أكثر من مرة أنه لو كتب له أن يعايش أو يخالط الشعب الانجليزى لكان من المحتمل لأفكاره عنهم أن تتبدل أو تتعدل، وفى واقع الأمر وحقيقته، فإنى أعتقد بإنى إنما ألتزم الدقة المعقولة من المصداقية عن الموقف الذى أدعاه الزبير لنفسه، عندما أقول بأنه كان ينظر إلى النخاسة فى مصر كمؤسسة ضرورية ولازمة يسمح بها القرآن، وبأنه كان لديه تقدير تام ومنطقىّ لحقيقة أن إستمرار النخاسة يستلزم إستمرار الاتجار فى الرق، وبالتالى يفضى إلى جعل اقتناص العبيد واصطيادهم أمرا مباحاً. وإنه وان كان يستهجن هذا التبرير الأخير الذى ذكره، بحسبانه غير موائم لروح النظام السياسى، ولا يتمشى مع مسار الإصلاح والتقدم، ولكونه مخالف وضد ما تفرضه وتمليه الدوافع الأنسانية، لكنه كان على إستعداد لأن يقبل به كشر

لابد منه، طالما أنه لا يجرى حدوثه داخل حدود المناطق التى يكون لها حكام متمدنون مسئولون عنها. وذكر الزبير أن الجانب أو النوع الوحيد من الاتجار بالرقيق الذى لا يقره بشكل قاطع ولا يطيق له إحتمالا، هو استجلاب هؤلاء كإمدادات "للحرملكات" (دور الحريم)، من أجل أن يتخذن خدماً وجوارى. وتحدث فى هذا الشأن بعبارات قوية ليقول بأن ذلك أمر يحرمه القرآن، وبأنه أكثر ضروب التجارة البشرية فظاعة وقسوة وظلماً، وإن كان لسوء الحظ هو فى نفس الوقت أكثرها عائدا وربحاً. وقد أدانها الزبير دون تحفظ وإن كان قد أشار فى الوقت ذاته بأن قانون العرض والطلب وتطبيقه عليها من شأنه أن يعزز ويؤكد أستمرارها ما دام الاستحواذ وتملك مثل أولئك الخدم أمرا مشروعاً.

وقال الزبير بأن الجمع بين محاولة أطال عمليات الاتجار فى الرقيق، مع السماح فى الوقت ذاته بجواز تملك العبيد، هو أمر مستحيل. ومادام العبيد يشترون فى "القاهرة" و"اسطمبول" فسيستمر ارسالهم من منابع ومصادر الإمداد. وقد سألت الزبير عن رأيه إن كان من الممكن إبطال إقتناص العبيد فى المناطق الواقعة بين النيل الأبيض وخط الأستواء، وبذلك يمكن تجفيف منابع الإمداد؟ فأجابنى متسائلاً. "كيف يمكنك أن تقومى بأى شىء فى مناطق ليست بها حكومة مسؤولة؟ فليس ثمة من أحد يمكن أن تُعالج معه الأمور.. فالسكان المحليون المستوطنون فى تلك المناطق قد درجوا، ومنذ عهود بعيدة، على أن يصطاد الواحد منهم الآخر، وكل من كانوا لا يباعون منهم فإنهم يقومون بأكلهم.. ثم ما الذى يجعلك تفترضين بأن من الممكن لهم أن يغيروا من عاداتهم تلك، ما داموا لا يجدون من بينهم أحداً ليقوم بتعليمهم وهدايتهم لما هو أحسن وأفضل؟ لهذا، فقد كان السبيل الوحيد هو أن يغزوا، وإن يمدّنوا بالتدريج" وقال بأن "ذلك هو نفس ما كنت أفعله فى نطاق المديرية التى أتولى حكمها"، وأضاف متحسراً بقوله "إن كلما قمت به فى ذلك السبيل قد نقض وتقوّض وصار لُقىً مضاعاً وهباءً منثورا، وصار الآن كله نهبا للضياع ويباباً."

كانت أسواق النخاسة الكبيرة تقع صوب الجنوب فى المناطق التى سبق ذكرها وعرفت بأراضى "اليودبهامو"، اسمِّى منها "قابو وكارا وكتما وبانقا وبينفيّة وسقارة ووابو رنقا"، وفى "سقارة" و"بنفيّة"، توجد قبائل من الأهالى ذوو بشرة بيضاء كالأوربيين، ولهم وجوه بيضاوية وشعر ناعم حريرى. وكانت عادة أكل لحوم البشر وأصطيادهم أمر متفشيا يعم سائر مناطق ذلك الإقليم، وفى جميع تلك الأمكنة كانت أسواق بيع الرقيق تنعقد تباعاً وبانتظام، تماما كما تقام أسواق

وبانتظام، تماما كما تقام أسواق الماشية فى أوروبا.. وكان الشبان والفتية الأصحاء من الجنسين منهم يباعون كعبيد، أما كبار السن، وخاصة السمان منهم، فكانوا يحتفظ بهم من أجل أن يؤكلوا... وكانت القوافل تروح وتغدو وتواصل سيرها جيئة وذهاباً وعلى ظهرها البضائع الأوربية لتعود محملة بالعبيد، أما ما كان يلاقيه أمثال هؤلاء المخلوقات المنكودة الحظ من عذاب فى الطريق، فأمر معروف لا يحتاج إلى أى وصف أو إعادة تكرار. ولكى تصل إلى بلاد "الأوريهامو" كانت الغالبية العظمى من القوافل تمر عبر "ماندقبا"، وكانت تحتمى باسم الزبير لسلامتها، وكان من الطبيعى أن تعود تلك القوافل عن طريق "ماندقبا" أيضاً، وإن تتلحف باسم الزبير لتحصل على العبور الآمن أثناء اجتيازهم لمواطن عدم الاستقرار الواقعة على حدوده الشمالية، وكان الزبير يمنح تلك القوافل كما يمنح لغيرهم حمايته الكاملة، وقال لى: "كان قصدى من ذلك هو الحفاظ على سلامة سبل الإتصال لتكون منفتحة ومفتوحة مع العالم المتمدن.. فإذا حدث أن قمت بإعتراض مسار سبيل القوافل من العبيد، فإن ذلك لن يتم إلا عن طريق استعمال القوة، ولإنى إذا حرمتهم من استعمال اسمى للاحتماء به كجواز مرور، فسيكون معنى ذلك السماح للقبائل بمهاجمتهم فى الطريق، وسيؤدى ذلك إلى أن تسفك الدماء على الطرق، وتذوع الأنباء بأن بلادى هى مناطق غير مأمونة، وبذلك أكون قد خسرت تجارتى. وما أظنك تتصورين أن أضع لغماً بمثل ذلك الشكل لينسف كل نتائج سياساتى. وبالإضافة إلى ذلك، وكما سبق أن ذكرت لك، فقد كان منهجى هو أن أشترى العبيد. وبعد أن تم تنظيم جيشى، قمت بإستخدام معظم رجاله كلهم عن طريق التجنيد من العبيد الذين اشتريتهم من أجل ذلك الغرض، وعندما كانت القوافل تمر "بماندقبا" فى طريقها وعودتها إلى مصر، كنت أقوم بفحص الرجال الذين أشتريهم، فأختار أجودهم بنية واليقهم صحة لأجعلهم جنوداً وأدربهم على استعمال الأسلحة وأحسن تدريبهم وإلباسهم وإعاشتهم لاستبقيهم جنوداً دائمين فى خدمة جيشى. ولكن هنالك أمر واحد كنت قد سمحت به، أعده خليقاً بأن يثير فى نفسك الفزع والرعب الاشمئزاز... ذلك أن الكثيرين من هؤلاء الذين أتوا إلىّ كانوا من آكلى لحوم البشر، وقد حرَّمت عليهم ومنعتهم منعا باتا من أن يمسُّوا أو أن يطعموا لحم أى بشر حى فى جميع أوقات السلم، ولكن فى أوقات الحروب كان يُسمح لهم بأكل من يقتلونهم...، وعندما دخلت فى حروب دارفور، أحدث أمثال هؤلاء من الخوف والفزع والرعب فى نفوس الأعداء، أضعاف كل ما أوقعه بهم المكر والدهاء والنظام والسلاح...، وإنى أفضى اليك بهذه الحقيقة لأننا قد أتفقنا معا

الحقيقة وبكل الصدق. ومهما يكن رأيك فيما ذكرت، فعليّ أن أطلب منك أن تتذكرى بأن الظروف والأحوال التى كانت سائدة فى "ماندقبا" لا تشبه بأى حال، الأحوال فى إنجلترا، وإن جنودى لم يحدث لهم أن يتركونى أو يتخلوا عنى أبدا بل كانوا يعملون معى بصفة دائمة إلى نهاية حياتهم.. كانت الخدمة فى جيشى تستهويهم، وظلت محببة لديهم حتى ذاع صيتها وانتشر، ممتدا إلى زوايا بلاد "النيام نيام" البعيدة، مما جعل شباب قبائلهم يتقاطرن الىّ ليقدموا أنفسهم للانخراط فى خدمة جيشى."

وقال الزبير "إن ما أريد منك أن تفهميه عنى هو إننى كنت تاجرا، وإننى قمت فعلا بشراء عدد كبير من العبيد لأجندهم، ولكنى لم أكن تاجر رقيق قط فى أى يوم من الأيام... ربما يظن بى ذلك، ولكنى لم أكن كذلك إطلاقا، ولقد حاولت أن أجعلك تفهمين أنه بالنسبة للموقع والموضع الذى كنت أحتله، بان ذلك سيكون أمراً مستحيلا... إن المهم فى الأمر هو رأيى عما إذا كانت تجارة الرقيق عملاً صحيحاً أم خطأ؟ أو إن كنت أتحدث لك عن الحقيقة بصدق أو بغيره. إنه موضوع توخى الحكم على الأشياء بالصورة الصحيحة وبالفطرة السليمة من خلال المكاسب التى تجتنى والتى يفهمها جيداً كل من قدّر له أن يتولى حكم الاخرين. ولو أننى تاجرت بالرقيق، إذاً لكان ذلك سيفضى إلى أن يدمرنى تماماً، ولقد كنت على رأس تجارة واسعة ومتنوعةسبق لى أن تحدثت اليك عن فروعها المختلفة، تجارة يتوقف نجاحها كلية على الأمن وتوفر الاستقرار فى جميع المناطق المحيطة بى، وكان رخائى ونعيمى الاقتصادى شخصيا ورخاء الأهالى المحليين، يرتبطان كأمر واحد. فالمواطنون المحليون إن كانوا ممن اصطيدوا أو من الذين يخشون أن يباعوا، لا يمكن أن يتاجروا معى، وإذا هم لم يتاجروا معى فلن أستطيع المتاجرة بدورى مع القوافل، ويمكنك الحكم على مصداقية ما أقوله بما حدث فيما بعد، عندما ذهبت إلى دارفور وتركت "إدريس إبتر" فى "ماندقبا"، فقد سمح باصطياد الرقيق فى غيابى، وتهاوت وتوقفت كل التجارة بسبب ذلك، ولا يوجد فى تلك البلاد الآن ما يمكن أن يقارن بالتجارة التى كنت أقوم بها. وعندما قدمت أول مرة مع "ابو عمورى" (وإن لم يكن الاسترقاق وقتها هو الغرض الرئيسى من تجارتنا) فإننا كنا فى بعض الأحيان نشترى ونبيع عدداً قليلاً من العبيد، إذا جاء بهم المواطنون المحليون، ضمن ما يجلبونه الينا.. ومنذ تركت العمل مع "ابو عمورى" لم يكن لى أى دخل أو أية صلة بأية تجارة للرقيق اطلاقاً، وبما أنه لم تكن لى أية عمولة حدث أن تقاضيتها من أرباح "ابو عمورى"، فيمكننى أن أجزم لك، وبكل الصدق، بإنى لم

أبع فى حياتى كلها عبداً واحداً...، ولم يكن لى أى دخل أو صلة بما كان يجرى من تجارة للرقيق فى إقليم "يوريهامو" سوى إننى كنت أشترى عبيداً للتجنيد، وإن القوافل كانت تمر فعلا عبر أراضى إقليمى، وأنها كانت تستعمل فعلا وتستغل اسمى لحمايتها: أما ما يقال من إننى كنت أملك ثلاثين محطة للرقيق كما تزعمين، فإنه محض هراء وليس بصحيح إطلاقا: إنى لم أبعث برأس رقيق واحد إلى "القاهرة" أو إلى "اسطمبول" فى كل حياتى.

وفى كل ما قيل أو دار من أحاديث حول موضوع تجارته بالرقيق مما كررته أو قرأته للباشا، لم يكن هنالك شىء عكّر صفوه أو استثار غضبه أو جرَّحه، أكثر من تأكيدات الدكتور "شوينفرث" القاطعة بإنه، فيما بين عامى ٧١ / ١٨٧٠، قام الزبير بتصدير أكثر من ١٨٠٠ رأس من الرقيق...: وقال أن "د. شوينفرث" قد شاهد بالفعل أعداداً كبيرة من العبيد كان يجرى ارسالهم، لكن خطأه هو إفتراضه أن كل أولئك كانوا عبيدى أنا.. وتساءل بعدها "لماذا لم يسألنى؟" وأضاف "لو كان فعل، لأوضحت له الحقيقة كلها فى حينها وبكل الصدق كما كنت أفعل معه فى كل شىء أخر سألنى عنه.. لقد كانت هناك فعلاً قوافل للعبيد فى ذلك العام، كما يحدث فى غيره من الأعوام بصفة دائمة، لكن لم تكن لى أدنى صلة بأى منها اطلاقاً، وكان فى ذلك العام أيضاً عدد كبير من عائلات جنود "البلالى" الساخطين عليه كما كان هناك أيضا حضور "البلالى" نفسه، الذى سوف أتحدث لك عنه فيما بعد، والذى تسبب فى خلق ظروف ليس بوسع أى شخص غريب أو أجنبى أن يتفهمها، كما أن "د. شوينفرث" لم يكن هو قد بقى معى مدة كافية تسمح له بالخوض فى الموضوع أو أن يصدر عليه حكمه بنفسه، لكن إذا كان قد سألنى لاخبرته: لقد إستقبلته إستقبالا حسناً، وربطتنا معاً صداقة طيبة جداً، وقد وجه لى أسئلة عديدة شيقة ورددت عليها كلها باجابات صادقة، وكم كان سيسعدنى أن أخبره عن طيب خاطر عن تجارة الرقيق... إنه لم يتحدث لى عنها ابدا، وإن مما يدهشنى أن يكتب مثل ذلك الرجل العاقل هكذا وبكل عجلة وتسرع عما ليس له به علم." وأستمر الزبير يخاطبنى ليقول: "إننى أعلم أنه ليس لديك أية وسيلة لتحققين بها عن صدق ما أذكره لك، ولكن بالنسبة له، "د. شوينفرث" إن أراد أو رأى ذلك، فإنه كان بإمكانه أن يتحرى ويستقصى الأمر كله فى التو والساعة، وكان ذلك سيكون رداً جميلاً، أحسن بكثير على كريم وفادتى له، بدل أن يقوم بإذاعة ونشرتقرير أو بيان غير صحيح عنى."

قبل زيارة "د. سوينفرث" للزبير بوقت قصير، نجح الزبير فى الوصول إلى

إنهاء مفاوضات ناجحة حول هذا الموضوع، وكانت الطرق بين "ماندقبا" وكردفان التى تقع على بعد مسيرة عشرين يوماً، تمور بحوادث النهب والسلب وإعتراض القوافل من قبل البدو، مما جعل الطرق غير مأمونة، وكان من أهم تلك القبائل "قبيلة الرزيقات"، لكنى ومن كل القائمة الطويلة التى ذكرها الباشا، لم أجد منها على أى خريطة أوربية سوى "طويشة" (خط طول ١٢ درجة شمالا وخط طول ٢٧ درجة).

وبتوسع آفاق التجارة ونمائها بدت الحاجة إلى طرق جديدة تزداد يوما بعد يوم، فصمم الزبير لتحقيق ذلك بما ارتآه من شق وتطهير قناة للتجارة عبر كردفان. وبناء على ذلك أوفد الزبير رسلاً من قبله وزودهم بالتحف والهدايا إلى جميع مشايخ "قبيلة الرزيقات"، طالباً منهم أن يلتقوا به أو يبعثوا بمندوبين عنهم إلى "ماندقبا" للتحاور فى إبرام حلف أو إتفاق فيما بينهم. وهيأ الزبير إستعدادات كبيرة للمناسبة، وقابلهم بكل مظاهر التجلة والتكريم، وفى الإجتماع الثانى بهم الذى تلا الإستقبال العظيم تحدث اليهم كما سبق أن تحدث لزعمائه الكبار عن فوائد التجارة وعن الطرق المفتوحة المؤمنة وذكر لهم أنه على علم تام بعاداتهم وبطبائعهم وأنه يعرف إنهم اعتادوا على أن يثروا أنفسهم عن طريق تهجمهم على القوافل، ولسرقة كل ما حوته من بضائع ومن رجال، لكنه أوضح لهم أن النتيجة لذلك كانت دائما هي هجران وعزل بلاد إقاليمهم تلك وطرد وإبعاد التجارة عبر دروب طرقهم، لأن القبائل لا تسلك الدروب التى يعلمون سلفا إنهم سيغار عليهم فيها، وبذلك تكون المكاسب قليلة ومتباعدة الآماد فيما بينها. وذكر لهم بأن المشروع الذى يريد أن يقترحه عليهم هو أن يتعهدوا بحماية الطرق ويؤمنوا المرور بسلام للمسافرين، وفى مقابل ذلك فسيتعهد هو بدوره بفرض رسوم على جميع القوافل التى تمر "بمندقبا" وان يدفع إلى القبائل التى تقوم بالحماية نسبة مئوية تقدر حسب القيمة على كل ما تحمله من بضائع، مؤكداً لهم قوله بان الحصول على القليل الدائم خير من المغانم غير المؤكدة التى تأتى بها الطريقة التى درجوا على إنتهاجها... وقد حملتْهم معقولية ما ذكره لهم وما أبدوا أرتياحهم له من جهة، وما رأوا عليه الأحوال فى "ماندقبا"، حملتهم على الإستجابة وقبول العرض بشروط. وأعدت الأتفاقية التى نصت على أن يتعهدوا هم فيها وبمقتضاها من جانبهم، بأن تكون الطرق مفتوحة جميعها، للغنى والفقير، وللمواطن والغريب على حد سواء للمرور، دون أى أذى أو خوف أو ترويع، فيما يتعهد الزبير من جهة بفرض مكوس (ضرائب ورسوم) على القوافل، يتولى جبايتها

منهم ويقوم بدفع إعانة سنوية وبإنتظام للقبائل، وأعطى الفريقان المواثيق على ذلك، وأقسموا على المصحف، وبدأ العمل بموجب تلك الأتفاقية منذ ذلك اليوم... حدث ذلك في عام ١٨٦٨. وأوفى العرب بالتزاماتهم كما سنرى لمدة أربعة سنوات كاملة، وكذلك أوفى الزبير بما تقيد هو به، بذلك ازدهرت التجارة في "ماندقبا" ازدهارا كبيراً، وواصلت القوافل وصولها تباعا بمعدل ثلاثة أو أربعة أيام في كل أسبوع، قادمة من سوريا ومن مصر ومن طرابلس ومن تونس ومن المغرب...، كما تعامل الزبير في التجارة أيضا مع تجار بروسيين.. وفرنسيين.. وإيطاليين. ولكن نفقات وتكاليف تسيير الحكومة كانت كثيرة وباهظة، ويمكن أن يستدل على ذلك من الحقائق. إذ أن الزبير كان يجد نفسه مضطرا في بعض الأحايين لأن يدفع ما يوازى الستة شلنات وثمانين بنساً ثمناً لرطل واحد من البارود..، لكن أرباحه ومكاسبه في نهاية تلك السنوات الأربعة قد تعالت وإرتفعت لتبلغ الأثنى عشر ألف من الجنيهات في الشهر الواحد. ومع أن فتوحات عظيمة وكبيرة أخرى عدا ذلك كانت ماتزال مخبوءة في ضمير الغيب تنتظر الزبير، إلا أنه كان يعتبر تلك الفترة بالذات، أكثر سني حياته رخاءاً ورغداً.

المقال الثالث

فى عهد ذلك الرخاء، وبعد زمن وجيز من عقد الاتفاقية مع الرزيقات، بدأ تاريخ "ماندقبا" يربط نفسه بالتاريخ المدون للشؤون المصرية. فقد ظهر رجل يقال له "البلالى" (وسيرته السابقة وما أشتهر به فى دارفور من صفات الخيانة والغدر والأنانية أطول من أن نتصدى لها هنا). وصل إلى الخرطوم وعرض نفسه على الوالى "جعفر باشا" طالبا منه أن يمده بقوة صغيرة من العساكر المصريين لتساعده على إسترداد بعض حقوق زعم أنه قد نازعه فيها سلطان دارفور وبعد مضى فترة وجيزة على ذلك وصلت إلى الخرطوم أنباء ووردت تقارير أثارت الشكوك فى ذهن الوالى عن حقيقة مقاصد البلالى، فأعلن عن عزمه على دخول دارفورمن جهة الغرب عن طريق بحر الغزال. وكان اسم الزبير فى ذلك الوقت معروفا بأنه يمثل واحدا من أهم وأقوى دعائم المدنية وأكملها تنظيما فى المناطق الجنوبية التى لم يتم إلا إكتشاف نصف مساحتها بعد. فأرسل إليه جعفر باشا وأحاطه بكل ما تجمع لديه من معلومات وإستخبارات، وعهد إليه بمهمة مرافقة البلالى فى حملته. وكانت تعليمات الوالى للزبير أن يمد "البلالى" بكل ما يحتاج إليه من عون، كما عليه أن يراقب كل ما يقوم به وأن يقدم تقارير بذلك إلى الحكومة.

بدأت حملة "البلالى" بشهر قبل أن يلحق بهاالزبير فى مشرع الرق (حوالى خط ٩ درجات عرض و٢٩ درجة طول) وتقع هذه على مسافة مسيرة عشرة أيام من محطة علي عمورى" كما كان بين "على عمورى" "وماندقبا" مسيرة عشرة أيام أخرى.(١)

وبوصول الزبير إلى البلالى أوقفه على ما تلقاه من إنتدابه بموجب الإرادة الصادرة من الحكومة بمرافقته ومساعدته، والتمس منه معرفة خطته التى أعدها لتنفيذ الحملة، فأجابه بأنه ينوى أن يكون خط سيره عن طريق "ماندقبا". وأتفقا على أنه ما دام الأمر كما ذكر، فأنه سيكون من الأوفق أن يتقدمه "الزبير" إلى هناك ليعد العدة لاستقبال الجنود فيها، وعليه غادر الزبير الحملة وعاد مسرعا إلى "ماندقبا" حيث أعد معسكراً لجيش البلالى خارج المدينة فيها.

---

(١) هناك فهم خاطئ يفترض أن محطات التجارة هذه فى بحر الغزال تقع داخل إقليم الزبير والحقيقة أن إقليم الزبير يقع غربها،

فى هذا الاثناء نشب خلاف حاد بين "البلالى" "وكرشك على"، الذى كان على رأس القوات المرسلة من قبل الحكومة المصرية من الجيش بسبب عدم ثقة الأخير فى البلالى، الأمر الذى أدى إلى مقتله بأن دس له "البلالى" السم فمات مسموما فى الطريق. وبوصول الجيش إلى "ماندقبا" بلغ أصدقاء "كرشك" الزبير بما حدث لقائدهم المقتول "كرشك"، ونصحوه بأن يكون على حذر من "البلالى" لئلا يغدر به فيصيبه ما أصابه. بقى البلالى مع الزبير سنة كاملة ظل الزبير يتولى فى خلالها الإنفاق الكامل عليه والصرف على جيشه، بما كلف الزبير زهاء السبعة آلاف وخمسمائة جنيه، وبدأ الجنود فى التبرّم وابداء السخط وعدم الرضى عن أحوالهم، وتسببوا فى متاعب كثيرة للزبير. وما كان لمثل ذلك الوضع أن يستمر طويلا، ففى آخر تلك السنة أخذ "الزبير" يوجه أسئلته وإستجواباته مرارا وتكرارا "للبلالى" مستفسراً عن السر فى بقائه "بماندقبا"، مذكرا له بما سبق أن قاله من أن الهدف من حملته التى عهد بها إليه هو "دارفور". وبإنه قد مضت عليه سنة كاملة فى "ماندقبا" وإن تكاليف أستمرار الصرف على مثل تلك القوات الكبيرة، فيه إثقال يؤود الكاهل، واستنزاف فى الانفاق يتعدى حدود الضيافة ويتجاوزها.

جاء رد البلالى على الزبير بأن ما ذكره صحيح، وإن مقصده هو غزو دارفور والهجوم عليها فعلاً، ولكنه أضاف بأن لديه تكليف أخر من الحكومة ليقوم بفتح مديريات النيل الأبيض أولاً ! وقال له الزبير فى تعجب... "جعفر باشا أنتدبك أنت وأوكل اليك لتقوم بفتح النيل الأبيض؟!" وأجاب البلالى بنعم.. وهنا قال له الزبير: "إن كان الأمر حقا كما تقول فاطلعنى إذاً على أوراق ووثائق ذلك التكليف".. عندها استشاط "البلالي" غضبا وأنكر أى حق للزبير فى أن يتدخل، ولما لم يستطع الزبير أن يظفر منه بأى توضيح محدد عن حقيقة نواياه فقد وجد نفسه مضطراً لأن يكتفى برفع تفاصيل تلك المحادثة التى جرت بينهما برمتها إلى الخرطوم، مضيفاً عليها ما عبر به عن رأيه الشخصى، من أن "البلالى" رجل غير مؤتمن أطلاقاً، وملتمسا من الحكومة القيام بإتخاذ ماتراه لازما من تحوطات بأسرع ما يمكن.

بعث البلالى فى طلب جنود مرتزقة من دارفور، حيث كان بعض رجال القبائل فيها من هواة الحرب يؤجرون أنفسهم لكل من أراد إستخدامهم من أجل ذلك الغرض. وتمكن من تجنيد ما يقارب الألفى رجل منهم، وبدأ يروج الدعوة بأنه هو

المهدى، وبث الزبير العيون والارصاد ودس عدداً من الجواسيس داخل معسكر البلالى، وعن طريق هؤلاء تمكن من معرفة أن "البلالى" قد أعد خطته للإستيلاء على محطات التجار الواقعة فى بحر الغزال، يقوم بعدها بإشهار مهديته، وإنه إذا حدث ما يتوقعه من هروع الناس وإنحيازهم اليه يقوم بشن هجوم على "ماندقبا" ليطرد الزبير منها ويستولى على الحكم فيها بدلاً عنه.

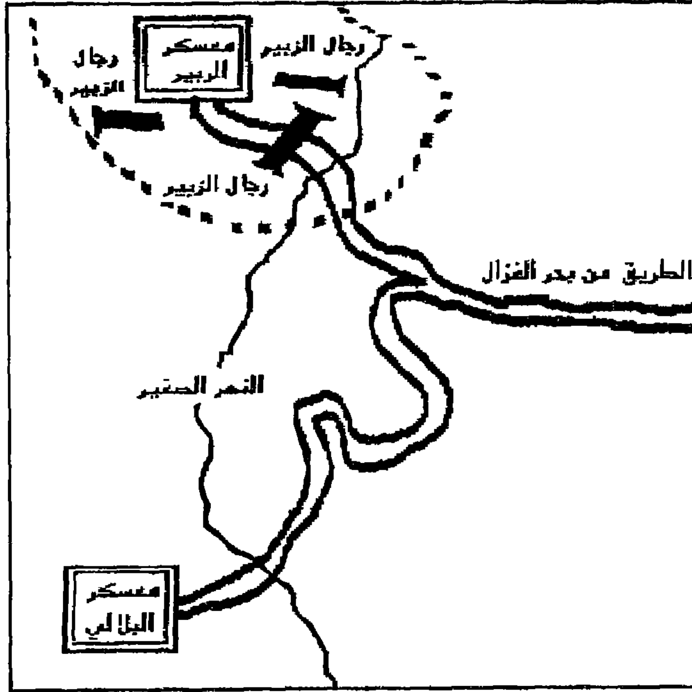
وعندما أستوثق الزبير من صحة ما ترامى إليه من أنباء البلالى، ذهب إليه وواجهه معاتباً وموبخاً له على ما كان يضمره نحوه من خيانة، لكن البلالى أكد له أنه واهم، وإنه فيما يتعلق به شخصياً، فليس هناك ولو كلمة واحدة صحيحة مما ذكره... وقال له... "صحيح أن لدىّ إتفاق سرى مع الحكومة فى الخرطوم يإذن لى بفتح محطات بحر الغزال وبان أتولى الحكم فيها.. ولكنك ستكون صديقى ورفيقى وسنتولى كلانا الحكم معاً جنباً لجنب.. لقد قمت أنت بإستضافتى وبرعايتى وإكرامى الآن طيلة سنة كاملة.. وكنت لى بمثابة ساعدى الأيمن تماماً.. فكيف يجوز أو يصح لى أن أجازيك بمثل هذه الخيانة والغدر؟" لكن الزبير، الذى كان ما يزال يتحسب ويخشى أن يغتال مسموما كما قتل "كرشك على" من قبل، عمد إلى أتخاذ كل حيطة ممكنه ضد ذلك، وعندما وصلت اليه معلومات أخرى بأن "البلالى" لم يتخل عما كان يخططه من مشروعات، أجرى معه لقاء أخر مرة ثانية، وفى تلك المقابلة كانت إحتجاجات "البلالى" أكثر صرامة وأشد عنفا عما سبقتها، وقال له... "إنك أخى ويدى اليمنى، فكيف يمكن لى أن أحترب معك؟"

كانت تلك هى أخر ماتم بينهما من لقاءات قبل أن يبدأ "البلالى" سيره مغذاً فى حملته خلال بحر الغزال. ولم تستطع محطات التجار أن تصمد فى وجهه فسلمت جميعها دون أى قتال، وآلت اليه كل المحطات التالية التى تقع جميعها شرق "ماندقبا"، وهى "مشرع أبكر، واقوقو، وعربانه (لعلها عردابة الزبير)، وعلى عمورى، وعلى بيرسالى، وكرشوك على، وخرتاس، والشريف، وعبد الصمد، وادريس أبتر"، وإستولى على كل ما وجده فى تلك المحطات، وأباح لجيشه اقتحام حرمات النساء، كما أستولى على ثروات التجار، ثم كبلهم بالسلاسل والأغلال وأقتادهم كالعبيد متقدما بهم صوب "ماندقبا". وفى نفس الوقت أعلن البلالى عن نفسه بأنه المهدى، وكما كان يتوقع، فقد هرع الكثيرون اليه لينضووا تحت لوائه. وفى محطة ادريس ابتر التى كانت أقرب محطة إلى الزبير، كاد البلالى أن يقوم

بإعدام أدريس ابتر شخصياً شنقا، لولا أن نصحه رجاله وحذروه من أنه لو فعل ذلك لأثار مخاوف الزبير ولازعجه، خاصة وأن الزبير وقتها سيكون على اهبة الأستعداد ليهب لمقاومته فى "ماندقبا". وكانت إجابة البلالى عليهم أنه سيعمد إلى أخذ الزبير بالحيلة والمكر والدهاء وسيقوم بقتله كذلك. بعدها، بعث البلالى إلى الزبير رسولاً يلتمس منه مقابلته ولكن الزبير وقد أحيط علما بكل ما حدث، أعاد إليه رسوله ليسأله عما يريد، وعندها كشف "البلالى" القناع ونزع البرقع، وأعلن نفسه سيدا على بحر الغزال.. وطلب من الزبير القدوم للتسليم إليه وإلا فالحرب...

كان رد الزبير على الإستدعاء هو قوله. "هل لديك أوامر من الحكومة بإستلام هذا المكان منى؟ إن كان لديك فخبرنى، وإذا لم تكن لديك فأخبرنى أيضاً حتى أقرر ما أنا فاعل!" ولم يعط البلالى للزبير أية إجابة، ولكن وعن طريق إستخباراته والجواسيس. علم الزبير أن نية البلالى كانت تتجه للتقدم بجيوشه نحو "ماندقبا" غازيا..، وكان الزبير على علم تام بأنه إذا ما تقهقر أمام البلالى فى ذلك الوقت، فإن ذلك سوف يحط من قدره ومن مكانته وسيقضى على هيبته إلى الأبد وسيسلم كل مملكته هنا للخراب والدمار.

وقام الزبير بإرسال تقارير إلى الخرطوم تفصِّل ما كان يقوم به البلالى ويخطط له، ولكنه لم يتسلم أى رد عليها كلية، ولعدم وجود أية تعليمات من الرئاسة، رأى الزبير لزاماً عليه أن يتحمل مسئولية القرار والعمل وحده وبنفسه، وبناء على ذلك فقد أعد العدة لخوض الحرب. لكن عساكر الزبير وجنوده كانوا آنذاك موزعين بين كل مدن أقاليمه الشاسعه، وقدَّر أن كل من كان يمكنه أن يقوم بتجنيدهم فى "ماندقبا" فى ذلك الوقت، ستفوقه قوات البلالى عددا بنسبة الواحد إلى عشرة، لكن جنود الزبير كان تسليحهم حسناً، وتدريبهم على النظام بدرجة مناسبة ومعقولة، بينما كانت قوات "البلالى" مزجاً ومسخاً وخليطاً لا يؤبه له، وأمشاجا متنافرة من الغوغاء والسذج والرعاع. وكان الموضع الذى أعده الزبير لمعكسر البلالى يقع فى جنوبى "ماندقبا"، وكان هناك نهر صغير يجرى شرق الموضعين، وإلى جهة الشرق من ذلك النهير أيضا كان الطريق الذى يصل "ماندقبا" ببحر الغزال يتفرع إلى طريقين يتجه أحدهما شمالاً لماندقبا، والآخر جنوباً إلى حيث معسكر البلالى، وأوضح الزبير الموضع برسمه الخريطة التالية توضيحاً له:



وعندما رؤى أن البلالى أخذ يتقدم نحوه، رتب الزبير قواته فى مجموعات ثلاثة خارج المدينة، مصمما على أن ينتظر ليرى أن كان البلالى يتوجه بسلام إلى حيث الموقع الذى أعد لثكناته أم أنه كان يضمر وينوى الهجوم فعلاً. وعند تفرع الطرق تبلجت الحقيقة واضحة وتبدد كل شك: فقد سار البلالى بجنوده تواً صوب "ماندقباً"، مقسما لهم إلى شطرين، بقصد تطويق المدينة، وكان رجال الزبير يتحرقون شوقاً للمبادرة ولكن الزبير كبح جماحهم متحينا فرصة إضعاف قوات البلالى بسبب توزيعها، وأنتظر حتى رأى البلالى يتقدم جيشه بنفسه راكباً ليبدأ المعمعة بإطلاق الرصاص على الزبير، الذى كان ممتطياً فرسه فى وسط قواته، فأصيب الزبير بجرح فى أسفل ساقه، ورد جيش الزبير بإرسال قذيفة من المدفعية، وأستمر إطلاق النار لبضع دقائق وأستحر القتال بعدها بشدة وضراوة مما أدى إلى أصابة من كانوا بالمحطة ومن الجنود بجراحات عديدة. بعدها عدّل عن استعمال المدافع وقصفها لتحسم الموقعة فى النهاية بالإلتحام والإشتباك بالسلاح وبالأيدى، وقال الباشا لى، إذا سألت عماكان من أمرى، فقد كنت وقتها أحدث نفسى فى ضميرى قائلاً: "ليس لدى أية مشاكل أو خصومة مع أى من هؤلاء الجنود، ولن أتصدى لقتل أى أحد سوى البلالى نفسه، وتشابكت وتداخلت صفوف المقاتلين وأختلط بعضهم ببعض، ولكنى تعرفت إلى "البلالى"، وأعترض أحد إخوانه بأن

القى بنفسه فيما بيننا فقتلته، وجاء أخ آخر له فاعترض بيننا وقمت بقتله أيضاً، بعدها لاذ البلالى بالفرار.. ولكنى ركضت بفرسى وراءة حتى قتلته...، هذا ويتهمنى بعض أعدائى بإننى قتلت البلالى بدون سبب، وها أنت الآن قد عرفت السبب فقولى لى، أو لم يكن ذلك الخائن يستحق تلك القتلة.. فعلاً ؟".(١)

لم تستمر تلك المعركة سوى ساعة واحدة، وكان مقتل البلالى خاتمة لها، ولما وجد السود أنفسهم بلا قائد أذعنوا بالتسليم فوراً، وقام الزبير بفك وإطلاق سراح التجار الذين وجدهم فى ركب البلالى، وبعد أن جمع كل بضائعهم، رجا كلا منهم أن يتعرف ويميز ما يخصه منها، وبعدها قام بإعادة كل شىء اليهم ما عدا الأسلحة والذخيرة التى أعتبرها غنيمة وتعويضاً عادلاً ومستحقاً لقاء ما قدمه من خدمة لهم، وقفل التجار والأهالى بعد ذلك عائدين إلى ديارهم. أما كل ما كان عائداً للحكومة من مهمات البلالى فقد تم حصرها وجمع ووضع فى جانب واحد، وأرسل تقرير واف يفصل كل ما حدث إلى الحكومة فى الخرطوم وأبدى الزبير استعداده أما للذهاب إلى الخرطوم للإجابة على أى إستفسار عما قام به من إجراء، أو البقاء حيث هو لانتظار لجنة تحقيق وتحرى لتجىء إلى "ماندقبا" وفق ما توجه به الحكومة. وردا على ذلك، إنتدب جعفر باشا "على بك" السورى الجنسية،... وبصحبته إثنا عشر رجلاً ليقوموا بمهمة إجراء تحقيق دقيقة فى كل الظروف والملابسات، ورفع تقرير إلى الحكومة، بذلك وكشف الزبير للجنة عن كل شىء، وفتح لهم كل الأبواب لإجراء التفتيش اللازم فى "ماندقبا"، وجاء تقرير "على بك" للحكومة لصالح الزبير ومؤيداً له، وأوضحت مشتملات التقرير أن البلالى كان بالفعل رجلاً خطراً وغير مؤتمن. كما عبر عن رأى اللجنة الذى أكد بوضوح أن الزبير لو أتخذ أى إجراء أو تصرف مخالف لما قام به لنتج عن ذلك أن تعم كل البلاد الفوضى، وكنتيجة لهذا التقرير، قدمت الحكومة شكرها للزبير وطلبت منه أن يوافيها بجملة كل ما قام بصرفه على قوات البلالى. وفى ذلك الوقت، بلغت تلك التكاليف عشرة آلاف من الجنيهات، ولم تناقض الحكومة المبلغ المطلوب أو

---

(١) أرى أن روايتى ليست منصفة ولا عادلة إذا ما قيست بالنصاعة والقوة والحيوية التى روى بها الباشا القصة إلىّ، فإن ما تثيره من الاشمئزاز خيانات البلالى الأولى، والاحتقار والازدراء المزرى باعتراضاته واحتجاجاته الأخيرة، والسخرية والضحك المر لفراره من المعركة، والارتياح العميق بقتله، كل ذلك لم يخفه ضعف المترجم فى اللغة الإنجليزية "المكسرة" ولهذا كان لزاماً علىّ، حتى لا أقع تحت وطأة الألم الممض لاختراع الحوادث، أن أتقيد بالألفاظ والكلمات التى سمعتها.

تعترض عليه، بل طلبت من الزبير أن يسمى وكيلا عنه فى الخرطوم ليتم تسليم المبلغ إليه هناك. وعين الزبير حاكما على مديرية النيل الأبيض وعندها حوّل جنود البلالى وإسلحتهم ليكونوا تحت قيادته وليعملوا تحت إمرته.

وقعت حادثة البلالى سنة ١٨٧١(١)، وتلت ذلك فترة هدوء إمتدت لبضعة شهور بدأت بعدها المشاكل تطل برأسها لتبرز فى الشمال، وأخذت قبائل جديدة من البدو تفد إلى من سبق أن تعاقد معهم الزبير بإتفاقية سنة ١٨٦٨م، وحدثت مفاوضات ومنازعات داخلية كان من بين ما جرى فيها أن لام القادمون الجدد القبائل القديمة وعيّروهم بالتمسك بالعقد الذى إرتبطوا به مع الزبير. وكانت قبائل البدويين القدامى قد استقر بهم الحال إلى حياة طبيعية آمنة نسبياً، كما كانوا يمارسون تجارة قيمة جداً فى المواشى ومنتجات الألبان مع "ماندقبا"، وكان يصلهم دعم دائم مضطرد الزيادة من الزبير، فى مقابل حق حرية المرور المضمون والمؤمن عبر مناطقهم، وأظهروا رضاهم وقناعتهم بالمعاهدة والتزموا بمراعاتها بكل إخلاص.

وسواء كان منظر القوافل الكثيرة التى كانت تمر، بدا لهم مؤخرا أنها أكثر من أن تطيقها غرائزهم المتخلفة، أم أنه وكنتيجة لتمازج القبائل البدائية المتوحشة قويت فجاة جماعات البطش فى مجالاتهم، فقد كانت نتيجة منازعاتهم أنه، وفى حوالى أوائل ١٨٧٢م، وبعد أربعة سنوات من السلام التام المطلق، هوجمت قافلة كبيرة وتم نهبها وسلبها، وقتل عدد كبير من الرجال الذين يرافقونها، بينما هرب الباقون منهم إلى الزبير، وأوفد الزبير إلى البدو مبعوثا ليحتج لديهم قائلاً... "إنكم تذكرون معاهدتنا، وأنا لم أقصر فى الوفاء بجانبى بها، وقد جنيتم أنتم منها فائدتكم كاملة.. ومنذ إبرام الإتفاقية كانت تصلكم النقود كل سنة وكنتم تتجرون مع "ماندقبا"، وكنا فى حالة سلام معاً، وصرتم أكثر غنى وثروة،.. فلماذا إذن تنقضون المعاهدة، ولماذا تقتلون وتسلبون وتسرقون القادمين إلىّ؟" لكنهم تشددوا وتعصبوا معا وأجابوا بأنهم قد ضاقوا بالإتفاقية ذرعا.. وكان ما يستلمون من نقود كدعم، أقل فيما يقولون، مما كانوا سيحصلون عليه عن طريق اعتراض القوافل ومهاجمتها، وفضلوا أن يرجعوا إلى عاداتهم القديمة التى يرونها أخلق والیق بهم وبالأمة المحاربة والیق بهم من الإتجار بالزبدة وبالسمن. وأعلنوا بأنهم لن يعودوا مسالمين له ابدا وذكرُهم بقسمهم، وأجابوه بأن ذلك أمر قد عفت عليه

---

(١) بعد مغادرة "شويفيرث".

الأحداث وغسلته مياه أمطار كثيرة، ومع ذلك وبعد مفاوضات مضنية، عادوا فوافقوا على تجديد التعاهد شريطة أن تغفر لهم خطيئة مخالفاتهم تلك. وبعد مرور فترة قصيرة تعرضوا بالهجوم مرة ثانية على قافلة أخرى، وعندما عاد الزبير للإحتجاج عليها بعثوا إليه أحد زعمائهم (المدعو بريمة) ليتحدث باسمهم. وكان بريمة هذا رجلا ذكيا جدا، فقد رأى، وكما أشار إلى ذلك الزبير، إنه سيكون من فائدة البدو ومن مصلحة وفائدة كل شخص آخر، المحافظة على أن تكون الطرق مفتوحة كما تقضى بذلك الإتفاقية، ووعد بمحاولة حمل العرب على الدخول فى إتفاقية جديدة، ولكى يمتحن الزبير قوة "بريمة" ويختبرها، بعث بستماية قطعة من العاج الخاص به معه ليعمل على تمريرها بسلام، وعاد "بريمة" بالعاج، وعقد مجلساً مع العرب ولكنهم رفضوا الموافقة على مقترحاته، وتساءلوا... (لماذا نقوم نحن دائماً بتنفيذ كل ما يريده هذا الرجل؟ فهو يدفع لنا مبلغاً صغيراً من المال، بينما إذا قمنا بسرقة القوافل فإننا سنحصل على كل شيء؟" وأوضح لهم "بريمة" إنه فى حالة ما يكون الطريق غير مأمون فإن القوافل لا يمكن لها أن تمر عبرها، وإنهم إذا ما تشبثوا طمعاً فى الاستحواذ على ما هو أكثر، فإنهم سيفقدون الدعم المضمون الذى كان يدفعه لهم الزبير. ووضح لهم بريمة أيضاً أن لديهم سوقاً خاصاً بهم فى "ماندقبا" لألبانهم وزبدهم ومواشيهم، وإن كل الفوائد التى تجتنى هى فى جانب السلام، لكنهم كانوا جميعهم بعيدين عن كبح جماح أنفسهم وكان مثلهم كمثل من يستمع إليك وقد وطد عزمه وصمم فكره سلفاً بإصرار على إنتهاج سياسة عدائية وعدوانية ظالمة. فكان ردهم بالرفض وقالوا "إن هذا الرجل ذو قوة عظيمة.. فبعد وقت سيجيء ليواجهنا ويفتح بلادنا كما فتح بلاد "البنجوس والنيام نيام" وإن من الأصوب أن نهب لقتاله جميعنا الآن".

ظل "بريمة" يتحدث ممتدحاً للإتفاقية ومعدداً مزاياها، فاسكتوه وأخرسوه قائلين له... "إن كنت صديقاً للزبير فاذهب وعش معه"، وأستولوا على عاج الزبير كله وبعثوا إليه بخطاب مختوم جاء فيه... "لا يدورنّ بخلدك أبدا أننا سنعقد معك أية معاهدة مرة أخرى، فإن كانت عندك القوة الكافية فأخرج لقتالنا"، ورد عليهم الزبير كتابة بإن السلام خير من الحرب، وإنه ومن جانبه، فليّست لديه أية رغبة فى القتال ولكنه يريد المتاجرة ليس إلا، وذكرهم بأنه هو أيضا عربى مثلهم، وأقترح عليهم عقد معاهدة مرة أخرى معهم فأجابوا عليها بأنه إن كان فعلا الرجل القوى الذى يسميه الناس كذلك، فعليه أن يخرج إليهم ليقاتل، وإلا فانهم سيمضون إلى مهاجمته ولتدمير مدينته وإزالتها من الوجود. عند ذلك أخذ الزبير

يجمع جيشه وينظمه، وخرج لملاقاتهم مخلفاً وراء ه كوكيل عنه (إدريس ابتر) الرجل الذى كان قد حرره من قبضة البلالى مؤخرا، وكان "إدريس" وقتها رجلاً كبيراً فى السن، وكان الزبير يطمئن له ويثق فيه، ولكنه برهن على خلاف ذلك، وبأنه من النوع الذى لا يوثق به إن ترك بمفرده. وقال الباشا.. (أن الرجل الجيد هو من يمكن أن يترك ليتصرف بنفسه.. أما الذى يبدو فقط أنه طيب، فتظهر حقيقته عندما يترك وحده ليخلو لنفسه).

سار جيش العدو أربعة أيام ليقابل الزبير، وكان قوامه ١٥٠٠٠ مقاتل معظمهم من الخيالة، بينما كان جيش الزبير يضم ٤٥٠٠ مقاتل أكثرهم من المشاه، ولكنهم كانوا مدربين تدريبياً جيداً؛ والتقى الجيشان فى الساعة الرابعة مساء، وكان الزبير قد درب جنوده على إطلاق النار وهم منطرحون أرضاً، حتى إذا ما تقدمت نحوهم خيالة العدو إنكبوا على وجوههم ورشقوهم بوابل نيرانهم، وبهذه الخطة التكتيكية والمناورة التى لم يكن لعربان البدو من جيش العدو سابق معرفة بها، سقط عدد كبير جداً من خيالتهم ورجالهم صرعى. وبعد مضى نصف ساعة من القتال أمكن صد تقدم قوات العدو، ولكنهم قاموا بتنظيم صفوفهم وأعادوا الهجوم كرة أخرى، وأمكن ردهم مرة ثانية، وأعادوا الكرة مرة ثالثة، وعند حلول المساء أستطاعوا أن يطوقوا الزبير وأن يحيطوا به أحاطة السوار بالمعصم من جميع الجهات فى شكل خط بيضاوى طويل. وعند حلول الظلام وبعد أن أرخى الليل سدوله، تسلل الزبير ورجلان من كبار قواده، بعد أن تجردوا من ملابسهم، وجاسوا بهدوء وخفية، دون أن يشعر بهم أحد، وطافوا حول خطوط العدو، وبعد أن تعرفوا إلى موضع أضعف نقطة فى مواقعهم، أيقظوا جيشهم وداهموا به العدو قبل أن يبزغ الفجر، فأُخذ جيش العدو على حين غرة، وكانت المفاجأة التى لم يكونوا ينتظرونها... فإنهزموا ولاذوا بالفرار، وصار الزبير سيداً للموقف، ووقع فى يده ٦٠٠ فرس ومغانم أخرى كثيرة، وأنشأ الزبير بعدها لنفسه فرقة من الخيالة.

تلت ذلك حروب استمرت مستعرة طيلة سبعة شهور أصبح الزبير فى نهايتها السيد المسيطر على "شكا"، ودان نحو ثلاثة أرباع عربان البدو بالطاعة والتسليم والولاء للزبير، أما الربع الباقى، فقد فر هارباً إلى سلطان دارفور لائذاً به ومتوسلاً به لتبنى طلباتهم لمحاربة الزبير. وفى هذه الأثناء حصَّن الزبير نفسه فى "شكا"، وكتب إلي الخرطوم مقدماً له فتوحاته-ولم يكن الوالى الحاكم وقتها جعفر باشا. ولكنه كان "إسماعيل" الذى رجا منه الزبير أن يتولى ضم الرقعة الجديدة للخديوى. وقال الزبير أنه من جانبه فإنه رجل يعمل بالتجارة، وإن لديه الكثير

مما يشغله فى بلده، وإنه يفضل أن يقصر نفسه ويحصرها فى ممارسة ومزاولة أعماله التجارية وحدها، وقال: "إننى أحد رعايا الدولة المصرية.. وإننى قد أرغمت واضطررت مكرها لقتال هؤلاء الناس وليست لدى أية رغبة فى تملك تلك البلاد وأخذها لنفسى. فأرسلوا مديراً ليحكمها لأن لدى الكثير جداً مما يشغلنى عن تولى القيام بحكمها وإدارتها، لكننى سأقوم بكل ما أستطيعه لأن أساعد أى شخص أخر تعينونه، فقط تجب المبادرة بمعالجة هذا الأمر على وجه السرعة وحسمه فوراً، لأنه من الضرورى أن يتم ذلك دون أى تأخير".

فى ذلك الوقت قال الباشا أن ما ذكره عن تلك الرسالة يعبر بصراحة وصدق عن آرائه وأفكاره فعلاً، فقد أتسعت أعماله التجارية فى "ماندقبا" لدرجة كبيرة جداً، وإزدهرت وملأت كلتا يديه، ولم يعد يطمح لأى شىء أكثر من أن يكون التاجر الحاكم لتلك المديرية. وبإستلام "إسماعيل أيوب" لخطاب الزبير، رفع الأمر إلى القاهرة، وجاء الرد من القاهرة بأن الزبير هو الرجل الوحيد المؤهل والكفء لحكم تلك الأقاليم المتوحشة، وإن ضمها إلى رقعة الحكم سيورط الحكومة فى مناوشات وحروب صغيرة متواترة. وإن خير ما يمكن عمله هو أن يترك الزبير وأن يدفع لهم الجزية وأن يبقى فيما عدا ذلك مستقلا يفرض ما يشاء من ضرائب ويحكمها وفق ما يريد وحدد إسماعيل أيوب الجزية بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيها فى السنة، وقبل الزبير العرض وحررت إتفاقية رسمية بذلك.

فى هذا الأثناء كان سلطان دارفور الذى أصاخ بسمعه لما نقله إليه عرب البدو الذين فروا إليه من وجه الزبير، قد عقد العزم على محاربة الفاتح الجديد، وأحتج على ما تم الإتفاق عليه بين الزبير وبين الحكومة المصرية. مدعياً بأن "شكاً" هى جزء من إقليمه، ومنكراً أي حق للحكومة المصرية للتصرف فيها، وطلب من الزبير إخلاءها. ورد عليه الزبير بقوله: (لقد كانت تلك البلاد خاضعة لك طيلة ستة وثلاثين سنة، وعلى طول هذه المدة كان اقتناص الرقيق مستمراً فيها، وظلت الطرق غير مأمونة وليست لديك القوة لحفظ النظام فيها، ولا أحد يقدر على تحقيق ذلك سواى، وقد حاولت أنت عدة مرات قبل ذلك ولم تنجح، وأنت تريد منى الآن أن أتركها!.. لكننى لن أفعل، فأنا مصمم على تأكيد وضمان سلامة هذه الطرق." كان رد السلطان هو إعلان الحرب: ولكن الرسائل ظلت مستمرة بينهما: وبلغت الرسائل حول هذا الموضوع فى مجموعها ثمانية خطابات.(١)

---

(١) انظر مجموعة الخطابات التى تبودلت بين ملاحق الجزء الثانى من هذا الكتاب (المعرب)

وبذل الزبير جهداً فى سبيل الوصول إلي تفاهم معه، وأقترح أن يطرح الموضوع أمام مجلس من الحكماء والعقلاء ملتزماً من جانبه بقبول نتائج تحكيم ذلك المجلس إذا ما سمح فيه بالنقاش الحر وكان رد السلطان النهائى هو قوله "إننى أنا ملك.. أما أنت فلست بشيء.. ولهذا فلن أتفاهم معك". وبدأ بعدها فى عمليات الحرب.

كان الجيش الذى بعث به للقتال ضد الزبير يقدر بأربعين ألف مقاتل، من بينهم تسعة آلاف من الخيالة و٢٣ مدفعاً، وكان على رأسه رجل اسمه (شكتا)، أحد أرجح مستشارى السلطان عقلاً. أما جيش الزبير فقد بلغ تسعة آلاف مقاتل تقريباً بما فيهم بعض الخياله وبدون سلاح مدفعية، وعند سماعه بتقدم جيش دارفور نحوه خرج الزبير لملاقاته فى خمسة آلاف مقاتل، وفى شهر يوليو ١٨٧٣ تقاتل الجيشان فى موضع يقع على مسيرة أربعة وعشرين ساعة إلى الشمال الغربى من "شكا"، وتحاربا، وهزم الزبير وفقد أربعمائة من رجاله بخلاف الجرحى، وتقهقر الزبير صوب "شكا"، ولكنه على بعد ست ساعات من تلك المحطة، لاحقته وهاجمته خيالة العدو، واستمر القتال من الثالثة بعد الظهر إلى حلول المساء، تمكن الزبير بعدها وبصعوبة من بلوغ مدينته المحصنة. وهاجمت خيالة العدو "شكا" طول الليل، وفى الصباح كانت كل جيوش العدو قد تجمعت حولها... ولكن موقف الزبير كان قد تحسن بعودته إلى شكا حيث أستجم جيشه بها وتزود بالطعام، كما أن قوته العددية تضاعفت تقريباً بضم من كان قد تركهم فيها. وبذلك أصبح مستعداً ومهيئاً أكثر للنزال وللحرب. ودارت رحى المعركة الطاحنة الساحقة فى الساعة الثانية عشر، وفى أقل من ثلاثة أرباع الساعة كان النصر المبين حليف الزبير. وسقط "شكتا" قائد جيش السلطان صريعاً فى الميدان وإنجلت المعركة عن فرار جيش السلطان تاركا وراءه كل مدفعيته. وبالإضافة إلى الثلاثة وعشرين مدفعاً، استولى الزبير على سبعة وعشرين جملا محملا بالذخيرة، والفىّ درع، وثلاثمائه (درقة) خوذة من الصلب، وعددا كبيراً من الخيول والأسلحة الصغيرة، وأغلب موجودات المعسكر.

وكانت المدافع التى غنمها منهم ذات نوع غريب، وكانت تعتبر حتى فى دارفور من النوع العتيق البالى الذى عفا عليه الزمن، إذ كانت من المخلفات التى ورثها السلطان من أسلافه الأقدمين، وكانت تحمل تاريخ صنعها الذى يرجع إلى ٤٨٠ سنة خلت. وكان واحد وعشرون مدفعاً منها مصنوعا من النحاس الخالص والإثنان الباقيان من الحديد الصلب، وكان عيارها نحو ثلاثة أقدام فى الطول وقطرها ست بوصات للنوع الكبير، وأربعة للنوع الصغير-وكانت المدافع الكبيرة محملة على

دواليب (عجلات) خشبية.(١) بينما تحمل الصغيرة منها على ظهور الجمال: وكانت كلها من ال Breech Loaders، لها فتحة فى أحد جانبيها، عمد الباشا إلى شرحها لى بأن أمسك بعلبة نشوقة من جانب واحد وقام بفتح غطائها من الأسفل، وكانت عبوات طلقات الرصاص المستعملة من النحاس المدور المصبوب، كما كانت أسلحة جنود دارفور الخفيفه كلها من نوع Flint Locks التركى القديم، كما كان البارود المصنوع فى دارفور من نوع ردىء جداً، أما الدروع الثلاثمائه من الحديد الصلب فقد صيغت صياغة جديدة وصنعت خصيصاً لتصد ولترد رصاص الزبير. ومع أنها كانت كافية تماماً لصد الرصاص الذى تطلقه بنادق ال "Flint Locks" التى يتسلح بها جيش دارفور، إلا أنها كانت من السهل أن يخترقها رصاص البنادق الفرنسيه التى كان جيش الزبير مزوداً بها. وبالإضافة إلى تفوق نوعية بنادقه التى كانت من صنع أحسن، كان الزبير يستورد ذخيرة جيدة من القاهرة، وكان له قبل وفوق ذلك كله، تلك اليد المخيفة المرعبة الآخرى التى يخشاها رجال دارفور أكثر من خشيتهم لأى سلاح آخر. وأعنى بها أنياب جنوده وعساكره التى كانت تمزق كل من يخر صريعاً فى أرض المعركة فتلتهمه وتأكله...

كانت ثمرات هذا الإنتصار الأول عظيمة فى مجاليْ الكسب المعنوى والمادى على حد سواء. فقد زوّد الباشا جيشه بكل ما غنمه من موارد وإمدادات مخازن العدو، كما زاد من قوات خيالته بإن أركبهم على صهوات ما غنمه من أفراسهم حتى إذا ما أرسلت دارفور جيشها الثانى لمقاتلته بقيادة زعيمهم "أبونا" تقدم الزبير نحوه لينازله بإطمئنان وثقة عظيمة فى الفوز، عند ملاقاته له فى (الكَلَكَة) حيث بدأت المعركه فى الثامنه صباحاً بقتال عنيف، خرج بعده الزبير منتصراً مرة آخرى. وقُتل "أبونا" فى المعركة، وأخذ سبعة من أبنائه الأحياء أسرى، بالإضافة إلى كميات ضخمة من الغنائم ومن الذخيرة. وعاد الزبير مرة ثانية إلى "شكا" وبصبحته الأسرى. وبعد مضى عشرين يوماً على ذلك، هوجم الزبير بجيش ثالث يقوده زعيم يدعى "نور"، هزمه الزبير أيضاً حتى لاذ بالفرار. وبعد هاته المعركة الثالثة، تخلى البدو الذين كانوا يدينون لسلطان دارفور بالولاء عنه، ويمموا وجوههم شطر الزبير مذعنين له بالطاعة، فإزدادت بذلك قوات الزبير خاصة من الخيالة الراكبين. فى ذلك الوقت أيضاً، بعثت الحكومة فى الخرطوم إليه بثلاثمائة وخمسين جندياً تعزيزاً لقواته، ولكن هؤلاء تهيبوا كثرة أعداد جيوش دارفور لما

---

(١) يعود بنا هذا إلى الستين سنة عن "موقعة سالارو" – التى أعتقد بأنها كانت أول مرة ذكر فيها استعمال البارود فى أوربا.

رأوها، ووصلت أخبارهم إلى الزبير بأنهم ينوون الأنشقاق والتّولى عن الزحف، فأرسل الزبير فى طلبهم وخاطبهم قائلاً.. "إننى حى لم أمت بعد.. فلماذا تفّرون إلى السلطان؟"، فأنكروا الأمر، وبالتدريج، أخذ العدد الأكبر منهم يطمئن ويثق بفوز الزبير، وان كان واحد وستون منهم قد فروا وهربوا من الجنديه آبقين.

بلغ عدد جيش الزبير آنذاك ١٢,٠٠٠ من المشاة و١٠,٠٠٠ من الخيالة، أحس الزبير بعدها أنه قد أكتمل له من القوة ما يسمح له ويدفعه للتقدم نحو "دارا" باطمئنان، فزحف عليها واحتلها وأحكم تحصينها، وحفر حولها خندقاً عمقه ١٢ قدماً، وظل يقيم إقامه متواصله فى الحصار الذى أحكمه، والذى أمتد إلى أربعة شهور وثلاثة عشر يوماً. وعند نهاية ذلك الوقت، خرج سلطان دارفور بنفسه على رأس قوات جديدة، ووقعت معركة شرسه أحرز فيها الزبير فوزاً عظيماً ونصراً تاماً مؤزراً، لقى فيها السلطان حسين حتفه. وأرسل الزبير بعد ذلك بعوثاً إلى الفاشر ليقول لهم... "تعالوا وأستسلموا إلىّ، فإن جنودى الآن مأخوذون بنشوة الأنتصار ومسعودون بلذته، ومن الخير لكم أن لا أتقدم نحوكم... فأهرعوا إلىّ. وأنقذوا مدينتكم وأطفالكم... وحتى أولئك الذين لم يولدوا لكم ممن هم فى أرحام أمهاتهم بعد." فأستجابوا له مذعنين وسلموا له خاضعين، وبذلك أصبح الزبير سيداً على جميع دارفور كلها...

فى هذه المرحلة من سرد القصه، توقف الزبير وأطرق ملياً ثم قال.. "والآن فإن كل ماقمت به وما حققته، قد تم بجهدى الشخصى البحت وبمواردى الخاصه الخالصه، ولم أتسلم قط من الحكومه ولو بنساً (مليماً واحداً)، ومع ذلك فقد عملت لمصلحة الحكومه، وجازفت بنفسى، وغامرت بحياتى مرات تلو مرات، ووهبت عقلى وفكرى، وبذلت مالى... ولو أن رجلاً إنجليزياً أو أى أوربى آخر عمل لبلاده وقدم لها مثل ما عملت وقدمت لبلادى، للقى الجزاء والمكافاة والتكريم... أما أنا، فقد كان جزائى الوحيد هو أن الحكومة صارت حاسدة لى وغيورة وحذرة من قوتى." وبالفعل، فإنه لقمين بمن كان مثله، فاتحاً لدارفور "وشكا"، وحاكماً على "ماندقبا"، وقائداً أعلى لجيش قوامه ثلاثين ألف مجند،، ويملك فوق ذلك دخلاً وثروة خاصة عظيمة جداً... حرىٌ بأن ينظر اليه كقوة يؤبه لها ويعمل لها ألف حساب".

قدّم الزبير "دارفور كلها"، كما قدمّ "شكا" من قبل، إلى الحكومة المصرية التى قبلتها وكتبت إلى إسماعيل أيوب حكمدارها فى الخرطوم لاستلام تلك المديرية، وكان "إسماعيل أيوب" وقتها فى كردفان فى موضع يقال له "فوجة"، كان ينتظر فيه معرفة ما ستنجلى عنه حروب الزبير، أو كما عبر عنه الزبير ببسمة

ساخرة.. "بدون أن يقدم أية مساعدة... بل كان ينتظر ليرانى أما مقتولاً منهزماً وأما فاتحاً منتصراً."

وكان "إسماعيل" خائفاً من تنفيذ أوامر الخديوى له ليلحق بالزبير، لأن أصدقاءه قد أثاروا في نفسه الشكوك والمخاوف بأن الزبير، الذى لن يكون مرتاحاً بطبيعة الحال، لقرار الحكومة المصرية بجعل دارفور تابعة للخرطوم. وأنه سوف يصب جام غضبه على شخص المدير المتمثل فيه. فى نفس ذلك الوقت. كانت تصل إلى الزبير أفادات ومعلومات خاصه تتحدث عن المخاوف والشكوك والقلق الذى أثارته فتوحاته الكثيرة المتتالية والسريعه لدى المسؤولين فى القاهرة، كما نقل إليه أن الخديوى كان يخشى، بل ولا يطمئن، لأن يرى الزبير يقيم إمبراطورية مستقلة واسعة على حدود مصر، ولما لم يكن الزبير يفكر فى أى شىء من ذلك القبيل، ولم يكن يرغب فى خلق أية مشاكل مع الحكومة، وخاصة من أجل موقف وسلامة أسرته التى كانت تعيش بالقرب من الخرطوم، بادر الزبير بإظهار الرضى عن التعليمات التى وردت إليه من الخرطوم، وأرسل إلى إسماعيل أيوب معرباً له عن ترحيبه الحار بمقدمه، وواعداً أياه بتقديم كل ما فى وسعه من مساعدة ومن عون له. وهكذا، وفى بداية عام ١٨٧٥، تخلى الزبير ببساطة عن دارفور لمبعوث الوالى، واضعاً أمر إدارتها وحكمها كله فى يديه.

كانت دارفور فى ذلك الوقت بلداً يمكن أن تُجتنى منه منافع كثيرة جداً، فهو بطبيعته غنى وإن كانت لا تتوفر فيه الخصوبة العظيمة التى تتمتع بها "بلاد النيام نيام" التى كانت أغنى ما عرفه الباشا من بلاد، ولكنها تزخر بموارد كثيرة، فى الغالب الأعم لم تستغل، وهى من أحسن البلاد التى تنتج الحنطة، وتزرع فيها كل أنواع الحنطة الأوربية التى تعطى محصولاً طيباً، وقد عدَّد الباشا غير هذه، أحد عشر نوعا من الحبوب لم ينقل لى المترجم إلا اسماءها العربية، وكان طول سنابل القمح فيها يبلغ ستة أو سبعة بوصات، بينما ترتفع الذره الهنديه فيها لأعلى من قامة الأنسان، كما كان من بين ما يزرع فيهاعادة من المحاصيل التى تعود بأرباح حسنة "القطن والنيلة، وقد أرونى أقمشه قطنيه زرعت وغزلت ونسجت فى دارفور وهى وإن كانت دقة الصناعة فيها لاتقارب مستوى النسيج البريطانى فى استقامة ودقة تدانى خيوطه، فإن نوعها كان يبدو ممتازاً. وتغطى بعض أجزاء دارفور الغابات الكثيفة، وكان من أهم ما ذكره الباشا من أشجارها الجميل (الجميز)، الذى يتحدث عنه المسافرون فيما أعتقد بأنه نوع من التين تنمو أشجاره بأحجام كبيرة وبارتفاع ويبلغ أحياناً قطر الواحدة منها حوالى أثنا عشر

أو أربعة عشر قدماً، ويستعملها الأهالى كصهاريج أو أحواض تخزين، وإذا ما عولجت بدقه وإحتراس فإن جذوعها يمكن أن تجوّف وتفرغ من الداخل بدون أن يصيب الشجرة أى ضرر أو أذى. وتعبأ هذه بالأيدى فى موسم الأمطار حتى تمتلىء، وتساعد أوراق نباتها الكثيفة فى حفظ المياه بها باردة طول الصيف، وعلى طرق القوافل تمثل هذه مصادر ثراء للأهالى الذين يجهدون فى ملئها خلال موسم الأمطار ويبيعون ماءها إلى القوافل فيما بعد. وهناك شجرة طيبة أخرى اسمها Asilik تؤتى ثمرة طيبه تؤكل كفاكهة تنبت بكثرة حوالى الفاشر، أما أشجار السنط التى يستعمل لحاؤها لأغراض الدباغة فكثيرة جداً، كما ذكر الهجليج أيضا ضمن أصناف الأشجار الكبيرة، وبوجه عام، توجد مقادير كبيرة من الأخشاب الجيده المفيدة فى مناطق الغابات، أما الأجزاء الأخرى من الإقليم فيبدو أنها تشبه لحد كبير مروج ونجود أمريكا. وقد وصفها الباشا بأنها مساحات واسعة من الحشائش ترعى فيها المواشى فى قطعان تبلغ أعدادها الألوف، ويعاملها أصحاب المواشى بما يشبه نفس الطريقة التى يعامل بها ملاك مزارع تربية المواشى الغربيون مزارعهم، لكنهم لا يقومون ببذل أى جهد أخر سوى أن يُحصوا قطعانهم مرة فى كل عام، وتتسبب الأمطار الغزيرة المنتظمة فى نمو الحشائش من غير زراعة، كما يقوم أرباب الماشية بأعداد العشب المجفف للعلف وتخزينه للاستهلاك خلال فترة الشتاء، وتتكون القطعان الرئيسية من الخيول والأبقار والجمال. وفى بعض أراضى المراعى، تروج تجاره عظيمة واسعة لمنتجات الألبان.

وتربة دارفور غنية خصبة، وموارد المياه فى بعض أجزائها حسنه جداً، لأن أراضيها تسقى بلأمطار ولا تعتمد على فيضان الأنهار، والأنهار ليست معروفة فيها ولذلك فإنها وبالطبع ليست موضحة علي الخرائط الأوربية، وفى موسم ارتفاع نهر النيل يمكن من الذهاب من الخرطوم إلى الفاشر بالطريق المائى. فهناك فرع من بحر العرب، ينبع من شمال "الكلكا" كان الزبير قد سلكه وأبحر فيه عندما ضل طريقه فى أسفاره عبر الأنهر عام ١٨٦٢، ويمكن عن طريقه الوصول إلي الفاشر، ويوجد عدد كبير من رواد استكشاف السودان. ولكن، وبإستثناء أولئك الذين لهم معرفة علمية خاصة تمكنهم كما يقول الباشا من أن يروا أكثر مما رآه هو بالمشاهدة، فإن الباشا يعتقد بأنه يعرف تلك المناطق أكثر من معرفة أى مسافر أجنبى لها، فقد درج منذ صغره، وعوّد نفسه على التدقيق فى تملى وملاحظة كل ما يسترعى النظر. ولم تكن أسفاره لمدة سنة أو سنتين فقط، ولكنها استغرقت الجزء الأكبر من حياته فى السودان. ومن العسير علىَّ أن أحاول هنا تلخيص كل ما قاله

لى ولكنى أختصره بإيجاز لأقول: "إنه يوجد فى السودان العاج، وريش النعام، والجلود، والشمع، والصمغ، والتمر هندى (العرديب)، والعسل، والبلح، وقصب السكر، والمطاط، والنيلة، والقطن، والحنطة، والتبغ، والخيل، والجمال، الأبقار، وجميع الحيوانات البرية التى ذكرتها...، وكما يوجد الحديد، والنحاس، ومعادن أخرى بحسب ما أعتقد"، وحقيقة الوضع هو كما يلى:

"أن السودان وإن كان غنياً فى موارده إلا أنه لم تكن له أية صناعة، وباستثناء ما هو موجود فى دارفور، فأنه ليست لديه مصانع لعمل الأقمشة والملبوسات، أو الأسلحة أو السكاكين، ولا للمدافع والبارود، ولا الأشرطة والأربطة وأدوات الزينة، كما لم تكن لديه أية صياغة أو سك للعملات، أما ما كان للتجميل أو للاستعمال أو للحرب، فإن السودان لا يكاد يملك أى شىء من صنعه فالأخشاب عديمة الفائدة ما لم تقطع وتنشر، كذلك لا فائدة من السن والعاج ما لم يجىء إلى الأسواق. والآن إذا كانت الطرق مفتوحة وسالكه وآمنه، فإن ما يملكه السودان من ثروات وما هو غنى به من بضائع سيذهب إلى أوربا، كما أن أصحاب المصانع من الأوربيين سيجيئون إلى السودان وبذلك يصير كلاهما أكثر ثراء... وبالإضافة إلى ذلك، إذا كانت الطرق مفتوحة، فإن الرجال من ذوى المعرفة، والعلماء سيسافرون عليها، وعن ذلك الطريق، فإن العلم والمعرفة التى يحتاج اليها أهل تلك البلاد أكثر من حاجتهم لأى شىء آخر سوف تصل إليهم. إن فى السودان أشياء كثير مفيدة لا يعلم عنها أحد شيئاً، فانا أعتقد، على سبيل المثال أن السودان غنى فى المعادن، ولكن ليس عندى شخصياً أى معلومات كافية عن هذا الموضوع لأقطع فيه بالتأكيد. وإذا كانت الطرق مفتوحة فإن الصناع أنفسهم سيسارعون بالإقامة والاستقرار على مقربه من مواضع وموارد الأمداد وبذلك ستتدرج البلاد قليلاً قليلاً لتضاف تدريجياً إلى بلاد العالم المتحضر والمتمدين، ولكن، ولكى يقوم بكل ذلك ويحققه رجل واحد، فلابد له من أن يسند وأن يدعم من الخارج، فلو كنت من رعايا إحدى الحكومات المدركه النشطة الواعية، وكنت قادراً وراغباً فى القيام بكل ما قمت به بنفسى، لساندتنى الحكومة ولدعمتنى ولجعلتها بدورى غنية بجهودى، ولكن الحكومة التركية لا تبالى ولا تبدى أى اهتمام ولا تبذل أى جهد حتى ولو كان الأمر فى مصلحتها، أما أنا فقد بذلت جهداً ولقيت عنتاً وعناءً عظيمين، وعملت عملاً شاقاً طويلاً ومضنياً، وكل ما عملته قد ضاع الآن، ولكن لو أن الظروف قد جرت بخلاف ذلك، ولو أنى بدل أن أكون مقيماً فى القاهرة لعشر سنوات وبقيت تلك السنوات العشر فى دارفور، لكانت تلك البقاع الآن بلاداً آمنه يسودها السلام، لها طرق مفتوحة لجميع

الآتجاهات، ولعبرت خيراتها وثرواتها مع القوافل لمبادلتها ومقايضتها ببضائع أوروبا."

قلت له... "على هذا، وبوجه عام، فأنت تعتقد أنها بلاد بإمكانها أن تفي بمقومات ما يمكن أن ينفق عليها لإدارة حكومة حسنه". فأجابني بقوله: "ياسيدتي العزيزه.. أن أية حديقة يكون لها، ويشرف عليها بستانيٌ جيد مقتدر، لأبد أن تؤتي أكلها ثماراً طيبة جنيه،، ولكن لابد للجنايني من مراقبتها.. ولابد له من أن يكون خبيراً وعالماً بما هو حسن لأشجار الورود، وما هو لازم لأشجار التفاح. كما عليه أن يتعهدها بالسقى عندما تكون بحاجة إلى الماء، وأن يعرف متى يحفر، ومتى يبذر، ومتى يشذِّب، وعليه أن يسمح للفاكهة الخضراء أن تنال نصيبها من الشمس، وأن يقوم بجمع حصاده عندما ينضج... ولو أن هاته الأشياء قد عملت في دارفور لأصبحت تلك البلاد يعمها الرخاء، وذلك هو عين ما يقوم به الحاكم الصالح... إن الذين يتحدثون عن دارفور بأنها بلد قاحل مجدب، يصفونها بلسان الغريب عنها الذى لا يعرف عنها شيئاً.. لقد حكمت حكماً سيئاً، ولهذا لم يزدهر فيها شيء... ولكنها بلد غني، وأهلها مخلصون وبسطاء وطيبون، ولو كان لديهم زعيم كفء لعبدوه كما يعبد الاله ولقاموا بتنفيذ كل ما يقوله لهم. أما إذا كان لهم زعيم سيء، فأنهم يخافون منه ويخشون بأسه ويفرون منه. فبالرقه واللطف واللين والعطف يقومون هم بعمل أى شيء، ولكنهم لا يمكن لهم أن يحكموا إلا بالعطف وباللين وبالرفق.

في زمن فتوحات الزبير لم تكن دارفور، رغم تأخرها من وجوه كثيرة آنذاك، بلداً حديث النشأة كمديرية النيل الأبيض. بل كانت دولة قديمة وإمبراطورية عريقة مؤسسة الأركان، وكانت لمدنها تقاليدها الخاصة بها، وإنشئت وترسخت فيها الصناعات والتجارة، كما كان لحكومتها، على ما بها من نقائص، تنظيم تام ومعّين ومحدد المعالم. ومن أجل أغراض الإدارة قسمت البلاد إلى مراكز لكل منها مدير أو باشا يتولى الحكم باسم السلطان وإدارته، ويمد كل مركز الإمبراطورية بالجزية وبالجنود. أما الطريقة التي تجمع وتسدد بها الجزية فتتوقف على الباشا المختص. وفي العادة لا يدفع الفقراء شيئاً، بينما يسهم الأغنياء بحسب درجات ثرائهم. وتبدو هناك مفارقة وشذوذ في طريقة تنفيذ الإجراءات كلها. هي أنه في حالات حدوثها على يد الحاكم القاسي الجائر فإنها تفتح ثغرة للظلم الشائن البشع، ولكن عندما يديرها حاكم عادل، فإنها كانت تتناسب بما فيه الكفاية مع ما لأولئك الأهالي الناقصي الإداراك من تخلف وعدم انتظام.وكان يسمح للباشا بأن يقتطع

جزءاً من الجزية يحتفظ به للصرف وللإنفاق على قوة عسكرية للطوارىء وكان لا يصرف أية مرتبات لعساكره، ولكنه كان يعطى سلاحاً وفرساً وبعض امتيازات للأفراد الذين يتم اختيارهم للخدمة العسكرية، وكان هؤلاء يتركون أحراراً فى أوقات السلم ليمارسوا أى عمل يريدونه. ولكنهم وفى مقابل تلك الأمتيازات، يتوجب عليهم أن يتبعوا الحاكم فى الحرب كلما استدعاهم لذلك. وكان السلطان يستدعى عساكر كل مركز مرة كل سنة ويجرى تفتيشاً عليهم، فإذا ما سر من أدائهم وأعدادهم ومن حالتهم، جوزى حاكم المركز بالأشادة وبالثناء وبالمكافأة. أما إذا لم يرض عن حالهم لقى الباشا الذى يتبعون له اللوم وتعرض للتعنيف وربما الأبعاد عن منصبه. وكانت الإدارة الداخلية للمركز تتوقف وتستند كلياً على مسلك ومشرب الباشا الشخصى ذاته، فمتى ما أتم دفع الجزية وسدادها، ومتى ما كانت قوة الطوارىء العسكرية بحالة مرضية، فإن السلطان قل ما يتدخل. وكانت أسهل وسيلة للهرب من أى حاكم جائر هى أن يقوم الأهالى بتحميل بضائعهم على ظهور الجمال ليفروا بها إلى الصحراء. وفي بلد تكثر فيه أصقاع واسعة من الأراضى الشاسعة الغنية التى لا يملكها أحد، فإن من السهل عمل ذلك. ولهذا، ففى المناطق التى يتولى الحكم فيها ولاة سيئون، تهاجر قرى بأكملها فيحرم المركز بذلك من خدمتهم ومن الجزية التى كانوا يدفعونها. وفى واقع الأمر، أدى الحكم الجائر إلى إفقار البلاد، وكان قمعه لحد كبير يتم بعواقب ما أفرزه من نتائج. كانت هناك قبائل متوحشة حول دارفور تشن غزوات مستمرة على المناطق التى يملكها السلطان، وكان كل من يقعون أسرى فى حروب تلك الحدود يؤخذون كأرقاء. أما فيما عدا ذلك فلم يكن فى دارفور ذاتها أية حوادث لاصطياد الرقيق، ولكن، وبالقرب من "شكا" وعلى طول طرق القوافل، كان إصطياد الرقيق يجرى بدرجات تفوق حد الإحتمال. وفى بداية الحرب، لم تكن للزبير أية رغبة سوى أن يخمد حركة إصطياد الرقيق ويقمعها من أجل تطهير الطرق، وقد أشير بوضوح فى الخطابات الثمانية التى تبودلت بينه وبين السلطان، إن ذلك كان هو سبب الحرب. ولكنه عندما وجد نفسه فى نهاية الواقعتين قد أصبح سيداً على دارفور، فإن أفكاره بدأت فى التوسع، وأخذ يرسم الخطط لحكم تلك المديرية العظيمة، كما ازداد اهتمامه بأهلها. وفى الوقت الذى كان يجرى فيه التفاوض بينه وبين الحكومة المصرية حول موضوع نقل السلطة فيها، قام باتخاذ خطوة أو خطوتين رأى إنهما ضروريتان من أجل التنظيم. فعكف على دراسة الأحوال والأوضاع السائدة، ودخل فى علاقات مع كبار رجال المنطقة، وأخذ فى جمع المعلومات منهم، ولم ينس

سياسته المحببه إليه عن فتح الطرق، بل أخذت تصل إليه وفود تنادى بتحقيق ذلك الهدف نفسه من الممالك الواقعة على جهة الغرب والشمال من دارفور.

أما إسماعيل (أيوب) الذى أصبح الطريق ممهداً له الآن، فقد سبق للباشا أن وصفه بإختصار بتعبير فسره المترجم بكلمة واحده.. "هى أنه رجل تافه من سقط المتاع"، فقد قدم إلى دارفور وهو لا يعلم عن البلد الذى تعهد بأن يحكمه شيئاً، ولم يكن يفكر فى شىء سوى أن يصبح غنياً... وكان أول ما قام به من عمل هو أن يلقى القبض على بعض القادة من كبار الرجال، وحتى من النسوة اللواتى ينتمين إلى عائلات ذوات مكانة رفيعة، وبعث بهم مسوقين بالأغلال إلى القاهرة، ومات بعض هؤلاء فى الطريق بينما لا يزال البعض الآخر منهم فى السجون هناك. وعلق الباشا، على ذلك بقوله... "إن تلك ليست هى الطريقة للحكم إذ كان عليه أن يتخذ كل فرد من أولئك الرجال صديقاً له. " وجلب معه من الموظفين سبعين كاتباً، ثم أقدم على فرض ضريبة "للدقنية" مقدارها أربعين قرشاً (٤٠ قرش) على أناس لم يسبق لأى منهم أن فرضت عليه ضريبة شخصية من قبل. "وكانت "ضريبة الدقنية" تلك تستوفى عند بلوغ سن السادسه عشر، وبذلك يكون الرجل الذى لديه عدة أولاد فى منزله مطالباً بأن يدفع عنهم وعن نفسه أيضاً. ولم يكن الفقراء حتى ذلك الوقت يطالبون بدفع أى شىء، بينما كان المزارعون وغيرهم يؤدون سداد ما كتب عليهم أن يسهموا به عيناً بالحنطة، أو بأى نوع من البضائع الأخرى التى تكون فى حوزتهم.

وأما مفهوم فرض "ضريبة دقنيه" مقدارها دولاران على كل رأس، والتى رأوا أنها ترتفع فى حالات العائلات الكبيرة لتبلغ مبلغاً ضخماً فى السنة، فقد أدى ذلك إلى إمتلائهم فزعاً ورعباً... ومع أن البلاد كانت غنية فإن الغالبية العظمى من أفرادها كانوا فى حالات فقر مدقع. كان الطعام متوفراً لديهم ولكن لم تكن عندهم نقود، ولم يكن فى استطاعتهم أن يدفعوا إذا أرادوا ذلك. وكانت مطالبتهم بأن يفعلوا ذلك قد أخافتهم ودفعت بهم للفرار ولهجر ديارهم. وإتجهت وفود منهم صوب الزبير متوسلين ليشفع لهم بالتوسط، وتدخل الزبير بالفعل محتجاً ومعترضاً على "إسماعيل أيوب" بقوله... "هذه ليست حكومة.. ولكنه سلب ونهب وفساد... إن ما تفعله سيدمر البلاد وستهب أن عاجلاً أو أجلاً لتقف ضدك." وإمتعض إسماعيل فى البداية من هذا التدخل. وأوضح للزبير أن ذلك ليس من شأنه. لكنه بعد ذلك أرسل إليه وطلب منه النصح مخاطباً له فى سخرية بقوله: "ماذا تظن أننى سأفعل؟ أأترك هؤلاء الناس بلا ضريبة؟" فرد عليه الزبير بقوله: "أنا لا أقول بأنه يجب

عليك أن تتركهم دون ضرائب، ولكن هذه الضريبة التى فرضتها عليهم ثقيلة وباهظة لأول سنوات حكمك، أستمع إليّ... فى السنة الأولى أجعل الضريبة على الفقراء قرشين ونصف، والضريبة على المتوسطين خمسه قروش، والضريبة على الأغنياء عشرة قروش وستكون هذه تجربة لهم ولك".

رد إسماعيل عليه بقوله... "لا... لأننى أعرف وأعلم تماماً أن البلد غنى.. وأرى أن الضريبة التى تقترحها قليلة جداً". وقال الزبير: "أنت ترى ذلك.. ولكنك مخطىء.. فعليك أن تذكر أنه فى كثير من المراكز التى ترى فيها المحاصيل متوفرة، فإن الناس قد فروا منها بسبب الحرب. فكل شىء غير مستقر وما يجب عليك عمله هو أن تشجع الأهالى وأن تسترجعهم ليعودوا لتكون البلاد آمنة ولتزدهر مرة أخرى. لقد كانت حكومتهم سيئة جداً ومن السهل أن تعلّمهم ليثقوا فيك، ضع عليهم ضرائب خفيفه وسيعودون، وسيعملون، وسيصيروا أغنياء، وسيكونوا سعداء، وسيرون ويعتقدون أن حكومتك حكومة حسنة، فالحكومة الحسنة تفرض الضرائب على الأغنياء وليس على الفقراء، وتجعل الأهالى فى حالة رخاء قبل أن ترهقهم بفرض ضرائب ثقيلة عليهم"

لكن "إسماعيل أيوب" لم يستمع لصوت العقل، فقد كان بيته فى بلاده خاوياً فارغاً وكان يريد أن يملأه، وهو لم يكن يصلح لأن يكون حاكماً لأنه لم تكن لديه فكرة عن من يحكمهم أو أى شفقه أو عطف لما هم بحاجة إليه، ولم يشأ أن يغرس البذرة فى التربة ويزرع بأناة وصبر، بل أراد أن يكتنز كل المحاصيل ليكنسها كنساً وليذهب بها. كان ما قام به أشبه بجنى الحنطة وهى ما تزال نية خضراء، فدمر البلاد من أجل أن يحقق لنفسه قليلاً من الثراء، وهكذا كان الحال مع حكام السودان أبداً. ولو أنه أحسن حكم ذلك المركز لكان من المحتمل أن يصير فى وقت ما خزانة لمصر، ولكن لا أحد يدرى كيف تم سلبها ونهبها.. وعليك أن تدركى أن صعوبة المواصلات تجعل الخرطوم بعيدة، أو أبعد من القاهرة، أو أكثر من بعد الهند عن لندن..، فكل شىء فى يد الحكام، ولذا فإن من الضرورى أن يكونوا هم أساساً طيبين. ولكن بدلاً عن ذلك، كان كل حاكم يأتى فقيراً ويعود غنياً، ولن يجدى التغيير والتبديل شيئاً، لأنه يجىء برجل جائع ليحل في مكان من كان نصف قانع وراض بحاله، ولهذا السبب فأنه لن يكون من الممكن للحكومة التركية الأحتفاظ بالسودان، وما أريدك أن تظنى بأن الحكم التركى مع هذا كان حكماً سيئاً كله لأولئك القوم السذج والبدائيين، إذ كان فيه بعض الخير، كما كان فيه بعض السوء، فعندما قام الأتراك بفتح البلاد كانت متخلفة ومتوحشة جداً، ولم

تكن بها أية طرق، وكان من المستحيل على التجار السفر، والعمل الجميل الذى قامت به الحكومة التركية هو فتحها للطرق، أما العمل الذميم والردئ فقد كان غش الموظفين الطامعين للأهالى وظلمهم لهم. لكن الطرق تبقى، وتبقى أيضاً عادة التجارة وتستمر، وفى يوم ما سيأتى، ربما يجىء قوم من سلالة أو جنس أحسن ليعلِّملوا الناس المدنية دون أى ظلم."

وتوجهت إليه بسؤال: "عندما تعهدت أنت نفسك بأن تدفع جزية سنوية للحكومة المصرية، فمن أى الموارد كنت تنوى أن تحصل عليها؟" فأجاب بقوله: "ليس من الضرائب على الفقراء.. فقد كنت تاجراً عاملاً، كما يجب على كل حاكم لدولة شبه متمدنه أن يكون، إذا أراد أن يحصل على إيرادات بغير ظلم. وقد أخبرتك عن دخلى.. وكان عندي بالطبع عدد من الكتبة يقومون بحفظ حساباتى ودفاترى، ولو كنت فى بلدى لذكرت لك بالضبط الأرباح التى أتت من كل نوع من فروع تجارتى، فأنا لا أحمل التفاصيل فى ذاكرتى الآن، ولكن وبوجه التقريب وحسبما أتذكر أظهرت آخر حساباتى ربحاً صافياً مقداره ١٢٠٠٠٠ج فى الشهر، ومن هذه كنت أدفع ما علىّ من جزيه، وكان الوضع يستحق لأن أدفع راضياً حتى ١٥٠٠٠٠ج من آجل أن أحصل على مساندة الحكومة لى وعطفها، وكما تعلمين، فإنى لم أدفع أية جزية أطلاقاً. لأن فتح دارفور الذى تلا نفس السنة التى وُقعت فيها الإتفاقية، كان قد بدل كل الترتيبات والأوضاع وغيرّها". وقلت له "لكنك لا تستنكر بل لا تقر مبدأ فرض الضرائب على الناس من أجل مقابلة منصرفات الحكم"؟ فأجابنى بقوله "لا.. بل بالعكس.. وعلى العكس من ذلك تماماً..، فما دام الناس يحصلون على الفائدة ويتمتعون بالمزايا ذات القيمة التامة من الحكومة مقابل ما يدفعونه لها، فإن من العدل ومن الحق أن تُفرض عليهم ضرائب. ولكن فى البلاد الهمجية، يجب أن تكون الضريبة قليلة، ولا يمكن للحاكم أن يحصل على دخل كبير منها. وفى مثل البلاد التى نتحدث عنها، فمن المستحسن فرض ضريبة صغيرة لسببين: أولهما التذرع بها للقيام بتعداد للسكان وإحصائهم عن طريقها، وثانيهما، تعويد الأهالى على ترسيخ فكرة الحكومة فى نفوسهم كشىء هام له قيمته، وكشىء يستحق أن يدفعوا له ومن أجله، وأن يعملوا على مساندته من قبلهم. وما لم تكن هناك فكرة للواجب المشترك تسود بين المحكومين وبين الحكومة، فليس من الممكن للنظام السياسى أن يستقر. لكن، ولكلا هذين السببين، فقد كان من الضرورى للضريبة أن تكون أكثر من أسمية بمقدار قليل. أما فيما يتعلق بإحصاء الناس وتعدادهم، فإن فرض ضريبة باهظة لن ينجم عنه إلا تخويفهم وإقصاءهم بعيداً. لقد أخبرتك

كيف أنه كان من عادتهم أن يهربوا ليفروا من حكامهم السيئين إلى داخل الصحراء، وبدل أن يتمكن الحاكم من إحصائهم، فإن الضريبة كانت "تتسبب فى أختفائهم عنه كلية، فتضيع بذلك الغاية التى كانت مرجوة منها. وكذلك فيما يتعلق بتعليمهم وإشعارهم بمزايا وفوائد الحكومة المستقرة، فإن الضريبة الباهظة تزيد بكثير بل وقد تفوق أية فوائد يمكن أن يحصلوا عليها، ويبدو لهم أنهم إنما يعطون أكثر مما يتسلمون أو ينالون من عائد، وبدل أن يكون هناك تبادل مفيد للأرباح تبدو الحكومة فى نظرهم جهاز سلب وسرقة منظم."

قام الزبير بعرض ذلك كله وما هو أكثر منه على إسماعيل أيوب، وكانت النتيجة الوحيدة لذلك أن يتقدم إسماعيل أيوب بشكاويه إلى القاهرة ضد الزبير، بأنه يشوّش عليه ويفسد عليه خططه، وإنه إنما قام بتسليم المديرية له اسمياً دون أن يسمح له بإنتهاج ما يراه فى تصريف أمورها. وأبرق الخديوى إلى الزبير مانعاً له من أن يتدخل فى أى من شئون إسماعيل أيوب وسياساته وخططه.. عندها رأى الزبير أن الأمل الوحيد فى إنقاذ دارفور هو أن يسعى لأجراء مقابلة شخصية مع الخديوى، وأدرك أن أى تقرير يقوم بكتابته قد يكون عرضة لأن يوقف، أو أن يعرضه لما هو أسوأ، فقد يمسخ أو أن يحوّر أو يزوّر، ورأى الزبير أنه إذا ما قابل الخديوى وجهاً لوجه وأفضى إليه شخصياً بواقع الحال فى دارفور، فربما أتى ذلك بالخير. وعليه فقد أرسل الزبير برقية بهذا المعنى مبدياً فيها رغبته فى التوجه إلى القاهرة لمقابلة الخديوى فيها، ورد عليه الخديوى مرحباً بقدومه، وموجهاً له دعوة حميمة للحضور توجه بعدها الزبير مستظلاً بتلك الإدارة السنية الرسمية. وقبل سفره إلى القاهرة، قام الزبير بتسريح الجزء الأكبر من جيشه مخلفاً الـ ٦٠٠٠ الباقين من جنوده تحت إمرة "إبنه سليمان" الإسمية، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك خمسة عشر سنة(١).

لحق بالزبير وهو فى طريق سفره وفد من قبل "ملك البرقو" عارضاً نفسه عليه كجزية ، مؤذنا بخضوعه وواعداً بالعمل على فتح الطريق. وكان الخطاب المرسل من هذا الملك من بين الأوراق التى تم الاستيلاء عليها فى الوقت الذى قام فيه الإنجليز بحبس الزبير، وإصطحب الوفد معه فرسين قدمهما كهدية للزبير. وبالمقابل، بعث الزبير لهم بأربعة خيول مطهمة وقال "إن كان ملككم صادقا فيما يقول فليسارع

---

(١) يتحدث غردون عن هذا الفتى اليافع بأنه كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة فى زمن وفاته لكن عمره الحقيقى كان ستة عشر عاماً.

باللحاق بى لنلتقى معاً فى القاهرة لنناقش هذه الأمور معاً أمام الخديوى هناك، ولندخل فى معاهدة معه". كذلك تقدم "ملك تقلى" للزبير قائلاً له: "لقد سمعنا عنك الكثير الحسن، وإذا رأيت أن تقبلنا فإننا سنعلن جميعاً الخضوع لك" (وتقلى هى منطقة جبلية في إقليم كردفان على مسيرة ثلاثة أيام إلي جنوب الأبيض، وهو مكان بدائى متخلف جداً ظل حتى ذلك الوقت محافظاً على إستقلاله ورافضاً للتبعية والخضوع لأى من حكام دارفور أو كردفان) ورد الزبير على ملك تقلى بمثل ما أجاب به على "ملك البرقو" بأن هذه المسائل يمكن ترتيبها وعرضها أمام الخديوى، ومضى هو فى طريق سيره، ولم تفض كل تلك المفاوضات وكثير مما يشابهها إلى أية نتيجة بسبب فشل أمله الرئيسى الكبير.

فى ذلك الوقت بالذات، وقع ماكان يروى كثيراً مما يعرف "بحادثة مجلس الشجرة" الذى كتب عنه غردون يقول: "كانت هناك شجرة عظيمة على الجانب الأيسر للطريق من الأبيض إلى "شكا"، علي بعد نحو الميلين من "شكا"، وتحت هاته الشجرة جمع الزبير ضباط جيشه وجعلهم يقسمون له اليمين بالطاعة، وبأنه إذا ما أرسل اليهم يطلب منهم الوفاء بما تعاهدوا عليه تحت الشجرة أن يعلنوا تمردهم "، قرأت على الزبير هاته الفقرة من "كتاب بيريك هل (غردون فى أفريقيا الوسطى)" فتبسم ضاحكاً وهز رأسه قائلاً: "إنها إحدى أكاذيب "إدريس أبتر" وليست فيها كلمة واحدة صحيحة. إنها ليست بحقيقة، وإذا فكرتِ فيها فسترين أنها بعيدة المنال بل هى أقرب لأن تكون مستحيلة الحدوث، لأننى كنت فى ذلك الوقت فى أوج قوتى وعلى رأس جيش عظيم منتصر، والكل يعرف أننى لست بالرجل الجبان، وإنى لو كنت أنوى أو كنت أضمر أن أتمرد على الحكومة، فلن أكون من الغباء بحيث أسلم المديرية طواعية "لإسماعيل أيوب" أو أن أترك جيوشى تحت قياده ولدى الصبى صغير السن، أو أن أضع نفسى وبمحض اختيارى فى قبضة الخديوى القوية بالقاهرة... إن تلك الأقاويل والمزاعم قد أُجريت فيها تحقيقات كثيرة وأخضعت للتمحيص خلال سنوات ثلاثة من قبل الخديوى إسماعيل، وثبت بالدليل القاطع أنها كانت كلها من غير أساس، وإنه لمن السخف بمكان، بعد كل تلك التحقيقات وما تمخضت عنه من نتائج، أن يطلب منى الآن أن أدحضها أو أنفيها!!، وإذا صح أو جاز جدلاً إفتراض أن كان لها أساس، فهل من المعقول ياترى، أن أكون الآن على قيد الحياة لأرد على مثل هاته التساؤلات والتناقضات؟ إن الجواب هو بكل تأكيد لا".

إن ما قام به "أدريس ابتر" وعلاقاته بغردون التى كانت لها صلة لحد كبير بعلاقة الباشا بغردون، حدثت كلها فى الجزء الأخير من حياة الزبير، وبما إننى لا أريد أن أسترسل فى سرد هذه الرواية إلى أبعد من وقت وصول الزبير إلى القاهرة سنة ١٨٧٥، فساكتفى بأن أكرر هنا جانباً لبعض ما قصه علىّ منها.

كان الزبير فى القاهرة عند عودة غردون الثانية السودان، والتقيا هناك قبيل مغادرة غردون للخرطوم، وتحدثا معاً حول أوضاع وشؤون المديرية، وطلب غردون من الزبير أن يمده بكل ما يستطيعه من مساعدة، ووعده الزبير بذلك وقال له "الزبير" "أنت رجل أوربى وأنا رجل عربى... لكن من الممكن أن نكون أصدقاء.. أن لى ابناً يبلغ من العمر ١٦ عاماً.. وهو لك، أقدمه إليك وساكتب له خطاباً أمره فيه بطاعتك فى كل شيء". وكتب الزبير بالفعل إلى إبنه سليمان طالباً منه أن يعامل غردون بكل أنواع التكريم والتشريف وأن يتبع أية تعليمات وتوجيهات يصدرها إليه، وبوصول غردون للسودان أحاط به الأهالى والتفوا حوله، وكان أكثر هؤلاء من الحاسدين والحاقدين الذين يغارون من الزبير، وحدثوه بأن "سليمان" كان يعد العدة للحرب، كان "سليمان" وقتها فى "شكا" ومعه ٦٠٠٠ جندى وضعهم تحت تصرف غردون، ولكن غردون كان قد أُخطر بأنهم كانوا معدين لفرض القتال ضده، ولم يصدق ذلك فى أول الأمر، ولكن دفعته إلى التصديق محاولات وإغراءات من كانوا حوله، بعدها بعث غردون لسليمان يستدعيه لمقابلته فى "دارا"، وتمت المقابلة بينهما وبعد تبادل التحايا واجه غردون سليمان قائلاً: "بلغنى أنك ستقوم بشن حرب علىّ"، وأجاب عليه سليمان بأن الأمر لم يكن كذلك، بل على العكس فأنه مستعد لأن يطيعه وأن يعظّمه وأن يجلّه فى كل شيء، وحدثه غردون بما دار بينه وبين والده فى المقابلة التى تمت بينهما بالقاهرة وطلب منه، إن كان صادق الولاء له ولأبيه فعلاً كما يزعم، بإن يتخلى عن جيشه ويقوم بتسليمه له. ووافق سليمان على ذلك، وفى الوقت الذى تم تحديده، اصطف الجنود فى الطابور، ونفخ فى البوق، وأعلن سليمان الجند بأنهم لم يعودوا منذ تلك اللحظة جنوداً تابعين له، بل أصبحوا جنوداً لغردون، قام غردون بعدها بتوزيع ذلك الجيش على المديريات، وتوجه بعدها إلى "شكا" ونزل وأقام بدار سليمان هناك. ومنح غردون سليمان ميدالية، ومنحه رتبة الكولونيل، وأهدى إليه بعض الأسلحة، ثم كتب إلى القاهرة بكل ما حدث وقال الباشا: "والآن فإن كل ذلك دليل على أن إبنى، وحتى ذلك

الوقت، قد قام بواجبه وبتنفيذ ما أمرته به تماماً، وأن غردون كان سعيداً به ومسروراً منه لكن الضرر والمصيبة حدثتا بعد عودة سليمان إلى "ماندقبا".(١)

بعد تسريح جيشه فى "شكا"، عاد سليمان "لماندقيا" لتنكشف له مساوئ ومخازى "إدريس ابتر" الذى كان يتولى حكمها لفترة سنوات ثلاث، كما تبينت له خيانته وعدم أمانته المطلقة، إذ قضى على تجارة أبيه الزبير ودمرها تدميراً، والغى كافة قوانينه، وصارت البلاد مباءة لاسترقاق العبيد، وعمت الفوضى والفساد "ماندقبا". وإن "إدريس ابتر" لم يكن مقيماً بها بل تركها إلى "دقو"، ووبخ سليمان، إدريس ابتر وعنفه تعنيفاً شديداً على سوء ما فعله قائلاً له: "إنك إنما تُركت هنا لتكون مجرد حارس وقهرمان نيابه عن أبى، لكنك قمت بسرقته وبالإساءة إلى قومه، وسأعمد الآن توا لأن يأخذ العدل مجراه فيما بيننا."

بعد هذا تملك "إدريس ابتر" الرعب وساورته المخاوف فهرب إلى الخرطوم، وهناك، وعن طريق الغش والرشاوى، أفلح فى أن يحيك القصة ويصوغها على هواه أمام غردون، معلنا أن سليمان يعد العدة لحرب غردون، وأجرى غردون تحريات فى الأمر، وكما كان غردون ذكيا فقد كان مماطلاً وعاقلاً ومترددا فى الوقت ذاته، فقد كان يعانى من قصور وحرمان له أثره المعوق فى تلك البلاد. فهو لم يكن يتحدث اللغة العربية بمستوى كاف، وكان المترجمون يقبضون رواتبهم من إدريس ابتر، لذلك كانت كل القصص والأخبار التى ترد وتصل إلى أسماع غردون تعدَّل وتبدل وتصاغ لتتفق ولتكون متوائمه مع ما يقوله إدريس ابتر. وبذل غردون كل ما يملكه من جهد، وحاول أن يجمع حوله الرجال ذوى المقدرة من الأهالى، ولكنهم لم يكونوا متعودين على التعامل الأمين مع الحكومة، وكان إدريس ابتر رجلاً غنياً جداً كما لم يكن بعض التجار البارزين فوق مستوى الشبهات وقبول الرشاوى، وعندما شاور غردون هؤلاء والتمس نصحهم، أكدوا لهم جميعهم أن أدريس ابتر قد حدثه بما هو حق وصحيح، وأن سليمان كان يستعد فعلاً للحرب ضد الحكومة، وقال لى الباشا.. "كانوا كلهم يعلمون علم اليقين أن أدريس ابتر كان لا يعدو فى نظر سليمان أنه كان خادماً بسيطاً لأبيه، وأن تعيينه كان بواسطة والده وهو لم يكن مسنوداً من الحكومة، ولم تكن حداثة سن سليمان فى ذلك الوقت لتسعفه بالحكمة والتصرف

(١) الرواية التى حكى بها غردون القصة فى ذلك الوقت، وإن كانت تختلف جداً فى روحها، إلا أنها تدعم وتؤيد من حيث حقائقها الرئيسية الواقعة.

العاقل الرشيد فى سلوكه، وبما أنه كان قد سبق له أن أكد لغردون الثقة والإيمان به، فقد كان عليه أن يعلم بعد كشفه لحالة الفوضى وتعرضه للمصاعب فى "ماندقبا"، لم يكن من المفروض عليه أو المطلوب منه أن يقوم بمحاولة إيجاد الحل لها وأن يتصدى لها وحده وبمفرده... كان عليه أن يطرح الأمر كله أمام غردون ويقول له.. "أتنصحنى الآن بما يجب على أن أعمله" ولو خطر له أن يسأله، لبادر غردون بمساعدته، ولوضع "أدريس ابتر" فى مكانه، ولانتهى الأمر كله بما هو خير، لقد كان مع سليمان إثنا عشر من أبناء عمومته كمستشارين، ولو كانوا أولئك عقلاء بحق لنصحوه ولبعثوا به إلى غردون، ولكنهم لم يكن لهم أى عقل راجح، ولهذا سلك سليمان مسلك الطفل الذى لا يفهم مشاكل الحياة".

نصح مستشارو غردون له بتعيين "أدريس ابتر" مديراً للنيل الأبيض ووضع ٢٠٠٠ جندى تحت إمرته، توجه بهم لقتال الصبى اليافع، وعند سماع سليمان بذلك كتب إلى غردون يقول: "إن ذلك الرجل خادم سىء السيرة والسلوك من خدم أبى.. وإنه كذاب وخطير ومتفسخ فاسق، وإنى قد لمته على سوء سلوكه وبشاعة أعماله ففر إليك.. والآن، تضع خادمى فوقى؟ إنى لن أستطيع، لما فى ذلك من فضيحة ومن عار، أن أخضع له، فأبعث إذا شئت بأى رجل غيره.. حتى وإن يكن تركيا أو أوربياً وسأقبل به.. لكننى لن أفعل ذلك أبداً لخادمى." وقبل أن يتسلم "سليمان" أى رد على رسالته قام "ادريس" بشن الهجوم عليه وحارب وانتصر سليمان وقتل عدداً كبيراً، وفر ادريس ناجياً بنفسه وأبحر عائداً إلى الخرطوم حيث قام بعرض شكواه، ورفع تقريره لغردون.

أعاد الباشا سرد هاته الظروف مكرراً لها مرتين بتفصيل دقيق وباستفاضه قائلاً لى: "إن ما أريد منك أن تفهميه جيداً هو أن تعرفى أن مقتل ابنى كان بسبب خيانة خادم شرير أثيم." وغضب غردون عند سماعه نبأ هزيمة ادريس ابتر وبعث "(بجسى) Gessci"ليتولى كسر شوكة سليمان وإخضاعه بالتسليم وفى نفس الوقت وجه غردون للزبير كتاباً يطلب فيه إنجاز ما كان قد قطعه له من وعد ولمساعدته بما له من نفوذ. فبعث الزبير ببرقية لابنه سليمان يقول له فيها... "لا أريد منك أن تقاتل... فسلم لجسى." وكان لابد لتلك البرقية أن ترسل أولاً إلى الخرطوم ليقوم غردون بتوصيلها. ووصلت البرقية إلى غردون وقام بتوجيهها إلى من أرسلت إليه، ولكن القتال كان قد نشب آنذاك.

صمد سليمان فى وجه جسى طيلة ٥ شهور كامله. وقال أبوه فى شىء من الزهو والغبطة والافتخار الأبوى الظاهر "إن عمره لم يكن قد تجاوز الـ ١٦ سنة بعد.." لكنه على حداثة سنه أمكنه أن يجعل كل تلك الأورط (الوحدات المقاتلة) بقائدها الأوربى فى وضع حرج اضطر معه إلى الدفاع عن نفسه بإستماتة وبضراوة. وعند وصول برقية الزبير لسليمان، كما عرف الزبير بذلك فيما بعد، نصحه أعمامه بأن يسلم ولكن دمه كان ثائراً وفائراً وكان فخوراً ومزهواً شأن من كان فى مثل سنه الطفولى بما أحرزه من انتصاراته الأولى السابقة. وقال لهم "لا.. فإننا لو سلمنا الآن فسنقتل كلنا جميعاً لا محالة عن بكرة أبينا". وقرّ رأيه على إيفاد رسل منه إلى غردون الذى كان وقتها فى "شكا" راجياً منه مرة أخرى إرسال أى شخص آخر يراه بخلاف "ادريس ابتر" ليتولى استلام المكان، ومعرباً له عن التزامه فى تلك الحاله بالتسليم الفورى.(١) حمل تلك الرسالة تسعة رجال قاموا بنقلها لغردون ملتمسين منه أن يعين شخصاً أخر بخلاف ادريس ابتر ليكون مديراً، ونما الخبر إلي "جسى" الذى سارع بالكتابة إلى غردون ينبئه فيها بأن أولئك الرجال التسعة الذين قدموا إليه ماهم إلا جواسيس. وصدّق غردون مقال عضده ومعاونه الشخصى، فتم إعدامهم جميعاً كجواسيس، وبلغت أنباء ذلك سليمان، فأعاد أعمامه الكرة عليه بأن يسلم ويلقى السلاح ولكنه لم يوافق على ذلك، واوفد بعثة ثانيه إلى غردون لتلقى نفس مصير التى سبقتها. فى هذه الأثناء تمكن "جسى" من أن يحرز عدداً من الانتصارات، واستمر أعمام سليمان يحثونه بالحاح ليلقى بأسلحته إلى أن تمت هزيمته أخيراً وأخذ على حين غرة فى "دارا" فاستسلم، وأرسل فى طلب "جسى" الذى أعطى وعداً قاطعاً على أن يترك سليمان وأقرباءه أحراراً وتم تخلى سليمان عن جنوده، وتم القسم بحلف اليمين على السلام، وبقى السجناء مقيمين مع "جسى" فى سكنه يتعايشون بحالة ودية معه طيلة خمسة أيام، كانوا يتناولون أثناءها طعامهم على مائدة واحدة... ولكنه وفي اليوم الخامس تم فصلهم وحدهم، وجمع سليمان وأعمامه تحت ظل شجرة وتحدث اليهم "جسى" فى لطف شديد قائلاً: "والآن فتشاوروا معاً وأخبرونى بكل ما سوف تحتاجون إليه لسفركم." وكان جنود "جسى" يحيطون بتلك الشجرة من جميع جهاتها.. ثم تركهم "جسى" ومشى بعيداً عنهم ولم تمض أكثر من خمس دقائق على ذلك حتى كان

(١) ورد ذكر لإيفاد هذه البعثة فى خطابات غردون.

الأعمام الأثنا عشر والصبي في عداد الموتى بعد أن أطلق عليهم الرصاص بأمره.(١)

وصف الزبير "جسي" بأنه رجل ضعيف ومسكين وبسيط، ووصمه بأنه لم تكن له أية دراية أو معرفه بشرف الملوك، وأضاف بأنه لا أحد من عظماء الرجال، ولا أي حكومة مثل حكومة الإنجليز، تود أو تتمنى أن تتصرف كتصرفه. وقال لي "تذكري أياً من تلك الحروب التي تعرفينها، فعندما تحارب الفرنسيون والبروسيون معاً أعاد البروسيون أسراهم بكل شرف وكرامة، وكذلك بعد الحرب الروسية التركية أعاد الروس أسراهم، وعندما حارب الفرنسيون في أفريقيا فإنهم أوفوا بكلمتهم وبعهدهم للثائر "عبد القادر"، بل وحتى أنا نفسي، عندما وقع في قبضتي "موتو" الذي قتل إبن عمي فإنني لم أفعل معه إلا ذلك، لا... لا أصدق أن غردون هو الذي أمر بقتل إبني خيانه وغدراً، أما "جسي" فقد قام بجمع ثروات ومغانم كثيرة ذهب بعدها إلى السويس حيث قضى نحبه، والله سبحانه هو الولي الحكم العدل ليصدر حكمه الآن عليه."

سمع غردون بأني غاضب ومستاء بسبب مقتل إبني، وفي طريقه للخرطوم للمرة الثالثة، تقابلنا بحضور سيرأيفلن بيرنق ونوبار باشا والمترجمين. وقال لي غردون: "لقد كتبت إلى إبنك تأمره بالقتال." فقلت له: "لا ليس ذلك بصحيح، ولو كنت فعلت لكنت أنا الذي قتلت ولدي إذاً، لكني لم أفعل." وقال لي غردون: "سمعت بأنك غاضب جداً .. ولكن بعد المكاشفه والمصارحه فيما بيننا أصبح كل شئ واضحاً، ويمكن لكل من كانوا حاضرين أن يحدثوك عنه بمثل ما تحدثت به..، فتدخل وسطاء السوء، وحكايات "ادريس ابتر" المحبوكه والمختلقة عني، والتقارير التي كانت تشكك في ازدواجية مواقفي والتي نسبت إليّ المخادعة والنفاق وغيرها، كلها قد تم توضيحها. وقال لي غردون "إنني آسف جداً على مقتل أبنك" فأجبته بقولي: " أنني كنت قد أعطيتك أنت أبني، وعندما أعطيته لك، أعطيتك أيضاً حق حياته وحق موته، لكنني لا أحمّلك أنت شخصياً مسؤولية قتله، فأنا أعلم بأن سياسة الإنجليز و "جسي"، هما اللذان قتلاه وليس أنت". بعد ذلك تصافحنا

---

(١) إنني بالطبع مطلعة وعليمة بالنص الرسمي لرواية هاته القصة، سأورد قول الزبير كما تفوه به، ومما يجب أن يذكر أن ذلك قد وصل إليه عن طريق التبليغ، وأنه لمن المحتمل أن يكون ذلك مجافياً للحقيقة وبعيداً عن الصحة، لكنه يمثل ما يعتقده هو وكثيرون غيره من الأهالي بدون أي شك، وقد قصّ عليّ الحكاية مرتين تخللتهما فترة طويلة جداً، وقد قمت بتدوين ذلك عن كلتا الحالتين في حينهما، وعندما قمت بمقارنتهما فيما بعد، وجدت أنهما يتطابقان تماماً.

وعدنا أصدقاء، فمن جانبي برأت غردون من خطيئة مقتل ابني، ومن الجانب الآخر فقد اعترف غردون وسلّم لي بأني لم أكن خائناً فيما عملت. وطلبت منه أن يرجع إلى شعب الخرطوم العظيم الذين عرفوني وإلى أسرتي، وعندما ذهب إلى هناك مرة أخرى، تبين له صحة كل ما حدثته عنه، وزال وتبدد كل ما كان عالقاً بيننا. ومع أنه كان ضدي فأنا أعرف أن غردون هو رجل عظيم وطيب، وكنت أحترم سلوكه وأخلاقه، ولو أنه عاش لعددته من خيرة أصدقائي الأعزاء المنتقين.

سألني الزبير إن كنت أود أن أعرف شيئا أو أريد أن أعلم من الذي قتل غردون؟ ثم أجاب بقوله: "أنا سأخبرك بذلك، "في بداية حرب الإنجليز لمصر، جاءني ثلاثة جنرالات كان السير أفلن بيرنق أحدهم، وأوضحت لهم أن اللجوء إلى الحرب خطأ كبير، وأن كل ما ينجم عنه إنما هو تخريب للبلدان وتدميرها، وتخويف الناس وترويعهم، الذين سيثورون، بل ومن المحتمل أن يقوموا بذبح غردون قبل الوصول إليه، إذا صدقتموني فأتركوا لي أن أقوم بتدبير هذا الأمر ليتم بدون إراقة دماء. إن عائلتي وأطفالي موجودون معي هنا فاحتفظوا بهم كرهائن ودعوني أذهب إلى هناك، ولن أطلب منكم أي عون مالي، بل سأذهب على نفقتي وعلى حسابي الخاص، وسأذهب وحدي وبمفردي ولن يقع بينكم وبين السودان دم وسأتعهد بأن أعيد غردون بسلام.. وإذا ظهر أنني لم أكن أميناً وصادقاً في كل شيء، فلكم أن تفعلوا بي وبأسرتي ما تشاءون". تقدمت بذلك الطلب وكررته خمس مرات بكل المحاولات الممكنه حاثاً لهم على قبوله لأنني كنت أوقن بأن السير بالجيش إلى السودان أمر لا يفيد، لكنهم لم يصدقوني وظنوا بي الظنون وبأني أضمر شراً فأعرضوا وأشاحوا بوجوههم عني. وفي ذلك الوقت كان بوسعي أن أقوم بإنجاز كل ما وعدتهم به. وكان غردون يريد أن أرسل له في الخرطوم، وما كنت أريد أن أذهب، ولو أني ذهبت لعاد غردون إلى بلده سالماً. إذاً فمن الذي قتل غردون؟! إنهم ليسوا السودانيين بل أن من قتله هم الإنجليز الذين مانعوا في أرسال الصديق الذي طلبه، نعم... قتله الإنجليز. ولكن لماذا؟ لأنهم كانوا كالأطفال جهلاء جبناء خايفين لا يصغون إلا للشر.(١)

عزا الزبير إلى اختلاقات "ادريس ابتر" وإلى أختراعاته، معظم ماروى من الأقاصيص المعروفة لدى كل من قرأ النصوص الإنجليزية وصدّقها، وكان كلما ذكر

---

(١) يمكن الرجوع إلى الرسائل بالصفحات ٧١، ٧٢، ١٢٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٥ "تحت مصر رقم ١٢ سنة ١٨٨٤."

أو عُرض عليه شيء منها يصرفه رافضاً ومستنكراً له بهز رأسه ويقول "إنها واحدة من مفتريات "ادريس ابتر" التى لا نهاية لها." لكنه كان يدخل حيناً في سرد مفصل لتلك التناقضات، فعندما أخبرته عن الخطاب الذى شجع فيه ابنه سليمان على التمرد، والذى تروى التقارير بوجه عام أنه وجد ضمن أوراق سليمان، نفى ذلك بشدة نفياً باتاً وقال: "إننى لم أقم بكتابة ذلك الخطاب إطلاقاً، ولو كان ذلك الخطاب موجوداً بالفعل، فلماذا لم يحضروه لى أو يطلعونى عليه وجهاً لوجه لاقول أننى قد فعلت ذلك الشيء أو لم أفعله؟ وإذا كان مثل ذلك الخطاب موجوداً بإيديهم وكنت قد وقّعت عليه وأمضيته باسمى، لكان عندهم الدليل القاطع على خيانتى، وهو كل ما كان مطلوباً لإدانتى وللحكم علىّ بالموت، الحقيقة أنه لم يكن هناك أى وجود لمثل ذلك الخطاب وإنما كان كل ذلك مجرد تزوير وتزييف ومحض إختلاقات حاكها أعدائى... إما بخطاب مزور كاذب حُرر قصداً خصيصاً من أجل ذلك الغرض، أو عدم وجود أى خطاب في الحقيقة أصلاً، وبإستماعه لرواية "جسى" عن الحاله السيئة والمتردية التى ذكر أنه وجد مديرية النيل الأبيض عليها، رد الباشا على ذلك بقوله بأنها لم تكن هى كذلك على أيامه وفى زمانه، وأنه ليس مسؤولاً عن نتائج وعقابيل حكم ادريس ابتر السيئة.(١)

عند مغادرته لدارفور فى حوالى نهاية عام ١٨٧٥، سافر الزبير إلى مصر تواً دون الرجوع إلى "ماندقبا" واصطحب معه ألف جندى بأسلحتهم وخمسة وسبعين من أبناء الملوك والزعماء بغرض تقديم هؤلاء الأخيرين للخديدى وتعريفه بهم، ولمنحهم فرصة مشاهدة القاهرة المتمدنة والدراسة والتعرف على نمط الحياة فيها، كما اصطحب معه هداياثمينة أخرى للخديوى، من بينها مائة فرس وأربعة أسود ونمرين وأربع ببغاوات. وكان الزبير يقابل فى طريق رحلته بكل مظاهر التجلة والاحترام فكسيت المدن التى مر عليها بالزينات، وخرج ولاتها لاستقباله فيها، وقال الزبير عن ذلك وهو يبتسم ويلوح بيده: "بأنها كانت كلها "هيصه".. "كذابة، ودوشة وكلام فارغ بجميع أشكاله والوانه ومظاهره المتعدده." وهذه كما قال "هى

(١) من الظلم اعتبار الزبير باشا مسؤولاً عن الحالة التى وجد عليها غردون دارفور عندما كان إسماعيل أيوب حاكماً عليها، أو الحالة التى وجد عليها "جسى" بحر الغزال تحت حكم إدريس ابتر: ومما يجب أن يكون مذكوراً أن كلا هذين الرجلين كانا خصوماً منافسين له، كما كان أحدهما يناصبه العداء السافر، وكانت آراؤهما عكس آرائه تماماً، وإنه بسبب ما فعلته الحكومة المصرية من احتجاز للزبير فى القاهرة، أمكن لهما أن يظفرا بالفوز والانتصار عليه.

أمور لا يأبه أو يهتم بها إطلاقاً."

واستقبله الخديوى إسماعيل بكل ما يستحقه من أنواع الحفاوة والتشريف والتكريم، ومنحه قصراً، وأجرى عليه سبعمائه وخمسين جنيها شهرياً لضيافته. ولكن لم يكن ذهاب الزبير من أجل أن يكرّم أو أن يُحتفى بإستضافته بالتشريفات وبعقد المهرجانات. وإنما كان كل مقصده هو أن يقوم بعرض حقيقة الأوضاع وواقع الأحوال فى دارفور على الخديوى، وأن يحصل على وعد منه بالمساعدة والدعم من الحكومة المصرية لتحقيق إدارة حسنة وحكم صحيح لتلك المديرية. لكن كل محاولاته من أجل ذلك قد ذهبت سدى، فقد كان الخديوى يلتقى به فى المناسبات ويتحدث إليه حديثاً لطيفاً طيباً حول الموضوعات العامة، أما عندما يجئ التماس الإذن بالمقابلات التى يراد أن تبحث فيها مسائل الشغل الجادة، فقد كانت تقابل بالمماطلة وبالتسويف. وكان رد الخديوى عليها دائماً وأبدا هو قوله: "غداً أو لندع ذلك لباكر".

وإخيراً وبعد إنتظار خمسة شهور بطولها أذن الخديوى بمنح المقابلة المطلوبة، وبدل أن يستمع فيها لما عند الزبير من تقارير، قال له الخديوى بكل صراحة ووضوح: "إنه لا لزوم ولا فائدة لان نتحدث معاً أبداً... فأنا أعرف إنك رجل مقتدر... وأنا واثق من أنك ستحكم دارفور حكماً جيداً.. ولكنى.. وبكل صراحة.. أنا خايف منك.. فقد جعلت نفسك قوياً جداً، وإنى لأخشى إذا أعطيتك السلطة التى تريد، أن تؤسس إمبراطورية فى دارفور تنافس بها، بل وربما تخضع لها مصر ذاتها.. فمصر ليست قوية للحد الذى تحتمل معه وجود جيران لهم مثل ما لك من قوة... ولذلك فعليك أن توطّن نفسك على أن تعيش معى هنا فى القاهرة، وساكفل لك معاملة كريمة حسنة، وستكون لك الحرية الكاملة المطلقة... فقط، إنه لن يسمح لك بالعودة إلى السودان مرة أخرى."

وصدع الزبير للأمر ولكن على مضض. وكانت تلك هى نهاية عمله فى تلك الأقطار البدائية الموحشة،... وربما كانت سهولة التواجد المريح، والبقاء، والرفقة الكريمة الأنيسة، وحوافز ونوازع توجيه السلطة، والنفوذ إلى قلب وصميم الحياة السياسية للبلد بدلاً عن أطرافها، قد تضافرت كلها لتستميله ولتسترضيه ولتروضه خلال احتجازه فى القاهرة. وقد حدثنى بالكثير الممتع مما يتعلق بحياته هناك، ولكن القصة التى أخترت لنفسى أن أقوم بروايتها تنتهى بوصول الباشا إلى تلك العاصمة.

لم يكتب للزبير أن يعاود الزيارة مرة ثانية ليرى مسرح مجاهداته ومعاناته

السابقة أبداً... لكن تكهناته عن نتائج النظام التركى للحكم قد أثبتت صحتها، إذ فقدت مصر السودان..

وسألته ذات مرة.. "لو إنك كنت حراً الآن لتذهب لتلك البلاد لتحكمها، فماذا ترى أنت فاعل؟"

فرد عليّ بقوله: "لا تطلبى منى أن أتحدث حديثاً إفتراضياً تافهاً لا جدوى منه، لمجرد التسلية وتزجية الفراغ، فلو إنك وجهت إلىّ هذا السؤال قبل إثنى عشرة أو ثلاثة عشرة سنة خلت لأجبتك.. أما الآن فقد فقدت كل اتصال بالبلد، ولست أدرى ما هو حال أهلي وأسرتى الذين يقيمون على مقربة من الخرطوم وماذا يصنعون؟ بل أن معرفتى بما هو حادث في الأقاليم النائية التى تقع فى جهات الجنوب والغرب هى أقل منها بكثير، ولو قدّر لى أن أذهب إلي تلك البلاد فسأبدا بزيارة هادئة لأهلي ولأسرتى اولاً حيث أتملى فى الأمور ثم أسافر بعدها كتاجر عادى أو كحاج أو زائر لاتحدث إلى الناس، ولأستطلعهم، ولاقف على جميع الأحوال والأوضاع، وبهذه الطريقة أستطيع أن أجرى حكماً عاماً على الأشياء وعلى مدى قدرتى وقوتى وإستعدادى، بعد ذلك ربما يمكن لى أن أعود لأخبرك بما يمكن عمله.

ولكن لو فرض أن عرضت عليّ فرنسا أو إنجلترا الآن عدداً من الملايين لاذهب إلى تلك البلاد ولأعمل على إستقرارها فلن أقبل ذلك، ولو قبلت، لكان عملى هذا بعيداً عن مقتضيات الأمانة. ذلك لأنى أجهل الآن كل شيء عن أحوالها، ولكننى أتمنى فقط.. فإذا رجعت فإنى آمل أن أجد فيها رجالا كثيرين من ذوى الوعى والفهم والإدراك الصحيح، وسأحاول أن أعيد اليها النظام عن طريق التفهم والإدراك الحسن والرآى السديد المتوفر فيها. ولكن لأن آخذ الآن مالاً كوفاء لأى نذر أو لعهد محدد، فإن ذلك سيكون أمراً مستحيلا.

إننى لست بالأنانى ولا بالرجل المتطلع الطموح، وإن كل ما أريده هو أن التزم بالصدق ابداً، وأن أقوم بأداء العمل الطيب وأن أفعل الخير. وأنا أهتم وأحرص كل الحرص على اسمى وعلى سمعتى، وعندما كنت فى القاهرة زين لى كثير من أصدقائى أن أفر وأهرب إلى الصحراء ولم أكن وقتها محتجزاً أو مصفداً بالأغلال أو محتجزاً خلف وداخل أسوار القضبان الحديدية أو محاطاً بالحراس، بل كنت طليقاً حراً إذا أردت السفر. لكن لم يمنعنى من ذلك شيء سوى الحفاظ على اسمى. إننى لم أقم باى عمل خطأ، ولو هربت للطخت ولمرغت اسم الزبير وشرفه وسمعته وكرامته فى الرغام، ولقد حافظت واحتفظت باسمى ليظل طاهراً ونقياً حتى الآن، وأريد أن أحتفظ به نظيفاً إلى النهاية وإلى الأبد، حتى يقال عنى فيما بعد، بأن

الزبير كان رجلاً وعاش رجلاً حتى مات."

كانت تلك على ما أذكر هي نفس المناسبة التي رافقني فيها الباشا حتى البوابة الخارجية للدار، عندما إستأذنته في الإنصراف للتوديع، فقد وقفنا نتحدث، وبينما كان الحارس يحاول فتح الباب، سقطت إحدى الأسياخ الثقيلة للمزلاج على أرض الاسفلت محدثة صوتاً مدوياً عالياً فزعت منه وأرتعدت له فرائصي في عصبية ظاهرة من أثر المفاجأة، وعندما لاحظ الباشا عليَّ ذلك قال لي بكل بساطة ورقة ولطف "لا تظني إنني أشعر باي أسى أو أسف أو امتعاض... فأنا راض كل الرضا بما أنافيه".

وكثيراً ما تحدثنا عن الإنجليز الذين حصل الباشا -في غضون سنتين من الإتصال اللصيق بهم- على قدر كاف من المعرفة بهم، فقد أحبهم وأعجب بهم كثيراً. وكان يُكبر ويقدِّر بشكل خاص نزاهة الموظفين الإنجليز وعفَّتهم ،، وقد أعرب لي عن بالغ سروره بأن يعرف الإنجليز، بدورهم، بعض الشيء عن تاريخه هو. وإني لأجد من العسير عليّ أن أنهي هذا الجزء من ذلك التاريخ بأفضل من أن أورد، وكتقييم تقديري وتجريبي فقط، كيف أن أنباء الأفراج عنه (التي أعلن عنها بعد أن أخذت هاته المذكرات شكلها)، قد عكست ونالت كل هذا الأهتمام، وكان لها كل ذلك الوقع السار في نفوسهم.

كان ماقاله لي الزبير ذات مرة وفي يوم من الأيام: "إنني، وبحسب ما لدي من معرفة بالإنجليز، فأني أقيّمهم بأنهم شعب مغرق في الجهالة، ولكنهم مع ذلك، شعب يملك من الميل الطبيعي والتوجه الفطري القوي نحو العدالة، ما يجعلهم عندما يعرفون ويلمون بالحقائق، ممن يمكن أن يوثق بهم، وبكل تأكيد، لأن يتوخوا في تصرفاتهم، وأن يلتزموا في كل ما يصدر عنهم من عمل، جادة الحق ومحجة الصواب".

(النهاية)

(فلورا شو)



الجـــــــزء الثاني

سجل موجز لسيرة حياة الزبير

في تسلسل زمني من سنة مولده إلى عام وفاته

سجل تاريخي لسيرة الزبير باشا

١٨٣١م: ولد بجزيرة "واوسى" القريبة من الجيلى فى ٨ يوليو ١٨٣١م الموافق ١٧ محرم ١٢٤٦هـ وتعلم بخلوة "ابوقرين" ثم بكتاب الخرطوم فيما ترويه بعض المصادر. فحفظ القرآن وتفقه على مذهب الإمام مالك.

١٨٥٥م: عقد قرانه بأول زوجاته السيدة عائشة بنت محمد منصور (والدة سليمان) وتزوج بعدها الست زينب بنت منصور بالجيلى.

١٨٥٦م: لحق بإبن عمه عبد القادر الذى كان يعمل فى خدمة التاجر (على أبوعمورى) عندما علم بأنه سيتوجه إلى "بحّارة" ليثنيه عن الاغتراب. ولكن إبن عمه كان مُصراً على الذهاب، فحاول أن يرد الزبير من حيث أتى، ولكن الزبير حلف له بالطلاق إما أن يعودا معاً أو أن يسافرا معاً . وكان الزبير قد أدرك القافلة فى "ود شلعى" فواصلا سفرهما معاً، وكانت تلك هى أولى رحلاته التجارية لبحر الغزال فى ١٤ سبتمبر ١٨٥٦م ولم يتجاوز عمره آنذاك الخامسة والعشرين عاماً.

١٨٥٧م: بقى الزبير بقية العام وطيلة العام الذى يليه بعيداً، دائم التنقل والترحال. خلّفه (أبوعمورى) وكيلاً عنه فى معسكره بعد أن بلاه وخَبره وعجم عوده، وبعدما شهد من أمانته وحسن تدبيره للأمور وما رآه من شجاعته فى رد الغارات التى كانت تعترض طريقهم، فجعل له عُشر ما يقوم بجمعه من العاج ملكاً سائغاً له. وحين عودته وشهود ما أحرزه من نجاح فى التجارة، عرض عليه المشاركة.

١٨٥٨م: عاد الزبير إلى الخرطوم بما غنمه من تجارة رابحة، وانفرد بعدها يكابد ويجاهد ويعمل لحسابه الخاص.

١٨٥٩م: واصل الزبير التجارة مع ابن عمه "عبد الرحمن" هذه المرة بين بحر الغزال ومشرع الرق والخرطوم، وكانت التجارة فى السن والريش والخرتيت، مقايضة بالودع والخرز والقصدير والدمور، وكان من بين من عمل معه تحت إمرته آنذاك النور عنقره. وصل الزبير إلى بلاد النمانم آكلة لحوم البشر وتزوج بابنة سلطانهم "تكمة بن زنقابور" المدعوة "رانبوه" وكان موقع الزبير فى بلاط ملكهم

"تكمة" أشبه بمنزلة سيدنا يوسف لدى فرعون .. وظل يتمتع بحظوة كبيرة خصوصاً بعد بلائه الحسن فى حروبه ضد جاره "مريسه" وإنقاذه لحياته ببسالة نادرة جرح أثناءها، فكان تزويجه بأبنته اعترافاً بالفضل والمنة ورداً للجميل

١٨٦٣م: عاد الزبير بكل ما جمعه من بضائع قاصداً الخرطوم فى قاربين محملين، وكانت رحلة مليئة بالمخاطر، اعترضتهم فيها بحيرة ضلوا الطريق فى النهر بعدها طويلاً، إلى أن ألقت مراكبهم مراسيها فى جزيرة على مقربة من "حفرة النحاس" جنوبى بحر العرب، كان ملكها يدعى "كوريام" حاول أن يغدر بهم أولاً ليسلبهم ما يحملون. ولكن غدره انقلب إعجاباً عندما شاهد بسالة الزبير وأدهشته براعته فى إصابة الهدف وتسديد الرمى، فكان به وبرفاقه براً حفياً، وقدم له هو الآخر ابنته لتكون زوجة له كما فعل معه (تكمة) من قبل ولكنه لم يدخل بها متعللاً بضرورة التقيد بمراسم الشريعة الإسلامية من عقد وشهود ومهر وإحضار الهدايا، وهكذا أفلح فى التخلص منهم واللحاق بجماعته ونجدتهم فى مراكبهم بالمؤونة. والتقوا بعد ذلك بالتاجر عبد الرحمن أبو قرون، ثم استمرت الرحلة شاقة حتى "مشرع الرق" التى أقلعوا منها ليصلوا إلى الخرطوم فى أواخر العام بعد أحد عشر شهر وخمسة وعشرين يوماً.

١٨٦٤م: لم يلبث الزبير أن عاد أدراجه بعد مضى ثلاثة أشهر إلى بلاد النيام نيام فوصلها فى ١٨٦٤/٧/٤م وهو ملئ بالثقة يسير صعداً فى طريق العظماء. ثم التقى مرة أخرى بعد ذلك بالملك (تكمة) ومعه ابنته "رانبوه" التى سبق له أن تزوجها.

١٨٦٥م: كانت سنة مواجهات ومتاعب مع الملوك المحليين (تكمة) و"دوبة" وغيرهم، كما كانت سنة مجابهات حربية انتصر فيها الزبير عليهم فى النهاية، فدان له الإقليم بأكمله حتى بحر العرب ونشر عليهم سلطانه، واتخذ "بايه" ديم الزبير عاصمة له.

كانت الطرق بين "ماندقبا" (قصبة ملك الزبير) وبين كردفان تمور بحوادث النهب والسلب وقطع الطريق على القوافل من قبل المغيرين وخاصة من الرزيقات قرب (طويشه). وبتوسع التجارة ونمائها ازدادت الحاجة إلى تطهير عدد أكبر من الطرق عبر كردفان وبعث الزبير رسلاً من قبله مزودين بالهدايا والتحف لمشايخ

قبيلة الرزيقات طالباً منهم اللقاء معه لإبرام حلف لاتفاق بينهما يقومون بمقتضاه بتأمين سير القوافل لما في ذلك من مصلحة له وللتجار معاً على أن يتعهد الزبير بفرض مكوس (رسوم) على تلك القوافل حسب ما تحمله من سلع، يقوم الزبير بدفعها إليهم بصفة منتظمة ودائمة التوقيت، مما قبلوا به وأعطوا عليه المواثيق وأقسموا على المصحف. واستمر تنفيذ ذلك الاتفاق لمدة أربع سنوات نشطت خلالها التجارة ومضت القوافل تواصل سيرها تحمل السلع من سوريا وطرابلس وتونس ومراكش.

١٨٦٦م: عقد محالفة مع مشايخ الرزيقات لفتح طريق "شكة" للتجارة ودارفور ووقع معهم معاهدة مقابل رسم مقرر يتقاضونه منه.

١٨٦٧م: صار أقوى شخصية في المنطقة وبسط سيطرته على بلاد الفرتيت وجميع بحر الغزال حيث كان له نفوذ محلي عريض، وأنعم عليه الخديوي بالمرتبة الثانية وبلقب بك وعمره آنذاك ستة وثلاثين سنة.

١٨٦٩م: تم لقاؤه بالحاج البلالي في (مشرع الرق) عنما جاء الأخير مبعوثاً من الحكمدار لاستغلال مناجم النحاس فيها كذريعة لدعواه، وليستطلع الأحوال توطئة لتولية الحكم كما بدا للزبير. وما لبثت الخلافات أن دبت بين الرجلين حتى أدت إلى القتال والحرب.

وتدخل الحكمدار جعفر باشا مقترحاً تقسيم الاختصاصات والرقعة بينهما فلم يفلح، وشن الزبير هجماته على البلالي في معارك شرسة أحرز فيها الانتصار عليه ولاحقه مطارداً له حتى قتله. وكان جيش الزبير آنذاك قوامه أثنا عشر ألف مقاتل، واشرك معه من قواده النور عنقره و(حامد ود مزمل) وسجل شاعر الزبير "أبو شوره" تلك المعارك التي حمي فيها الوطيس وخلد انتصاراته بقوله:-

"دقنك دقن الرجال ما هي الدقينة أم طوطة
في اليوم أبْ حربٍ سنّك تفره مبسوطة
بوارق عنقره وحامد وراك مفروطة
سكيِّت البلالي لا من وقع في البوطة"(١)

---

(١) البوطة: المستنقع.

وكان الزبير قد أصيب برصاصة فى ساقه فى إحدى تلك المعارك.

١٨٧٢م: استمرت حروبه ثلاثة عشر شهراً وانتهت بقتل السلطان وانتصار الزبير عليه، فدان له بالطاعة بعدها ثمانية من كبار ملوك النيام نيام، وكتب للحكمدار ليرسل ممثلاً للحكومة ليتولى الحكم باسم الخديوى.

١٨٧٣م: بدأ مناداته لمشايخ الرزيقات عند نقضهم للمعاهدة معه، وكاتب السلطان إبراهيم "وعمه الأمير حسب الله مطالباً بتسليم (منزل) و(عليان) إليه بعد التجائهم، وكانت الحرب التى أشارت إليها شاعرته وهى تحرضه على قتال السلطان إبراهيم وزعماء الرزيقات بقولها:

جنّكْ تلات ورقات جيب ردّهن
صقور الجو حلّقن قوم غدّهن
يا مقنع الكاشفات لاحدّهن

دحر الزبير السلطان إبراهيم فى موقعة "منواش الكبرى" والتى قتل فيها السلطان، وتم بذلك للزبير فتح دارفور، ودخل الفاشر منتصراً فى ٢٢ رمضان الموافق ١٨٧٤/١١/٣م أى قبل خمسة أيام فقط من وصول إسماعيل أيوب لها، وولاه الخديوى أمر البلاد، وأنعم عليه برتبة اللواء، وفرض عليه جزية مقدارها ١٥٠٠٠ جنيهاً. وقد أبلى الزبير فى حروبه مع الفور بلاءاً تحدثت به الركبان خاصة فى موقعة كبكابية التى سجل شاعره انتصاراته فيهابقوله:

كبكبية قام بجنوده طاهـا
جميع أرض الملوك الحُر وطاهـا
عريس التَرْتَرَتْ عدلت قفاهـا
قبل ساعتين عنُف حدباى لواها

وفى معركة جبل مرة، ذلك الحصن المنيع والمعقل الأشب من بعدها، مجّده شاعره بقوله:

جبل مرة فارس مابجيهُ
دخلو الزبير يقدل مشيهُ
جميع الفارس الكان يبتليه
مرق فوقه الغضنفر وبان جريه

١٨٧٥م: فى هذه السنة تم تعيين غردون حاكماً على الاستوائية، وتوجه الزبير بعد فتحه دارفور لودّاى وديار برنو، لكنه لم يتوغل فيها وهى التى أتم فتحها رابح(١) فيما بعد حتى شاد .. وأطلق عليها اسم "انجمينا" بعد أن "انجم فيها" من تعبه.

بلغت اختلافات الزبير مع الحكمدار ذروتها بسبب ما أحسه الزبير من أن الحكمدار يعمل على حرمانه من ثمرة انتصاراته بالدس وبالتشكيك لإثارة الخديوى ضده، فعقد الزبير العزم على الذهاب إلى المحروسة.(مصر) بنفسه ليعمل على تلافى الموقف وليبدد الشكوك والمخاوف التى أثارتها فتوحاته الكبيرة والسريعة لدى المسؤولين فى القاهرة، القائلة بأنه ينوى إقامة حكم منفصل ينفرد به. وطلب الزبير موافقة الخديوى على السفر فوافق الخديوى برقياً آذناً له بالقدوم "للمفاوضة والتداول لتشكيل حكمدارية يكون الزبير مفوضاً لها" كما تقول بذلك بعض المراجع

وغادر الزبير (دارا) عن طريق الأبيض والخرطوم، وتوقف بالجيلى ثم واصل سفره عن طريق بربر وأبوحمد وصحراء العتمور إلى كرسكو ومنها إلى مصر التى وصلها فى يونيو ١٨٧٥ محملاً بالهدايا النفيسة النادرة التى تمثلت فى ألف

---

(١) فى وثيقة دفع بها إلىّ العم حسن ميسرة الزبير حوت قصة الفونج ورد ما يلى "عن رابح": "أصله من الفونج -استرقته الحكومة المصرية حين دخولها الأول وهو عام ١٠٣٦هـ- بعدها اقتداه رجل من الكلاكلة هو وولده واخوانه -والرجل قيل أنه محسى- وبعدما كبر الأمير رابح وبلغ أشده أستخدم فى الحكومة المصرية كجندى وهو من العساكر الذين خرجوا على الحكومة بجهة كسلابعد ثورتهم لعدم المرتبات وانتدبت آدم باشا العريفى لكى يخمد هاتيك الثورة فاستمالهم وبعد استيلاء الحكومة على العساكر الجهادية قتلت ثلثهم ورفضت الثلث الثانى واستبقت الثالث وكان رابح من ضمن الأخيرين فى الخدمة وأخيراً رفت فعمل بمقاهى الخرطوم متسكعاً – فوجده الزبير باشا هناك، ولما رآه عليه من دلائل الرجولة وبعد سؤاله وعلمه أنه كان مجاهداً، طلب إليه أن يتبعه ووعده بإكمال الذى أراد.

كما ورد الآتى فى نفس الوثيقة عن "الميرم حوه – "حواء"

"ابنته التى مازالت فى فورت لامي -كل أخوانها ماتوا ولم يبق من ذريتها إلا ابن وابنتان لأخيها ... (كلمة غير مقروءة) قابلها الشيخ سليمان فعلم منها أن محمد ولد له ولد وبنتين تزوج بهما بعض البرنو– والميرم معتقله بلا مرتب وتعيش عيش الكفاف وقفاً على ما يمدها به الجلابة" وبعد مقتل فضل الله الذى ذهب مترجلاً يحمل شمسيته وانطلاق النيران من أتباعه على الفرنسيين على مقربة من دار برنو، تدرّجت الميرم وحزمت أمها على ظهرها وانطلقت تعدو والرصاص كان ينهمر عليها كالمطر." (خليفة)

رجل مقاتل بأسلحتهم، من بينهم خمسة وسبعون من أبناء ملوك وزعماء المناطق التى فتحها بغرض تقديمهم للخديوى وتعريفه بهم، ولمنحهم فرصة مشاهدة القاهرة المتمدينة.

ولقد كان للكثيرين من قومه آراء وتوجسات من مغبة تلك الرحلة. يبدو ذلك مثلاً فى قصيدة شاعرته المشهورة بنت (مسيمس) التى مطلعها:

من قومة الجهل أنت العظيم منصور
أدوك الأمان خايفين عليك الجـــور
فى الخرطـــوم نزل اتدلى بالبابور
وفى بربر رسا بالقـــهوة غــفراً تدور
حلّوله الجـمال اتوجـه ... العتمـــور
حلق الريف نزل قال لى مصر دستور
فى بلد النصارى كم سحت بالبـابور
كل صبحاً جديد راكب على الحنــطور

والتي استرسلت فيها لتقول:
فى السودان قبيل ما يشبهوك الناس
يا جبل الدهب الصافى ماك نحـــاس
بارود انتصار عند غمرة الكبـــاس
خليت المجوس ألْيَنْ من القرطـــاس
عدّى عصره زين فى بلاد الـــناس
وفى دار الغرب دق للرجالة نحـــاس
كم قتّل سلاطين خلى دارها يبـــاس
ود رحمة الزبير تمّ الرجالة خـــلاص

ووصل الزبير إلى القاهرة وقابل الخديوى ورفع إليه الهدايا العينية الجزلة. ولكن لعل أعزها وأعظمها هى تلك الرقعة المديدة التى قام بفتحها والتى تقدر مساحتها بمائة وأربعين ألف ميل مربع أو ما يعادل مساحة فرنسا كلها، التى أضافها لرقعة ملكه.

كان سبب ذلك هو ما كان يدين به الزبير من ولاء لمن ولّى عليهم من قبل سلطان المسلمين، وما صرح به من أن مقصده كان القيام بعرض حقيقة الأحوال فى دارفور على الخديوى ليصحح مفاهيمه وأن يحصل على وعد منه بالمساعدة والدعم لتحقيق

إدارة حسنة وحكم صحيح يتولاه فى تلك المديرية.

١٨٧٦م: الزبير في مصر وقد قوبل مقابلة حسنة ولكنه قد وقع فى الفخ. فتم وضعه فى القفص الذهبى .. فى قصر العباسية أولاً ثم في قصر الجزيرة، وحددت إقامته، وأحيط بجو من الرقابة السرية المنطوية على الريبة والشكوك والدسائس التركية، وقابل الخديوى مطالباً بالعودة إلى السودان لكن طلباته تلك قوبلت بالمماطلة وبالتسويف.

١٨٧٧م: عين غردون حاكماً عاماً للسودان، وفى نفس السنة نشبت الحرب بين روسيا وتركيا، وشاء الله لنجم الزبير أن يلمع من جديد إذ انتدبه الخديوى لمرافقة البعثة العسكرية للنجدة تحت لواء (حسن باشا)، وعهد إليه بقيادة فرقة فأبلى بلاءاً حسناً وخاصة فى موقعة (صارى نصو حلر) فى حرب القرم، وكوفئ بترقيته إلى رتبة فريق وداهم الزبير المرض وهو يقاتل فى أوحال الثلوج وصقيع بلاد البلقان التى لم يألفها، فبعث به إلى اسطمبول للعلاج وقابل بها السلطان عبد الحميد.

١٨٧٨م: عاد الزبير إلى مصر بعد طلب تركيا الصلح وإيقاف العمليات الحربية برفع الحصار عن روسيا.

حوالى هذا العام (١٢٩٥هـ) قام الزبير وهو بمصر بطباعة سيرة الإمام أبى محمد عبد الملك بن هشام على نفقته الخاصة فى مديرية المطبعة والكاغدخان بالمطبعة السنية ببولاق من نسخة أهداها إليه السيد أحمد الحفظى اليمنى من الأستانة وكان عليها الاعتماد فى التصحيح والتحرير والتنقيح وهى الطبعة التى وردت فى الجزء الثالث منها ترجمة للزبير مع نسبه المسلسل فرداً فرداً والمنتهى إلى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم.(١)

١٨٧٩م: شبت ثورة سليمان بن الزبير لأسباب عديدة ولما أحسه من مضايقة بتعيين إدريس أبتر (خادم أبيه) ليخلفه، مما صعب وعز عليه أن يقبله بحال. اتهم غردون الزبير بدفع ابنه سليمان وتحريضه على الثورة والتمرد بخطاب زعم أن الزبير كان قد أرسله إلى ابنه عن طريق (محمد ود آدم)، والحقيقة أن خطاب

---

(١) من كتاب جامع نسب الجعليين – عبد الله محمد الخبير (الدار العالمية للطباعة ١٩٤٢).

الزبير لم يكن محرضاً بل كان ناصحاً، بل ولعله هو الذى جنى على سليمان لأنه عمل بما أشار به أبوه فيه إلى التسليم الذى مكن (جسى) من أن يغدر به ويقتله غيلة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره إذ قضى هو وثمانية من أعمامه نحبهم صرعى الغدر والخيانة فى موقعة (شكا) التى غنت "بنت مسيمس" لسليمان فيها وهى ترثيه ثاكلة نادبة:

كم يا سليمان شدو ليك على المتبور
وايدك يابْ نفل تفعــل قدر ما تدور
كم كمّل عيـــالاً تضبط الكبســـــور
كم كتل عيال فوقها الحـرابة تـــدور

١٨٨٠م: اقترح غردون على الخديوى نفى الزبير باشا إلى جزيرة صقلية بعد أن أجرى له محاكمة غيابية بتهمة تحريض ابنه سليمان على شق عصا الطاعة، قضت المحكمة بإعدامه، وبعث غردون بالحكم للخديوى للتصديق، لكن مجلس الأحكام والنظار فى القاهرة لم يوافق على إجازة أحكام غردون . ولم يقف حقد غردون عند ذاك الحد بل أمر بسجن بعض أهل الزبير وعشيرته ومصادرة أمواله فى السودان.

١٨٨٢م: مازال الزبير بمصر مهموماً مغموماً بعد وصول نبأ محاكمة وسجن أهله ومصادرة أمواله. ولو أن عدم إجازة الخديوى ومجلسه لقرارات غردون كانت قد خففت عليه نوعاً ما ولكنه ظل حبيس القصور، وانتدبت الحكومة المصرية الزبير لحشد آلاى من العسكر السودانيين فى القاهرة ليقوموا لسواكن لتخليصها من "عثمان دقنه" تحت قيادة بيكر ثم لينضم بعدها لقوة النجدة مع الجيش البريطانى فى بربر، ولكن الزبير رفض ذلك ورفض أن يعمل تحت إمرة وقيادة غيره. وعاد من السويس إلى القاهرة.

١٨٨٤م: فى طريق عودته للسودان من لندن التى تمخضت عن انتهاج سياسة الإخلاء، قابل غردون الزبير باشا فى القاهرة مرتين. أولاهما فى منزل (شريف باشا) أحد رؤساء الوزارة السابقين، وثانيتهما مع المندوب السامى (اللورد كرومر)، وعرض غردون على الزبير الاستعانة به فى السودان، ولكن الزبير لم ينس مقتل ابنه سليمان، ولا محاكمة غردون له، ولا اقتراح نفيه، ولا مصادرة أمواله، ولا سجن أقاربه، وبعد حوار ونقاش وعتاب تهادنا وأبديا تصافياً ظاهرياً يشوبه الحذر،

وأصر غردون على ضرورة مرافقة الزبير له للسودان. وتمثل هذه إحدى تقلبات قرارات غردون المشهورة التى تدعو للحيرة والتعجب حقاً. فهاهو الزبير عدوه بالأمس يرى فيه اليوم كل أمله ومبتغاه للإنقاذ، ولم يترك الأمر للرجلين ليبتا فيه، إذ سرعان ما احتدم الجدل السياسى ممتداً إلى أروقة المحافل السياسية العليا فى القاهرة وفى لندن، خصوصاً بعد أن وافق كرومر على اقتراح غردون بعد إعلان سياسة إخلاء السودان، لإحلال الزبير حاكماً عاماً للسودان خلفاً له ونائباً عن الحكومة المصرية. ولكن إنجلترا ممثلة فى حكومة (غلادستون) رفضت الطلب، وقامت صحافة بريطانيا وبرلمانها وجمعية مكافحة الرق ضد الفكرة، ولم يزد كل ذلك غردون إلا تشبثاً وتشدداً وتمسكاً بالزبير الذى كان يرى فيه وحده من يصلح لأن يكون حاكماً عاماً ليخلفه، وتحت تأثير كل هاتيك الضغوط ومعارضة الحكومة والرأى العام الذى ما كان يطيق مثل ذلك التعيين، تلاشت الفكرة رغم تزكية (لورد بيرنق) المندوب السامى، وتأييد "استيوارت"، وقبول الخديوى. وكان رد فعل غردون بعد سماع رفض إنجلترا لتعيين الزبير رداً عنيفاً، دونه فى مذكراته بقوله "إنه سيتصرف حسب الظروف بعد رفضهم إرسال تجريدة. وإنه إذا لم يستطع الصمود فسينسحب لخط الإستواء تاركاً لهم خزى وعار ترك حاميات سنار وكسلا وبربر ودنقلا لمصيرها".

١٨٨٥م: عند استفحال الثورة المهدية ساورت الشكوك غردون حول علاقة الزبير بالمهدى وقويت اتهاماته له بذلك، مما أفضى به إلى القاهرة، فتململت مصر للتهمة وتحركت لتتحقق من الشائعة، وحدث أن حوصر قصر الزبير بالقللى (الذى أهداه إليه الخديوى توفيق سنة ١٨٨٠) وتم تفتيشه دون أن يجدوا فيه شيئاً يدينه.

وفى أثناء صيف ذلك العام عندما كان الزبير يقوم بزيارة للأسكندرية ضيفاً على الشيخ عمر السنوسى فى قصره، وبصحبته عائلته، دخل ضابط بريطانى ليبلغ الزبير بدعوة قبطان السفينة (INDIA) (التى كانت راسية فى ميناء الأسكندرية آنذاك) لتناول الشاى معهم. وذهب الزبير فى الموعد المحدد وتحركت بهم السفينة خلسة والتفت إليه مضيفه القبطان ليقول "يا سعادة الباشا أنت ضيفنا وأسيرنا وسنقودك إلى جبل طارق" حيث نزل الزبير بالقصر الذى يزعم البعض بأنه كانت تصطاف به فكتوريا ملكة بريطانيا أحياناً، وبقى فى المنفى ثلاثين شهراً أخرى. وفى هذا القصر أنجب الزبير ابنته رقية (جدة زوجتى) والتى

كانوا يطلقون عليها "فكتوريا" ولعل لهذا علاقته بذلك الزعم.

كان النفى خاتمة حياته السياسية، ومما يروى له أو عنه فى تلك الفترة وهو فى منفاه أنه كثيراً ما كان يتمثل بهذين البيتين:

سلوا أم عمر وكيف بات أسيرها

تفك الأسارى دونه وهو موثق

فما هو مقتول وفى القتل راحة

ولا هو ممنون عليه فيطلق

شأنه شأن غيره فى مثل تلك المواقف. مما يذكرنا "بسينية شوقى" التى جارى فيها البحترى (إختلاف الليل والنهار ينسى) عندما تم نفيه بالأندلس.

فاستمع إليه فى أنينه وحنينه، وفى تغنيه وهو يذكر ماضيه، واستمع إليه مخاطباً الليل .. ولكن فى إباء وفى شمم وفى شموخ إذ يقول:

يا ليل مانى هيِّن ولأنى ليِّنْ
فى الكفر والإسلام اسمى بيِّن
وفى قومى هناك بيتى بيِّن
وللأقارب والإرحام بعطى وبهيِّن
توفيقاً من المولى الكريم المهيمن
وكل شئ مكتوب والأمر بين

واستمع إليه أيضاً وهو يتحسر على ما آل إليه مصيره إذ يقول فى ألم ممض للنفس، عزاء وتسلية (وأحسبه قد تغنى بأبياتها تلك على رواية "النم" أو الدوبيت السودانى):

بعد الأهل والونسة
وبعد العز والحرسا
بعد انتظام العساكر المؤسسة
وبعد فرسانا يفشُّوا المغسة
انقلب الدهر وانعكسا
بى حبس الزبير فى الأندلس
يا رب يا خالق الكون ومؤسسا
عجل بالفرج قبل القسا

نرجع نشوف عـــزاً مؤسســـا
من فضلك يا كـــريم لا ينقصـــا
وقد استجاب الله له بالفعل فافرج عنه وتم إخلاء سبيله.

١٨٨٧م: اجتمع الباشا فى منفاه بجبل طارق بالصحفية البريطانية الآنسة (فلورا شو) (MISS FLORA L. SHAW) فى لقاءات أسبوعية تتابعت على مدى أربعة أشهر أفضى لها فيها بأحاديث طويلة تعرض فيها لتفاصيل سيرة حياته وأسفاره ومغامراته وفتوحاته وضمنها أفكاره ورؤاه فى السياسة والإدارة والاقتصاد كما نفى فيها نفياً باتاً وقاطعاً كل ما ألصق به من تهم الإتجار بالرقيق شارحاً وموضحاً الظروف والملابسات التى أحاطت بذلك الأمر.

عاد الزبير من جبل طارق للقاهرة وقابل الخديوى فأكرم مثواه وأهداه الخديوى عربة حنطور تجرها الخيول المطهمة لعلها هى التى عنتها شاعرته فى قولها:

فى بلد النصارى كم سحت بالبابور
وكل صبحاً جديد راكب على الحنطور

كما أهداه الخديوى سيفاً مرصعاً بالجواهر، قيل أنه ما يزال معروضاً بالمتحف البريطانى فى لندن ولو أننى لم أره فى زيارتى للمتحف هناك.

١٨٨٩م: فى هذا العام سيقت فلول جيش النجومى من "موقعة توشكى" كأسرى حرب إلى مصر. ويحكى الرواة أن الزبير عرض على الحكومة المصرية أن يفتديهم لقاء تنازله هو الكلىّ عن دعواه ضد الحكومة التى كانت معلقة آنذاك أمام القضاء مطالبة بحقوقه أو بتعويض عنها.

١٩٠٠م: رد إليه اللورد كرومر ما سبق أن صودر من أملاكه فى عهد غردون، وسمح له بالسفر للسودان من مصر ورتبت له الحكومة المصرية معاشاً شهرياً اسمياً ولكنه ظل ملاحقاً لاسترداد حقه ومطالباً بتعويض لما أصابه من أضرار وخسائر فى فتوحاته تناهز الأربعة ملايين من الجنيهات.

١٩٠٣م: رجع فى أواخر العام إلى السودان من مصر وبقى بها حتى عام ١٩٠٥ متنقلاً بين الخرطوم وأمدرمان والجيلى والسقاى. حيث بنى فى كل منها مقراً

وداراً وأنشأ مزارع عديدة واسعة فى عدة مواقع ظل يتعهدها قانعاً سعيداً بالإقامة بين أهله وذويه يحفهم ببره ويحيطهم بخيره ويمطرهم بوابل عطائه مما أفاء الله به عليه فى كرم حاتمى غامر، وصفته شاعرته بقولها:

يا شلب البرامكة الفى البلد فـرده
طلّق ما هـرب حالف من الشـرده
دا البكرم نسابته وبيعرف القعده
طقـم الكلفـّوه ماتلفـح الفـرده

وقد كان الزبير فخوراً جداً بأهله "الجميعاب"، خاصة الذين قضى أواخر أيام حياته بينهم كما قضى باكورة صباه معهم .. تلك القبيلة العباسية الأصيلة التى (ألفت فعال البر والإحسان) كما وصفهم "أبى" فى بعض شعره بأنهم:

يستبشرون إذا الرماح تشابكت	يتقارعون على قرى الضيـفان
الفـرد منـهم قـد يرد كتـيبة	يوم الطعان إذا التقى الجمعان
أنعم بعيـش بينـهم وتنـعم	بمجالس الأصحاب والأخـوان
قوم الزبيـر وما الزبيـر بواحـد	ركن البلاد وغـرة الملـوان
كهف الضعيف أبو اليتامى سيد	رحب اليدين وقائد الإحسـان
التارك الصـيد الكمـاة أذلة	الواهب المائة الرتاع العـانى

لقد كانوا نعم القوم لا يشقى بهم جليسهم، أولئك هم الجميعاب الذين شبوا معه وزاملوه وآزروه ورافقوه فى أسفاره، فكانوا فى صحبتهم له فى (بحّاره)، خير الأصحاب والذين كانوا يهزجون فى عرضاتهم وهم نشاوى فى ساحات النصر ويتغنون بأناشيد البطولة والحماس والفخر فى زهو وفى تيه وفى خيلاء مرددين قول شاعرهم:

نحن سيفاً طيَّعْ جهينه
مادخلنا الوكرة وجرينا
كم غزينا وكم كم سبينا
القبائل تاريخها وينا ؟

١٩٠٩م: عاد الزبير إلى مصر وأقام بعدها فى حلوان حيث دون فيها مذكراته.

١٩١٢م: كانت عودته النهائية إلى السودان بتاريخ ١٩١٢/٨/١٠م حين غادر القاهرة بقطار خاص أقله وحاشيته التى قاربت الثلاثمائة شخصاً.

فى أواخر هذا العام داهمته الآلام وانتابته العلل وهدّه المرض وطغت عليه الملاريا. وأذكر هنا ما أفضى به إلى الدكتور (اسكوايرز) مدير المصلحة الطبية على عهد الزبير (عندما كان المستشار الطبى لوكالة حكومة السودان فى لندن والذى يحول إليه المبعوثون السودانيون هناك) .. ذهبت إليه فى شتاء ١٩٤٩م وأنا فى بعثة السكة الحديد آنذاك، فحدثنى بعد أن علم بأننى من الجيلى -مسقط رأس الزبير باشا- عن مرض الزبير .

بدأ يدوّن المعلومات الخاصة بى، وهى الاسم والعمر والجنس، وجاء السؤال عن مسقط الرأس. وعندما ذكرت له موضع ولادتى (الجيلى) أطلق صيحة تعجب عالية قائلاً ... "الجيلى!!! زبير باشا": وأخذ يسرد علىّ كيف أنه أسهم فى الكشف على الزبير وكيف أنه شارك فى علاجه. وكان من أعجب وأغرب ما قاله لى أن الزبير كان قد أصيب بملاريا خبيثة. جنح الدكتور فيها إلى المبالغة والتهويل وهو يسترجع الذكريات فاستطرد يقول ... "اذكر حتى نتيجة الفحص بالمجهر على دمه واستطيع أن أبالغ لك لأقول أن ما حواه دم الزبير من مكروبات الملاريا تكاد ترى بالعين المجردة لكثرتها دون أن تحتاج إلى مجهر!!." ثم تحدث لى عن الوداع الآخير وعن التشييع الرسمى الذى حضره، والذى سيٍّر له قطار خاص من الخرطوم للجيلى، حمل كبار رجالات الحكم والأعيان وكبار أفراد الجاليات الأجنبية والموسيقى والجنود للاشتراك فى التشييع والسير فى ذلك الموكب الباكى الحزين.

١٩١٣م: فى اليوم السادس من يناير ١٩١٣ صعدت روح ذلك البطل العظيم والفارس المغوار إلى بارئها .. وشيعت فى الموكب الرسمى المهيب بعد أن نكست يوم موته الأعلام وعطلت الدواوين وسار جثمانه على عربة مدفع، ليدفن فى المقبرة التى تحمل اسمه بالجيلى. وانتهى الدفن بإطلاق زخة من الطلقات دوّتْ فوق قبره الطاهر، ربما لترتاح إليها روحه ولتأنس بها نفسه التى ألفت دوىٌ ذلك الرصاص وقعقعة غيره من السلاح فى حياته المليئة الوضيئة الصاخبة الحافلة...

مات الزبير على فراشه بعد أن صافح الموت عشرات المرات فى ساحات الوغى .. مات تماماً كما سيف الله المسلول خالد بن الوليد ولعل لسان حاله كان يردد نفس تلك العبارات التى رددها خالد بن الوليد من قبله:-

"لقد شهدت كذا وكذا زحفاً - وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم وهاأنذا أموت على فراشى حتم أنفى كما يموت البعير ... فلا نامت أعين الجبناء."

مات بعد أعوام كفاح ونضال وعز ومجد، وحياة قضاها بين رائحة البارود، ومباخر الند والصندل والعود، وهتافات البطولة وأهازيج النصر .. مات بعد أن بلغ من العمر أثنتين وثمانين سنة، ورثته شاعرته (بت مسيمس) وقالت فى تأبينه:

تبكيك دار جعل ياالضل ويا السُتْره
يادرب الصراط منو البيتخـــترا
الجود والكرم خلقُه الله فيك فطـــره
فيك "معن بن زايد" ما يجى قطـره

وقالت.

ود رحمة .. دقـــر الكنيـسه الهـــام
يا بحر المحيـــط ما بيقطعوا العـــوام
تبكيك الغروب من برقو لى دار تـــام
تبكيك العجـــم فرتيت نيـام نيـــام
تبكيك العرب من الحجـــاز للشـــام
ومن بلد اليمن لى تونس الإســــــلام

وقالت وهى تخاطب ســـايس جواده:

قوم "مر الجواب" شِدْ لىْ على القـــهار
قبل أم جور تجور وقبل الزمان ينذار
يازنقر بروك بالرونقـــة والصـــفار
صقر الترترة البيتعجـــّل الافقـار(١)

ورثاه شاعر النيل حافظ بك إبراهيم فى شعر لم ينشر عند مجيئه الخرطوم فقال:

يا روضة النيلين جئت مسـلِّماً　　　فعليك من لدن الإلـه ســـلام

---

(١) والإفقار جمع فقرة. والبازنقر هم القوة التى أنشأها الزبير للحرب وطعمها مؤخراً برجال من الشمال

لى فى ربوعك من رجالك معشر	شم إذا جار الزمـــان كـــرام
أين الزبير أبو الفوارس والندى	قد غيبَّته عن حمـاك رجـام
قد كان فخراً للبلاد وذكــــــره	باق بهـــا ما كرَّت الأعـــوام
كفَّـــــاه سوَّدتاه كفــــة حــاتم	جودا وكفَّة عنتر وحســـــام
ولَّى فأودع كل قلب حســـــرة	وبكى عليه العُرب والأعجـام
فحباه رب الكائنــات نعيـــمه	وسقى ثراه من السماء غمام

وقال عنه الخديوى إسماعيل ... "إنه رجل مؤمن".

وقال عنه كرومر: "إنه رجل ذو عزم ووفاء ومضاء".

وقال عنه غردون: "أنه رجل بحق .. وهو أقدر رجل بالسودان. ويفوق بمدى غير محدود الرجال الاخرين الذين تولوا حكم السودان من قبل "

وقال عنه تشرشل "لقد امتدت شهرة هذا الرجل إلى ما وراء حدود القارة التى كانت مسرحاً لفتوحاته .. امتدت إلى الأمم البعيدة شمالاً وجنوباً .. ولقد كان حكمه فى الحقيقة لبنة واضحة فى بناء التقدم الذى أعقب عهده فى السودان".

وقال عنه "شوونفيرث" عالم النبات الألمانى الذى اتصل بالزبير فى البلاد ونزل عليه ضيفاً: "خلق الزبير ليحكم الناس ولو كان فى أوروبا لكان له شأن غير هذا الشأن ولترك فى تاريخها أثراً بعيداً." *

---

* تزوج الزبير بعدد ليس من اليسير حصره من النسوة المختلفات ومن السرارى وأنجب أعداداً عرفنا منهم أكثر من ستة وعشرين ولداً وعدداً كبيراً جداً من البنات فى الشمال وفى مصر. لم يبق على قيد الحياة منهم إلى جانب أحفاده العديدين من الرجال سوى واحد ومن البنات سوى أثنتين أمدّ الله فى أعمارهم. وبعد فهذا هو الزبير ... وهذه هى لمحات موجزة عن سيرة حياته المديدة الحافلة وصفناها فى اقتضاب مسلسلة حسب تواريخها تعريفاً به لفتيان وفتيات اليوم.

ألا رحم الله الزبير .. الذى طبقت شهرته الآفاق ... وجهل قدره أو تجاهله الكثيرون من أهله فى سودان هذا الزمان

مجموعة صور

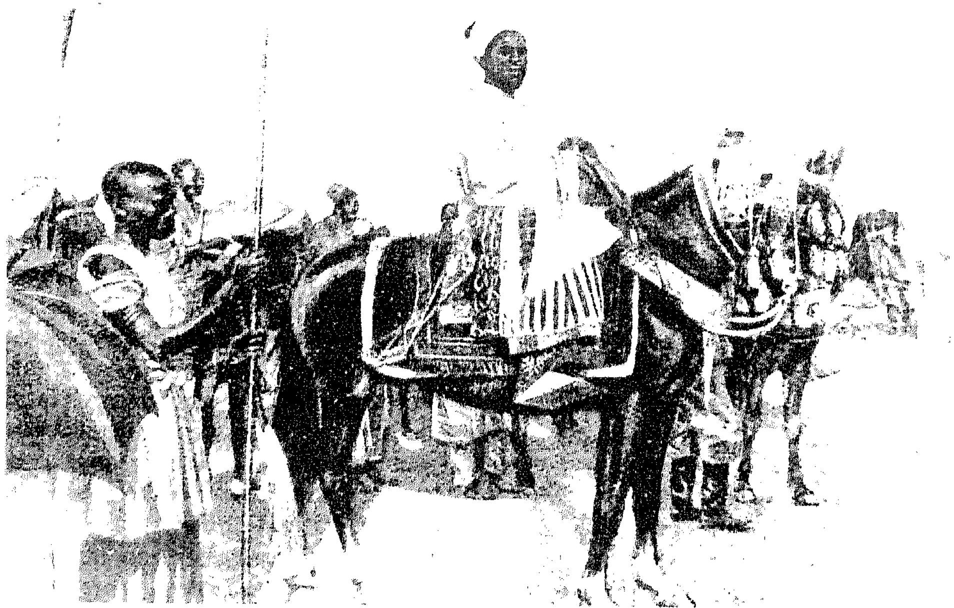


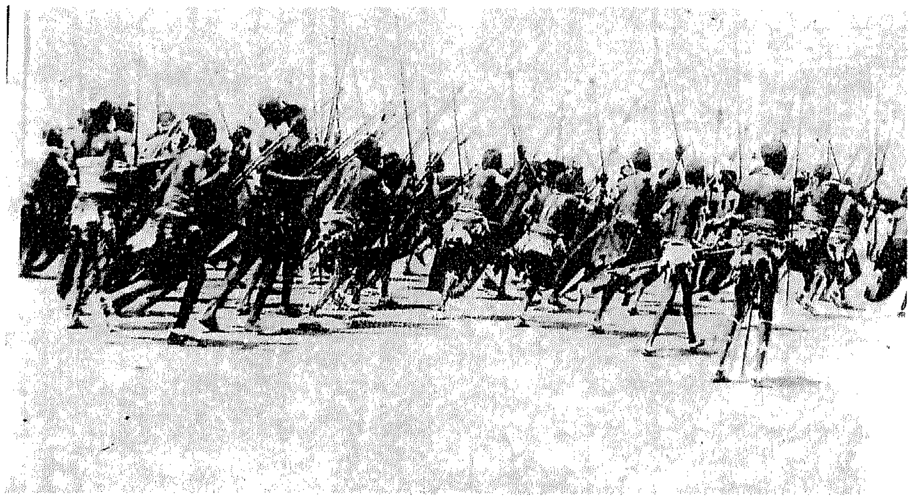


الزبير باشا فى موطنه بالجيلى









الجيش الذى كونه الزبير باشا المعروف باسم (بازنقُر)



منزل الزبير باشا في الجيلي



المنزل الذي اقام به الزبير باشا مع أسرته بجبل طارق

ملحق (أ)

سلسلة نسب الزبير

مطلب فى بيان الأمير الشهير الزبير باشا العباسى (ص ٦٥)

ومن نسل جموع أيضاً الجهبذ الشهير والسمبذع الأمير الزبير باشا العباسى الذى أثبت نسبه إلى عبد المطلب بن هاشم بمصر وامام القضاة والعلماء المعينين لإثبات النسب الهاشمى من أفراد الإسلام لئلا يدعيه دخيل ليس فيه نصيب وإليكم ببيان نسبه مسوداً فهو الزبير بن رحمة بن منصور بن على بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن أبكّر بن عوض بن شاهين بن جمّع بن منصور بن جموع بن الملك غانم بن حمدان بن صبح بن مسمار بن سرّار بن محمد حسن كردم بن إدريس المكنى بابى الديس من قضاعة بن حرفان (واسمه عبد الله) بن مسروق بن أحمد اليمانى بن إبراهيم الجعل بن إدريس بن قيس بن يمن الخزرجى بن عدنان بن قصاص بن كرب بن هاطل بن باطل بن ذى القلاع الحميرى بن سعد الأنصارى بن الفضل بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم إلى آخر النسب النبوى المعروف

وهذا هو النسب الصحيح الذى أثبت أمام علماء النسب بمصر المحروسة كما قدمنا وهو مرسوم آخر الجزء الثالث من السيرة النبوية لابن هشام فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم

ومن نفس الكتاب والمرجع ورد فى الصفحة ١١٢ ما يلى

تحت باب ترجمة ذى القدر والسيادة الأمير الزبير باشا العباسى ذى الشرف الخطير

لما كانت سيرة الشيخ الإمام إلى محمد عبد الملك بن هشام أصح السير وأعلاها وأتمها فائدة وأحسنها وأحلاها لما اشتملت عليه من غرر النفائس وتضمنته من حسان مخدرات العرائس والآثار الثابتة الصحيحة والقصائد العربية الصحيحة وذكر الأنساب وبيان الأسباب لاسيما مؤلفها سابق حلية هذا الميدان المشار إليه فيه بأطراف البيان أحد الأئمة الأعلام المستمسك من فنون العربية والأدب بوثيق

الزمام الراوية التشابه على الاسناد وواسطة عقد الفضلاء الأمجاد فكانت حرية بطبعها وتسهيل طرق نفعها وفق مولانا الكريم حضرة الأمير الفخيم على المفاخر سنى المآثر ذى المجد الأمثل والحسب السامى الجليل سمى حوارى الرسول سعادة الزبير باشا بلغة الله تعالى المأمول فطبعها بالمطبعة السنية ببولاق التى اشتهرت محاسنها فى الآفاق ناوياً بذلك نشر عبيرها الذكى والثمين بما حوته من فوائح عقدها الذكى والابتهاج بخدمة أفضل المخلوقات القائل إنما الأعمال بالنيات وقبل الشروع فى طبع هذه السيرة الهاشمية شرف منه الأستانة العلية ... السيد أحمد الحفظى اليمنى ولما بلغ حضرته أن سعادة الباشا الموحى إليه عزم على طبع هذه السيرة وان نسخها العزيزة غير يسيرة أهدى إلى سعادته نسخة قلم تروق بحثها الأنظار وتعجب بصحتها وبهجتها ذوو المعارف والأفكار فأكرم بها من هدية بهبة حلت محل القبول لدى تلك الحضرة الزكية فكان عليها الاعتماد فى التصحيح والتحرير والتنقيح وتم طبعها فى مديرية المطبعة والكاغدخانة عام خمس وتسعين وألف ومائتين ١٢٩٥ هـ وورد فى ذكر آخر الجزء الثالث من سيرة بن هشام التى طبعت ترجمة الأمير العباسى الزبير باشا مع نسبه العباسى الهاشمى فرداً فرداً إلى أصله العباسى ثم سرد أصوله إلى عدنان وذكر أنها وضعت رسماً كما وضعها جامع السيدة النبوية لتكون أكبر إسناد لهذا المجموع الجعلى العباسى فقال

ترجمة ذى القدر والسيادة الأمير الزبير باشا ذى الشرف الخطير من انتهى نسبه الميمون إلى الأصلاب الطاهرة وأزكى البطون ولعمرى أنه لنسب جليل وحسب باهر ومجد عظيم حيث اتصل بشجرة النبى الأعظم وسرى إليه نور طوالع ذلك العقد المنظم فياله من عقد ثمين ما أغلاه وشرف باذخ ما أبهجه وما أعلاه فقال حفظه الله منتسباً ذلك النسب نضر وتلألأ هكذا:-

سلسلة الزبير باشا واتصال نسبه إلى عبد المطلب فوالله إننا من شجرة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب الجامع نسبه للأبوين فاسمع تعريفاً لا تشريفاً مطلقاً. هو الزبير بن رحمة بن منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن أبكر بن عوض بن شاهين بن جميع بن منصور بن جموع بن غانم بن حميدان بن صبح بن مسمار بن سرّار بن كرم بن ابى الديس بن قضاعه بن عبد الله حرقان بن مسروق بن أحمد اليمانى ابن إبراهيم الهاشمى بن ادريس بن قيس بن يمن الخزرجى ين عدنان بن قصاص بن كرب بن هاطل بن ياطل بن ذى الكلاع الحميدى بن سعد بن الفضل بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر

بن مالك بن النضر بن كنانه بن خريمه بن بركه بن الياس بن مضر بن نزل بن معد بن عدنان على هنا انتهى رفع نسب الأمير ذى القدر الخطير الزبير باشا العباسى سمى حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو النسب الصحيح الذى نقل وثبت أمام علماء النسب بمصر المحروسة كما قدمنا ذلك كله انفاً وهو مرسوم آخر الجزء الثالث من السيرة النبوية لابن هشام فى ذكر جهازه صلى الله عليه وسلم وفى هذه السلسلة العباسية التى أثبتها صاحب السيادة العباسى الأمير الزبير باشا يندرج معه جميع بنى عمه المتصلين بهذا العمود العباسى الهاشمى كما ذكرناهم فرعاً فرعاً ومن غير ريب ولا شك فجزى الله الأمير كل خير لقيامه بهذا الواجب الشرعى الذى لا يقوم به إلا من كان بمثابته ولا يستغرب الشئ من معدنه.

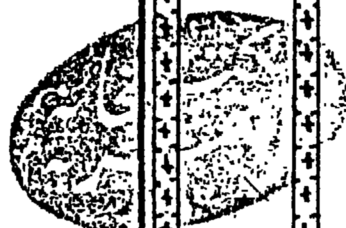
نقلاً عن كتاب السور الحصين فى القتال نسب الجعليين بالعباس
لجامعة عبد الله محمد الخبير
إعداد وتقديم عبد الله على إبراهيم - معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية
الدار العالمية للطباعة - يونيو ١٩٨٢

الملحق (ب)

الخطابات الثمانية التى بعث بها إلى دارفور المسماة الأجوبة السديدة فى إنذار أهل المكيدة مصورة من وثائق دار الكتب المصرية.

الاجوبة السديدة في انذار وتهديد اهل المكيدة

م



صورة جواب محرر في غرة جماد آخر سنة ١٢٩٠ نمرة ١ من الزبير بيك رحمه
بالجميع الى امير جيوش افندينا ولي النعم الخديوي الاعظم باراضي الفراتيت
ومضمونه ذلك ادناه   عما يجب اشعاره الى حضرة امير الامراء الكرام
وزين الاكرمين الفخام مولانا السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين صاحب
العزة والافتخار والهيبة والوقار دام الله اجلاله ونصر جيشه آمين
بما انه من بعد الف السلام الوافر والشوق الى حضرة رؤية امير الامراء
المتكاثر وان جاز سؤالكم عن عبيدكم فانهم حين تسطيره بالصحة والسلامة ثم
المبدى تحريره لحضرتكم يا حضرة الامير ابراهيم اننا نحن عبيد افندينا ولي
النعم الخديوي الاعظم واتينا لفتح افريكت بلاد العبيد بامر عنايته وكلفنا
وصرفنا من خيراته والآن حميتنا وقوتنا بنفوسه وحيث الامر كما ذكر وذلك
الحضور بالكلف والمصاريف الجسيمه على الحكومة الخديويه من ابتدى عام
سنة ١٢٧٠ ومن وقتها لغاية يومنا هذا اجارينا السعي والاجتهاد القوي بالهمة
العاليه وعدم التراخي في جميع ما يرضى الله ورسوله امراً ويرضي والي نعمتنا
الخديوي الاعظم بفتح البلاد وتامين العباد وزيادة الجود والاتساع
لاحكامه المصريه ومنع الاشقية العصاة المتسلطين على ربط طريق
المسلمين من جميع الجهات بقتل دماهم ونهب اموالهم واستمرار طرايقهم
الوارده والمترددة من رعايا الحكومة الخديويه وخلافها بالامن والامان
لينالوا كل الخير ويسلموا من كل ضير وعلى هذا الوجه الفرضي المرغوب
اجتهدنا وتم اجتهدنا يا حضرة الامير ابراهيم وفتحنا بلاداً عدها منجح
وهي الآن صارت تبعاً للحكومة الخديويه بموجبات الطاعه وكمال الامتثال
وكثيراً منهم الحالة هذه ادخلناهم ملة الاسلام بشهادة ان لا اله الا الله
محمد رسول الله وصارت المسلمين ترد وتتردد علينا من مدة سنوات عديدة
لا احداً يتعرض عليهم بسوء ولا مكروه من المتسلطين على قطع الطريق
ولا خلافهم من الاشقية العصاة وعلى هذه الوجوه الشرعيه حصل
الرضا والقبول التام بالممنونيه لوالي النعمه الخديويه واتصلت للحكومه
المصريه بالافريك السودانيه باسباب هذا التوسط والاجتهاد من
عبدها المعمور ومغمور من خيراتها وحيث يا حضرة الامير ابراهيم ان هذا
وهذا جميعه يبلغ مسامعكم الكريمه وتيقن عند حضرتكم بما فيه الكفايه
وجميع رعاياكم وارده ومترددة علينا وجارين تدوير وتشغيل تجارتهم

حسب مرغوبهم بالامن والامان بدون تعديات أحدًا عليهم بانوار جور والافلم
وهذا وهذا جميعه يقينا بلغ مسامع الحضرة الخديويه وصار ممنون وتر
ممنون مما اجراه عنده فى ذالك الشروعات المرضيه من تأمين وتطمين
العباد وعمارة البلاد مع اتصال أحبار الحكومه الخديويه بالافريكه
السودانيه واستمرار تجارة رعاياه فيها بالامن والامان مع حصول
راحتى الجميع واتساع البلاد وزيادة السعى والاجتهاد فى هذه المواد
وحيث هذا وهذا جميعه صار مدرك عند جناب حضرة الخديوى
الاعظم وهو من أعظم المقاصد المرغوب اليه وحيث الامر كما ذكر
واختصارا من التطويل الحالة هذه يا حضرة الامير ابراهيم قد تحقق
لدينا بالخبر اليقين أن عربان الرزيقات ربطوا طريق المسلمين واباحوا
دماهم ونهب اموالهم بدون وجها جايز ولا موافقة للشريعة وحيث
هذا من اهم الامور الضروريه ومما يغضب على والى نعمتنا الخديوى
الاعظم ويحط بشرف الحكومه وعلى ذلك الوجه الناشئ منه جملة
الفساد وهلاك العباد فقد أوجب الله تعالى علينا محاربتهم مطلقًا
ومنعهم من الامور المغاير بالقوة الجبريه ودخولهم تحت احكام الدوله
الخديويه وها هو الآن بمشيئة الرحمن الرحيم جاري تشهيلنا مع العساكر
الكفايه بغرة جماد آخر سنة ١٢٩٠ الى عربان الرزيقات كما صرحنا لكم فى حقهم
بالتفصيلات بما فيه الكفايه يكون معلومكم يا حضرة الامير ابراهيم كى ان وافق
واستحسن لراى حضرة الامير تجهزون المساعدة اللازمه الينا بتعيين
من يلزم من طرفكم ويكون ذو صداقه وجساره وهمة عاليه ومعه عساكر
كفايه من خيول عربيه وأسلحة ناريه وذلك النجده والامداديه خاصه
ردا للعربان العصاة المفسدين فى الارض من الطغا والبغا وراحتى
المسلمين من تسلطاتهم عليهم كما هو واجبا علينا وعليكم ردهم بالقوة الجبريه
من الطغاة والبغا كما قال تعالى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيئ الى امر الله وقد
قال ايضا عز وجل فى كتابه العزيز انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله
الايه الى ان ينفوا من الارض وبناء على ما ذكر بالنصوص الشرعيه وسعى
العربان المذكورين فى الارض فسادًا قاطعين الشك بالتصميم واليقين
القوى على مساعدتكم الينا عليهم كما هى عادة الدول المتحابات وماسيات
حسبة الخالق ونعمه عليهم برد جميع الطغاة الساعين فى الارض فسادًا لكمال

هؤلاء العربان وخلافهم من جنود ابليس اللعين ومن بعد ما يقضى الله أمراً كان مفعولاً برد هؤلاء الطغاة باتحاد نانحن وانتم الجميع فحينئذ يجرى اللازم بيننا وبينكم بالمحبة والادب سوى كان بتركهم منكم للحكومة الخديويه أو بالمعروض من حضرتكم في خصوصهم لعنايتى والى نعمتنا الخديوى الاعظم بقبول واستقعاد جميع ما كلفناه وصرفنا من المواهى واستحقاقات شهرى وماؤونات وملبوسات وجباخين معده وخلافها من جميع ما يلزم للعسكريه كما مدروكا جميعه عند حضرة الامير ابراهيم أصول العسكريه وما يصدر به الامر الينا حينئذ نعاملكم بموجبه والله الموفق وفى هذا وهذا اعرفناكم كفاية وتفصيلاً مع رد الافاده الينا سريعاً ودمتم فى حفظ الله آمين *

صورة الجواب نمرة ٢

مرسول من الزبير بيك رحمه الجميعابى بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٩٠ الى السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين وعمه الفقيه حسب الله ابن السلطان محمد الفضل وهما جوابين صورتهما واحده ومضمون ذلك ادناه عنما يجب اشعاره الى صاحب الدولة الفوراويه والمسامع الكريمة المرضية انه لما كان فى يوم ١٤ جماد أول سنة ١٢٩٠ قد تكلفنا بعساكر ومصاريف زياده للحكومه المصريه بما فيها من الماؤونات والملبوسات والآلات الحربيه من الجباخين المعده وخلافهم حتى بلغت من المصاريف عشرة الاف كيسه وكسور جميعه مكلف ومنصرف من خيرات افندينا ولى النعم الخديوى الاعظم لاجل فتح بلاد شكا الذى هى معادن عربان الرزيقات المعروفين بالطغا والبغا والفساد وبردهم من التعديات والامور المغايره بالسلطات على ربط الطريق عمداً المسلمين وسفك دماهم واخذ اموالهم مع شن الغارات بدون وجه جايز ولا موافقه للشريعة واستقامة احوالهم على ما يرضى الله تعالى ورسوله امراً ودخولهم تحت أحكام الدولة الخديويه لحصول الراحة بالامن والامان لهم ولكافة الواردين والمترددين من رعايا الدولة المصريه وخلافهم من الاقطار الفوراويه وعلى حسب هذا الامر الضرورى يا حضرة الامير ابراهيم قد جبرتنا ضرورة المسلمين والشفقة والرأفة عليهم وعلى أموالهم مع ما اخذ وه بالنهب من أموالنا نحو الحولين الكاملين بالجمل والمبالغ الجسيمة بوجه النهب والتعديات

من

من عليان حامد ومنزل الذي هيا مدعين السلطنه والملك لنفسهم بدون عداله بين الناس ولا استقامة أحوال مع اننا ياحضرة الامير ابراهيم انذرناهم وأوعظناهم مرارا وتكرارا بالسنة والكتاب بالمنع من التعديات وربط الطريق على المسلمين مع اخذ جملة أموالنا الوارده والمتردده جميعها كانبا عنها منزل وعليان المذكورين واوضحنا لهم كامل النصايح فلا كان يسمعوا لقولنا صرفا ولا عدلا ومازالوا ايضا ناخرون علينا بالقوة الجبريه والخيول العربيه والاسلحة الناريه وقتلهم الى الملوك الفوراويه كمثل المقدوم عبد العزيز وآدم طربوش وخلافهم من الاعيان والفرسان تبعيت دولتكم الفوراويه ولما تحقق لنا ذلك ان منزل وعليان لا يتركون ربط الطريق كمنطوق افادتهم الوارده لنا بجوابانهم التي تحت يدنا فقد قمنا وبادرنا وأوهبنا انفسنا في سبيل الله تعالى وكلفتنا الحكومة المصريه بعساكر ومصاريف وحضرنا لقتال العربان المذكورين وردهم بالقوة الجبريه من الطغا والبغا كما قال تعالى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ الى أمر الله وحيث ان هؤلاء العربان المذكورين معلومين عند كافة الدول والممالك افريكه لوجدهم من مدة ثلاثون سنة وزياده بدون سلطان متولي الحكم عليهم بالعدل والانصاف بمنع الظالم من المظلوم الا فقط رعيته للشيطان الرجيم وقد زين لهم الشيطان أعمالهم بالتعديات وربط الطريق وسلب ونهب أموال المسلمين بدون جواز ولا وجها شرعي بتحليل ذلك الخصوص ونصبت لهم منزل وعليان سلاطين وقد بلغت أخبارهم حضرة الامير ابراهيم وكافة ما معه من الوزراء والملوك واختصارا من التطويل ياحضرة الامير اننا في يوم الاثنين المبارك الموافق غرة رجب سنة ١٢٩٠ قد دخلنا بلاد شكا نظير ما حكي وتوضحت أسبابه لحضرتكم بالجوابات مقدما وقد وقعت بيننا وبينهم معركه ومقتلة شديدة وقتلنا اعيانهم وفرسانهم وكثيرا من اخلاطهم ويوم تاريخه اقمنا ببلادهم المعروفه بالقوة الجبريه وكثيرا منهم صار رعية للدولة الخديويه بموجبات الطاعة وكمال الامتثال واما منزل وعليان فعلى حسب مسموعنا انهما حضروا عندكم ياحضرة الامير ابراهيم وقصدهم وقوع الفتنة بين الدولتين زيادة عما كانوا فيه من الامور المغايرة بالامداديه من حضرتكم والمحاربة الى الدولة المصريه وحيث انتم أهل فطن

ودرايه كامله نخذوا ملحوظ من هذين الاشخاص المحضرين عندكم لقصد
الامداد بر والفتنة مع الدولة المصريه نظر المصالح نفسهم فقط وعدم
منعهم من التعديات على اموال المسلمين ليس لمنفعه خاصه حضرة الامير
وانما كان عندهم منفعة وطاعة لحضرتكم كانت تتوضح لكم قبل حلول
الدولة المصريه ببلادهم والحال اذا يرى موافق لراى الامير لا تسمعوا
لهم قول مطلقا لان هذين الشخصين الذى هما منزل وعليان وما معهم
من جنود ابليس فهما عين الفتنة واسبابها فاحذروا من القبول لاقوالهم
الفاسدة بالفتن مع الدولة المصريه كونها سطوتها غاليه على جميع المملكات
ومددها لا ينقطع من كامل الجهات وليس يكون منا تهديد لحضرة الامير
وانما هو عين النصح والكمال بحب الراى والمعرفه لحقن دماء المسلمين
بيننا وبينكم وعدم وقوع الفتن بين الدولتين باسباب هؤلاء
العربان المفسدين فى الارض مع انكم يا حضرة الامير تعلموا والدكم بينه
وبين عزيز مصر الخديوى الاعظم محبة ومودة جسيمه وطريق
مستقيم وارد ومتردد سنوى مع زيادة الامتزاج والوصال بالهدايا
وبخلافه منكم ومن عزيز مصرى الخديوى الاعظم الى يومنا هذا وحيث
ان هذا كله مدروك بفكر حضرتكم وثابت عند الخاص والعام فاملى
وارتجاى فى حضرة الامير قبض منزل وعليان الاثنين وحفظهم بالشغير
والحديد وتسليمهم لمن تستصوبوه من طرفكم ويكون ذو اصداقة وهمة
عاليه لاجرى النظر والمحافظة عليهم بالتدقيق الكافى ووصولهم بطرفنا
لرد جميع ما اخذوه من حقوق المسلمين بوجه العدالة بدون تمييل ولا تبعيت
هما قرمعهم لا ستقامة احوالهم ثانى مرة من الامور المغايرة واتعاد
خلافهم من الاشقياء العصاة المتسلطين على ربط الطريق ولهذا
قد عرفنا حضرة الامير بجميع ما خطر بالنا من وقوع الفتنه بيننا وبينكم
وحضور عليان ومنزل والراى مفوض لما تروه موافق ودام الله بقاكم آمين

صورة الخطاب الثالث نمره ٣

المحرر فى ٢١ رمضان سنة ١٢٩٠ من الزبير بيك رحمة الجميعابى امير جيوش
عساكر عساكر افندينا ولى النعم بارض شكا ومضمون ذلك المقال
انه عفيا يحسب اشعاره الى حضرة امير الامراء الكرام وزين

الإكرمين الفخام مولانا السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين صاحب
العزة والافتخار والهيبة والوقار دام الله اجلاله ونصر جيشه آمين
من بعد الالف السلام وتقابيل الايادى الكرام والسؤال عن داعيكم فهو
حين تسطيره بالصحة والسلامه ثم المبدى تحريره اليكم يا حضرة الامير اننا
من ابتدى ما حضرنا ببلاد شكا الذى هى معادن عربان الزبيقات المعروفين
بالطغا والبغا والفساد قد حررنا لكم عدة جوابات الاولى بقيامنا الى
العربان المذكورين من ابتدى تاريخه والثانى فى وصولنا ببلادهم
ومحاربتهم لنا وانهزام جيوشهم والثالث فى حضور مشايخهم الذى
هما منزل وعليان وهروبهم منا وحضورهم امام حضرة الامير لطلب
النجده والفتنه بين الدولتين لمنافع نفسهم فقط واستقامة احوالهم
على الامور المغايره من ربط الطريق وخلافه مع اننا يا حضرة الأمير
عرفناكم مقدما عن أسباب حضورنا الى هذه البلاد ليس كان لنوع
آخر ولا لمنفعه دنيويه ولا لشهرة عند القبايل والملوك وانما كان
القصد الاصلى لوجه الله تعالى برافتنا وشفقتنا على المسلمين لنجاة
انفسهم واموالهم من هذين العربان المتسلطين على ربط الطريق
واباحة دماء المسلمين ونهب اموالهم بدون وجها شرعى يحل لهم
ذلك الخصوص وعلى هذا الوجه الموضح لحضرة الامير قد حضرنا لقتالهم
ومنعهم من التعديات والامور المغايره واستقامة احوالهم على موافقة
الشريعه المحمديه ودخولهم تحت أحكام الدولة الخديويه لحصول
الراحة وتامين وتطمين كافة الواردين والمترددين من جميع الجهات
من تسلطات الاشقيا العصاة عليهم وصيانة أنفسهم وحفظ اموالهم
ليناولوا كل الخير ويسلموا من كل ضير وفى هذا وهذا عرفناكم كفاية بالتوضيح
تفصيلا لاجل محبتنا ومودتنا فيكم وفرحتنا بولايتكم على كرسى المنبر
كوننا بلغتنا فيكم اخبار الخلفاء الراشدون بالخلق الحسنه والفطن
والدراية الكاملة والرافه والشفقه على المسلمين مع زيادة العدل
والانصاف بينهما برد حق المظلوم من الظالم والله الموفق وعلى هذا
الوجه المرغوب كاتبناكم فى خصوص نفسنا واسباب قيامنا فى أوان
الخريف وملياة البحور حتى أننا من شدة محبتنا فيكم يا حضرة الامير
تجاسرنا عليكم وادخلنا نفسنا فى مشورتكم بالمكاتبة اللطيفة والترجى

اليكم في امر الاتفاق وبه ليبت امر المسلمين لحصول الراحة لكم ولكافة المسلمين
واستقامت الملك اليكم حسب مرغوبكم زياده على ذلك راحة الاهل والولاير
الذى بطرفكم من زمن جدكم السلطان محمد الفضل الى يومنا هذا وما معهم من
الرعية الاسلاميه وهذا يا امير شاهد وبرهان ودليل قوي يدلك على محبتنا
فيكم وحيث الامر كما ذكر وانتم ملوك ودوله وعادة الدول والمملكات
لا تقبض الرسول ولا تقطع رد المكاتبات ولهذا قد تعجبنا في ذلك عجبا
شديدا ولو يكون حضرة الامير ضامر على شئ لا مانع من رد المكاتبات
الذى وردت منا اليكم خصوصا يا حضرة الامير ورد منكم جواب الى
الشيخ مادبو ولد على وعمد عربان الرزيقات ومشمول عليه ختمكم وفيه
تعرفوه بحضوره اليكم مع زيادة التهديد الشديد وتوجيه الجواب
الى الجهة المذكورة وبعده هو واهله من وجهها وزيادة السب والقدح
والشتيمه لعبدكم الزبير بيك رحمه الجميع بقولكم انجلابي وثاير وباغي
ولا يمكنكم ترك هذه البلاد اليه مطلقا وحيث توضح لنا منكم هذا الخصوص
فلا مانع من شتيمتكم الينا لانها شرف عندنا كون مستحق حضرة الامير
ان يشتم اعظم منا مقاما واما من خصوص حضوركم ومحاربتكم الينا
اذا كان لها صحه فلا هي قصدى ولا مرادى معكم كونه قال عليه الصلاة
والسلام الفتنة نائمة لعن الله تعالى من ايقظها وبالاخص نحن ذاتا
لا بيننا وبينكم من الآباء الى الاجداد مثل هذه الامور ولا امرتنا دولتنا
بمحاربتكم وحيث ان الامور تجرى على حسب المقادير وليس تجرى على
حسب الخواطر وانتم سمعتم كلام العربان المفسدين في الارض الذى
هما منزل وعليان وما معهم من جنود ابليس اللعين وبذلك الاقرار
استصوبتوا القدوم الينا والمحاربه معنا بدون وجه جاين كما مقرر
بجوابكم الوارد الى الشيخ مادبو وعمد ومشايخ عربان الرزيقات اما تعلموا
يا حضرة الامير ابراهيم ان في النصوص الشرعيه لا تجوز حرابة مسلم
لمسلم الا بامر ضرورى ومخالفة للشريعه وحيث معلوما الذى حضرتكم
ولدى الخاص والعام اننا نحن جارين السعي والاجتهاد القوي بالهمة
العاليه وعدم التراخي في جميع ما يرضي الله ورسوله امر ابسر رد الطغاة
المفسدين في الارض من ربط الطريق وقتل المسلمين وتامين وتطمين
كافة من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وكيف انتم تخالفوا الشروط

الاسلاميه

الاسلاميه بناءً على جوابكم الوارد الى الشيخ ماد بر ابن على وعمدعربان الرزيقات
وبذلك علم عندنا يقينا انكم ايقنتم وسممتم على الفتنة والمحاربة معنا وانتم
من ضمن الدول الاسلاميه فيا عجبا ثم عجبا وحيث اخترتم هذا الخصوص
كما وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وحيث الامر كما ذكر فاعلموا
وحققوا يقينا ان جميع ما يسفك من دماء الطائفتين من المسلمين منا ومنكم
انتم مسئولون بين يدى الله تعالى ويوم القيامة تجتمعوا الخصوم ومن بعد
هذا الانذار والوعظ الشديد اذا تعديتم وقصدتم محاربتنا فلاشك فى
نصرنا عليكم لاننا ليوث حربيه وصلة عباسيه وسلالة هاشميه ولنا النصر
من رسول الله عليه الصلاة والسلام كما قال اللهم انصر العباس وابناءه
والدليل الاخر اعانتكم للعربان الظالمين المساعدين على معصية الخالق
مع علمكم يقينا اننا نحن عبيد افندينا ولى النعم الخديوى الاعظم واتينا
لفتح البلاد بامر عنايته وكلفنا وصرفنا من خيراته والان حمتنا وقوتنا
بنفوسه ومعلوم ان العبد وما ملكت يداه لسيده وحيث الامر كما ذكر
فان انتم قاصدين رفع يدانا من هذه البلاد ورجوعنا الى محلنا ليس يكون
بنوع حرب ولا فتنه وانما الاصوب يكون بالمكاتبه والعروض منكم لعناية
الخديوى الاعظم بقبول واستعداد جميع ما صرفناه على العساكر من
استحقاقات شهرى وخلافه من المهمات والجباخين فان وافق وقبل
لعناية ولى نعمتنا الخديوى الاعظم وتاشر منه بكلمتين الينا برفع يدانا
من هذه البلاد فذاك وقتها نتوجه على حال سبيلنا نحن وكامل جيوشنا
طاعة وامتثالا لعناية امر الخديوى الاعظم دام الله اجلاله ونصر جيشه
آمين واما غير هذا الوجه لا يخطر ببال الامير ابراهيم قيامنا من هذه البلاد
الا ان يكون بعلم لا يعلمه الا الله تعالى وفى هذا وهذا اعرفناكم كفاية وتفصيلا
والامر اليكم فانظروا ماذا تأمرون دام الله اجلالكم آمين

تنبيه

اما يا حضرة الامير ابراهيم ان طلب منزل وعليان الذى شتمتونا فيه ليس
كان بوجه استحقار ولا استخفافا بمقام حضرة الامير وانما كان بحسب
الظن والعشم فى عدالتكم كونه بلغتكم اخبارهم وسعيهم فى الارض فسادا
بقتل دماء المسلمين ونهب اموالهم وربطهم الى الطريق عمدا وعلى هذا الوجه
المرغوب وظن الخير فى عدالتكم ورافتكم وشفقتكم على المسلمين ورغبتكم
بربط حقوقهم فقد طلبناهم منكم ولا ندرى انه يغير ذلك على حضرة الامير ابراهيم

لان الحاكم العدل ينظر الى الخالق فقط ولا ينظر الى قوته ومقدرته وبذا لزم التحشيه

صورة الجواب الرابع نمره

محرر من سعادة زبير بيك رحمه الجميعابى مدير عموم بحر الغزال وشكا
الى السلطان ابراهيم سلطان دارفور تاريخه غرة محرم سنة ١٢٩١ سلام الله
أسنى وتحياته المباركه حسنى من عند زبير بيك رحمه الجميعابى مدير عموم
بحر الغزال والجهات الغربيه الى حضرة أمير الامراء الكرام وزين الأكرمين الفخام
السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين صاحب العزة والافتخار والهيبه
والوقار دام الله اجلاله ونصر جيشه امين من بعد الف السلام الوافر
نعرفكم انه سابق تاريخه لما كثرت علينا ضرورة المسلمين بالتشكيات من
عربان الرزيقات بهذا قتلوه وهذا نهبوه وهذا سلبوه وعلى ذلك الوجه
الضرورى نسددت جميع طرايق الواردين والمترددين من جميع الجهات
ولما اتضحت لنا ذلك الافعال المغايره المخالفه للشريعة بتعديات عربان
الرزيقات وخطاهم وصيالتهم وربطهم الى طريق المسلمين عمداً واباحة
دماهم ونهب أموالهم مع ما اخذوه من أموالنا نحوه وقتل رجالنا بدون
ذنبا وقع منا اليهم فقد قمنا بعد الانذارات الشرعيه والمكاتبات
المفيده المرضيه وعدم قبولهم مطلقا وبادرنا وأوهبنا أنفسنا فى
سبيل الله تعالى وكلفنا الحكومه المصريه بعساكر ومصاريف تنوف عن
العشرة الاف كيسه وكسوة جميعه مكلف ومنصرف من خيرات افندينا
ولى النعم الخديوى الاعظم وحضرنا لقتال العربان المذكورين وردهم من
التعديات والامور المغايره من ربط الطريق وخلافه واستقامت احوالهم
على موافقة الشريعة وحصول المقصود بالفوز والرضا لربنا المهيمن
المعبود ودخولهم تحت أحكام الدوله الخديويه وجميع ذلك عرفناكم
عنه ياحضرة الامير ابراهيم مقدما باربعة جوابات الاول بقيامنا
وتوجهنا الى العربان المذكورين والثانى فى وصولنا ببلادهم وقتالهم
معنا وانهزام جيوشهم وحضورهم امام حضرة الامير الموحى اليه لطلب
النجده والفتنه مع الدوله المصريه والثالث فى خصوص ردجوابكم الذى
ورد منكم الى الشيخ مادبو ولد على وعمد عربان الرزيقات بحضور الحرب الينا
والمحاربه معنا وبعد العربان المذكورين من وجه الحرب امع زيادة التسب

والذم والقدح الشديد والشتيمه فى عبدكم زبير بيك رحمه الجميع ابى ومع
ذلك كله جوزنا لكم فى جميع معا لكم فينا برد المكاتبات اللطيفه والكلام
اللين وانذرناكم واوعظناكم بالكتاب والسنه لعدم الفتنه بيننا وبينكم
باسباب هؤلاء العربان المفسدين فى الارض وقاطعين طريق المسلمين
ولاندرى انكم تنسبوا فوق الخالق لنفسكم بما حصل لكم من الغرور وزيادة
التعس وتعينوا العربان المذكورين على معصية الله سبحانه وتعالى وتخالفوا
شروط الدول الاسلاميه وترغبوا الفتنه مع الدولة المصريه بدون اقلها
ذنبا وقع عنها اليكم لا بربط طريق ولا خلافه مع انه يا حضرة الامير بينكم
وبين الدولة المصريه محبة ومودة جسيمه وطريق مستقيم وارد ومترددا
سنوى الى يومنا هذا بالامن والامان وجميع اشيا لكم ومطلوباتكم مستوفيه
حسب مرغوبكم مع زيادة الوداد والهدايا من عزيز مصر الخديوى الاعظم
زيادة على ذلك استمرار تجارة رعاياكم القاطنين بطرفكم وعلى ذلك الوجه
المرغوب لكم ولكافة رعاياكم لاندرى انكم تتركوا حسبة ذلك الخصوص
المحكى عنها وتجهزوا وزيركم احمد شطه ومقدومكم سعد النور وتخصصهم
لمحاربتنا بما معهم من الالات الحربيه والملوك والشرالى والعساكر الكفايه
حتى هجموا علينا دفعتين ونحن وعساكرنا على حين غفلة واما ثانى من جهاتكم
فاولا هجموا على بعض عساكرنا المنفردين الفارزين على العربان العصاه
فى يوم ٢٥ القعده سنة ١٢٩٠ وقتلو منهم من قتل ونجى منهم من نجى والثانيه
هجموا علينا بمركز اراديا ودار الحرب بيننا وبينهم فوالله يا حضرة الامير
ابراهيم ان جماعتكم لم حملوا معنا اكثر من ساعة واحدة وجميعهم بارك
الله فيهم لان الفضل تشهد به الاعداء خصوصا المقدم سعد النور
جزاه الله كل خير لقد قاتل قتالا شديدا ومات تحت رصاص المدافع
واما وزيركم احمد شطه الذى هو امير الجيش فقد جرى على اقدامه
حفيانا يطلب النجاة لنفسه حتى قتل مطرودا بما معه من اخلاط الناس
بعيدا من محل المعركه ولابد ان الخوده العلى راسه وصلتكم تعطيكم الخبر
اليقين ومن بعد ما قضى الله امرا كان مفعولا تفقدنا بنفسنا وجمعنا
المقاديم الاثنين وجملة ما معهم من اولاد السلاطين والشرالى والملوك
جميعهم بجملة كافيه كفنناهم باعز الاقمشه وصلينا عليهم ودفناهم
ليكون معلومكم بافعال الكرام واما جميع ما جرى عليهم من القتل وعلى

خلافهم وعلى جماعتنا أيضا انت مسؤل بين يدى الله تعالى ويوم القيامة
تجتمع الخصوم مع اننا انذرناكم واوعظناكم مقدما كتابا وسنة وانتم
اعرضتوا وخالفتوا الشروط الاسلاميه واتبعتوا اقوال العربان المفسدين
فى الارض وضيعتوا جملة مسلمين بدون وجه بان توجيهكم لهما ربتنا
بل انما هو اعانة للعربان الظالمين على معصية الخالق وحيث ان الله
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فقد كفاكم الله تعالى بافعالكم
وتعدياتكم علينا بعد الانذار والوعظ الشديد وايضا جميع ضمايرنا
اليكم وما خطر ببالنا من عدم وقوع الفتنه والمحاربه بيننا وبينكم
وحيث ان جميع ما عرفناكم عنه سابقا ونهيناكم عنه قد حصل ولذلك
قد فوضنا امرنا الى الله تعالى وكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم والله المستعان
والامر اليكم فانظروا ماذا تامرون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم
تحشيه ثم انه يا حضرة الامير ابراهيم سألتك بالله وبرسول الله
ان تطلع وتتامل فى جميع جواباتى الذى وردت منى اليك وتقراها حرفا
بعد حرف وبشرط يكونوا معك اثنين او ثلاثة من العلماء الاخيار اهل
التقى والورع العاملين بالسنة والكتاب فذالك وقتها تظهر لك مقالتى
والله الموفق وبذا الزم التحشية

صورة جواب خامس نمرة ٥

محرر من زبير بيك رحمه الجميعابى مدير عموم بحر الغزال والجهات الغربيه
فى غرة محرم سنة ١٢٩١ الى علماء دارفور العاملين بالسنه والكتاب وناهين
عن المنكر وامرين بالمعروف نعنى ونخص بذلك الفقيه سلامه ابن
الفقيه مالك والفقيه فخر الدين ابن الفقيه محمد سالم والفقيه سالم
والامام الضو ابن الامام المصرى والفقيه فخر الدين من بعد الف
السلام وتقابيل الايادى الكرام نعرفكم يا سادات الدين ويا محيين
سنة سيد المرسلين اننا سابق بوقت اقامتنا ببلاد الفراتيت مقيمين
تحت طاعة الله ورسوله ومجاهدين جميع الطغاة الكفره والمشركين
حتى ادخلناهم فى سلك الطاعة ومنعناهم من التعديات والامور المغايره
وصديناهم من عبادة الاوثان وكثيرا منهم ادخالهم فى ملة الاسلام
بشهادة ان لا اله الا الله محمد رسول الله وعلى هذا الوجه المرغوب فتحنا
جميع الطرايق للواردين والمترددين من جميع الجهات من رعايا الدوله

المشهورين

المصرية الى رعايا الدولة الفوراوية بالامن والامان لينالوا كل خير
ويسلموا من كل ضير وصارت المسلمين ترد وتردد علينا من مدة سنوات
عديده ولا احد يتعرض عليهم بمكروه ابدا مطلقا من المتسلطين على
ربط الطريق ولا خلافهم من الاشقيا العصاة حتى اشتهرت عدالتنا
في جميع الاقطار مشرقا ومغربا ومازلنا نسال البارى سبحانه وتعالى
التوفيق على ما يرضى الله ورسوله امرا بعدالة البلاد وامنية العباد
حسب مرغوبهم ومطلوبهم حتى انه في عام سنة ٨٨ بلغ مسموعنا ان
عربان الرزيقات ربطوا طريق المسلمين واباحوا دماهم واموالهم وحيث
انهما مسلمين وفيهم من يقرا القران ويعرف واحدود الشريعه فقد
اوجب الله تعالى علينا انذارهم وصرنا نكاتبهم ونوعظهم بالسنة
والكتاب ونشدد عليهم بالمنع من التعديات والامور المغايرة من ربط
الطريق عمدا على المسلمين واستقامت احوالهم على موافقة الشريعة
وعلى هذه الشروط الشرعيه صار لهم قبول فيها لانجازهم ولا يحاربون
مادموا مستقيمين وكافين يداهم من اذايا المسلمين بحيث يا حضرة
العلماء الكرام ان في النصوص الشرعيه لا تجوز حرابة مثل المسلم الا بامر
ضرورى ومخالفة للشريعه وعلى هذا الوجه المرغوب والانذار الشرعى
صار لهم اقبال مطلقا واتبعوا اقرار الشيطان الرجيم على الافعال المغايرة
حتى عمت بهم جميعهم جمله كافيه بما فيهم مشايخهم الذى منزل وعليان
وما معهم من جنود ابليس اللعين صاروا يربطون الطريق ويقتلون
المسلمين وينهبون اموالهم حتى اشتهرت افعالهم عند حضرة الامير
ابراهيم وخلافه من القبايل والمملكات بالطغا والبغا والتعديات على
حقوق المسلمين وربط الطريق عمدا ولما اتضحت لنا ذلك الامور والافعال
المغايرة المخالفه للشريعة بالدليل والبرهان القوى بالمشاهدة عيانا
والتشكيات ليلا ونهارا بهذا قتلوه وهذا سلبوه وهذا نهبوه حتى
كلت هممنا من ظلم العربان المذكورين ولذلك الامر الضرورى قدمنا
وبادرنا واوهبنا انفسنا في سبيل الله تعالى وكلفنا الحكومة المصرية
بعساكر ومصاريف تتوف عن العشرة الاف كيسه وكسور وحضرنا لقتال
العربان المذكورين وردهم من الطغا والبغا كما قال تعالى فقاتلوا التى
تبغى حتى تفيئ الى امر الله تعالى وحيث الامر كما ذكر وانتم ساداتنا وعلماء

واخبار فقد صرحنا لكم اسباب مجينا وحضورنا الى هذه البلاد ليس كان
لنوع منفعه دنيويه ولا لطمعيه مال ولا لشهرة عند القبايل والملوك
وانما كان القصد الاصلى لوجه الله تعالى بالرافة والشفقه على المسلمين
لنجاد انفسهم واموالهم واستمرار بجارتهم حسب مرغوبهم بالامن
والامان مع حصول الراحة لهم ولكافة الواردين والمترددين من
تعديات هذين العربان المفسدين فى الارض وعلى ذلك الخصوص
والاسباب الضروريه جميعها جمله كافيه عرفنا عنها السلطان
ابراهيم المتولى الآن بالدوله الفورواويه وطلبنا منه النجده والمساعدة
على العربان المفسدين فى الارض طبقا لقوله تعالى انما جزاء الذين
يحاربون الله ورسوله الآيه الا ان ينفوا من الارض وعلى هذه النصوص
الشرعيه وسعى العربان المذكورين فى الارض فسادا قاطعين الشك
باليقين القوى انه يساعدنا عليهم حتى يستقيموا على وافقة الشريعه
لما بلغ مسامعنا من عدالته ورافته وشفقته على المسلمين ولا ندرى
ان الامر يقع بخلاف المامول فيه ويستمع اقوال العربان المفسدين
ويعينهم على معصية الخالق وانالة مقصودهم بربط الطريق ونهب
اموال المسلمين ويحاربنا معهم بعد الانذار والوعظ الشديد اليه
بالمكاتبات المفيدة بعدم ادنى فتنه تقع بيننا وبينه كما موضحا
جميعه بالجوابات الذى وردت منا اليه وحيث الان لزم اشعار هذا
الجواب اليكم بمفصلات كيفيات حضورنا الى هذه البلاد وما اوردنا
عنه السلطان ابراهيم بما فيه الكفايه فقد اقسمت عليكم بالله وبرسول
الله يا سادانى ويا علماء دين الاسلام ان تطلبوا جميع جواباتى التى
وردت منا الى السلطان ابراهيم فى شهر جماد اول سنة ١٢٩٠ حين قيامنا
من مركزنا وحضورنا الى العربان وفى شهر رجب سنة ١٢٩٠ وفى شهر رمضان
ايضا وهما خمسة جوابات فالقصد اطلاعكم وتلاوتهم حرفا بعد حرف
وبعد استفهامكم اليهم تكونوا شهداء بيننا وبينه يوم القيامه عند
الله تعالى لمن هو صال وتعدى على صاحبه وعلى ذلك الشهادة المطلوبه
منكم شرعا فى الدنيا والاخرة بحسب معرفتكم فى العلوم والقوانين
الشرعيه فقد حررنا لكم هذا الجواب فى خصوص تعديات السلطان
ابراهيم علينا ومحاربته معنا بدون ذنبا وقع منا اليه ولا مخالفه

للشريعه

للشريعه ولادخلنا حيازة من دياره فالامل فى حضرتكم يا علماء دين الاسلام تفيدونا عنما اوجب سلطا نكم الى محاربتنا وهلاك عساكر الاسلام منا ومنه فان كان على امر جايزا ومخالفه منا للشريعه فنحن نحمده ونشكره فيما اجراه معنا ونتوب الى الله تعالى ونستغفره ونطلب السماح منه وان كان هو المخالف كفى الله شهيدا بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ودمتم فى حفظ الله امنين مطمئنين

صورة جواب سادس نمره ٦

محرر من زبير بيك رحمه الجميعابى مدير عموم بحر الغزال والجهات الغربيه من عربان واعجام فى ٩ جماد اول سنة ١٢٩١ الى حضرة امير الامراء الكرام وزين الاكرمين الفخام مولانا السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين صاحب العزة والافتخار والهيبة والوقار دام الله اجلاله ونصر جيشه آمين من بعد الف السلام وتقابيل الايادى الكرام نعرف حضرة الامير ابراهيم بما انه قد كان كاتبنا كم من ابتدى قيامنا وحضورنا الى بلاد العربان المحكى عنهم بعدة مكاتبات تنوف عن الستة جوابات جميعها بجمله كافيه محتويه كلمات مرضيه وموافقه للنصوص الشرعيه ولعلماكم ايضا المقيمين بدولتكم الفوراويين مع زيادة التعريف الى والدكم الفقيه حسب الله والترجى اليكم فى امر الاتفاق وعدم الفتنه مع الدوله المصريه وصرف النظر وعدم السمع ايضا من اقوال العربان المفسدين فى الارض والمساعده من حضرتكم الينا وباتحادنا نحن وانتم الجميع نجرى ما يوافق بمحاربتهم وردهم بالقوة الجبريه من الامور المغايره حتى يتركون ربط طريق المسلمين ويستقيمون على موافقة الشريعة كما هى عادة الدول والممالكات الاسلاميه اتفاقها وسعيها واجتهادها فى مرضات الله تعالى ومتى ما حصل ذلك الوجه المرغوب باتفاقيتنا الجميع على من طغا وبغا من قبايل العربان وخلافهم بازالة الفساد وامنية العباد فقد سكنت الحركات وارتاحت الممالكات لارباربها بدون غيره ولا حسد وبذلك الوجه الفرضى علينا وعليكم تامنت المسلمين وارتاحت التجار القاطنين بالامن والامان ليدورون ويسعون فى استمرار تجارتهم بدون زعزعه ولا حركات تبلغ مسامعهم كمثل هذه الامور الذى ابديتوها انتم بتجهيز الجيوش

وعجب النفس والمحاربه معنا بدون ذنب او قدمنا اليكم بل انما سمعتوا
اقوال العربان المفسدين فى الارض واعنتوهم على معصية الخالق
وانالت مقصودهم بربط الطريق وقتل المسلمين ونهب اموالهم بعد
الانذارات الشرعيه والوعظ الشديد اليكم بالمكاتبات السنيه
وعدم اذى فتنه تقع بينكم وبين الدوله المصريه مع زيادة التدبير
والتاثير اليكم بالمعروض الى عناية والى نعمتنا الخديوى الاعظم ومع
هذا كله لم صار لكم اقبال مطلقا وقصدتوا مخالفة الشروط وعدم
قوانين المملكات ورغبتم معصية الله سبحانه وتعالى وقتلتم جملة
نفوس مسلمين غير وجها جايز ووجبتكم لمحاربتنا والحال يا حضرة
الامير ابراهيم اعلم يقينا ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم
وحيث الامر كما ذكر فالمضى لا يعاد ثانى مره الايام ضرورى يقع منكم
او مخالفه للشريعه كمثل مسوكم الى العربان اهل الذنوب الكباير الى
الان بطرفكم بما فيهم رؤسهم الذى هما منزل وعليان وما معهم من
جنود ابليس الاشقيا العصاة الى يومنا هذا مقيمين عندكم وبلادكم
وجارين السعى والاجتهاد القوى فى ربط طريق المسلمين من جهات
دارفور وخلافها من الجهات الاخر لغاية يا امير ابراهيم فى شهر ربيع اول
سنة ١٢٩١ قتلوا جملة اشراف من نسل رسول الله عليه الصلاة والسلام
وقتلوا معهم الشيخ على ولد النويرى من عمد المعاليه واخيرهم واخذوا
جميع ما معهم من الاموال فهل يجوز ذلك يا حضرة الامير ابراهيم وحيث
ان هذين العربان المفسدين فى الارض ورابطين طريق المسلمين
هما اسباب مجيئنا بالكلف والمصاريف الجسيمه على الدوله الخديويه
وبالتعب والمشقات حضرنا لبلادهم وكاتبناكم فيهم مقدما واوضحنا
لكم كامل امورهم وتعدياتهم علينا بنهب اموالنا وقتل رجالنا وربط
طريق المسلمين عمدا وعلى ذلك القول الموضح عند الخاص والعام لم
صار لكم اقبال مطلقا وقويتوا العربان المذكورين واعنتوهم على
معصية الخالق بدليل اقامتهم معكم الان وتماديهم على الدوام
بتشنية الغارات وحصول الحركات على المسلمين وقتلهم ونهب
اموالهم وحيث الامر كما ذكر ان كنت يا امير ابراهيم عبد الله فى ارضه
ومن جملة مخلوقاته اتق الله وزيل عنك عجب النفس والغرور ولا تتبع

الهوى فيضلك عن سبيل الله وسلم الامر الله تعالى وا قصد ردناه في وجهين لا زمين عليك فرضنا الاولى بطرد العربان المحاربين من ديارك والثانى قتلهم واعدامهم كليه جمله كما فيه عبرة لغيرهم من الاشقياء العصاة المتسلطين على ربط الطريق عمدا وا باحه دماء المسلمين والوجه الثالث ان روى موافق لراى الامير ارسالهم الينا بموجب عساكر محافظين من طرف حضرتكم لاجل اطفاء نار الفتنه الذى ابديتوها انتم بالهجوم على عساكر الدولة الخديويّه وعلى هذه الاوجه لاختياركم وتقاربونا ما دمتوا مستقيمين على موافقة الشريعه وما يحض بالعدل والانصاف واما اذا كان ما صار لكم قبول في هذه الاوجه الواجبه ازالتها عليكم شرعا فقد علم عندنا يقينا اتمام نعمتكم كما قال الشاعر

لكل شئ اذا ما تم نقصان ❁ فلا يغر بطيب العيش انسان

هى الامور كما شاهدتها دول ❁ من سره زمن ساءته ازمان

وها هو قد انذرناكم واوعظناكم بما فيه الكفايه زياده عن المكاتبات الذى سبق تحريرها اليكم فان قبلتوا وحسبتوا حسبة الخالق واجريتوا كامل ما نهيناكم عنه فقد فزتوا بالرضى والنجاة في الدنيا والاخرة وان انكرتوا ذلك المقال ووقع منكم عدم الامتثال لقوانين الدول الاسلاميه فالحرب بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والاعانة بالله العلى العظيم مع رد الافاده الينا سريعًا سوى كان بتجهيزها لكم الى الحرب او حضور منزل وعليان ومامعهم من العربان لاجل راحة المسلمين منا ومنكم ولانعرفكم زياده ودمتم سالمين والامر اليكم فانظروا ماذا تامرون دام الله بقاكم آمين ❁

صورة جواب سابع نمرة ٧

محرر من زبير بيك رحمه الجمعابى مدير عموم بحر الغزال والجهات الغربيه رقيم ١٢ جمادى اول سنة ١٢٩١ سلام الله الاسنى وتحياته المباركات الحسنى الى حضرة من تهابهم الرجال وتخشى من سطوتهم الابطال يوم الرجفه والنزال الواثقين بالله الواحد القهار المتمسكين

بشريعة النبي المختار فذلك والدنا ومحبنا الاكرم الفقيه حسب الله ابن
السلطان محمد الفضل وكافة ما معه من اولاده واولاد اخوانه واولاد
السلطان محمد الفضل ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين منى المكرم
الف الف سلام والف تحية والف اكرام وبعده نعرفكم اننا نحن من
ابتدى قيامنا من محلنا وحضورنا الى بلاد الحربان المعروفين بالطغا
والبغا والفساد بالكلاف والمضاربات الحسية من والي نعمتنا
الخديوي الاعظم قد كان كاتبناكم بعدة مكاتبات بما فيها الكفاية
وعرفناكم عن اسباب حضورنا الى هذه البلاد ليس كان لنوع منفعة دنيوية
ولا لشهرة عند القبايل والملوك وانما كان القصد الاصلي لوجه الله
تعالى وعلى ما بلغ مسامعنا جميعكم جملة كافة صار لكم القبول التام
في هذا الخصوص وقد فهمنا بيان الهمة وعدم التراخي واجريتوا المكاتبات
اللطيفة مع ابن اخيكم السلطان ابراهيم بالمنع من التعديات والفتنة
مع الدولة المصرية فلا كان يسمع لكم لان سلطنتنا قد جهزت وزيره
احمد شطه ومعه ومعه عدد الذين يلاقيهم ما يلزم اليهم من
الالات الحربية والخيول العربية والاسلحة النارية ولحاقهم بالجيوش
والملوك والشراتى وجملة اصلاط القبايل وحيث يا حضرة الوالد
الاكرم ان الحق يعلو ولا يعلى عليه لتنفذ الذين يجاهدون في مرضات
الله تعالى برد الطغاة المفسدين في الارض وحفظ وصيانة اموال
المسلمين ودماهم وتامين وتطمين كافة من قال لا اله الا الله محمد
رسول الله وعلى هذا الوجه المرقوم فقد نصرنا الله تعالى عليهم
وكفانا بافعالهم وتعدياتهم على المسلمين ومن بعد ما قضى الله
امرا كان مفعولا انهزم جيش السلطان ابراهيم المومى اليه لقد
قتلنا اولا ومنعنا كافة عساكرنا جميعهم جملة كافة لئلا يكون احدا
منهم يطرف المسلمين من بعد الفرار حيث انها شي ممنوعا بالنصوص
الشرعية وثانيا بادرنا بنفسنا وقدمنا كافة الوزرا والمقاديم والملوك
والشراتى وجملة ما معهم من اولاد البلاد جميعهم كفناهم باعز الاقمشة
وصلينا عليهم ودفناهم ليكون معلومكم بافعال الكرام والملك
يا حضرة الوالد الفقيه حسب الله من حيث انت معلوم عندنا
بالمعرفة التامة والعلم والدراية والتقوى والورع والوقوف الكامل

على

على حدود الشريعة بالنهي عن المنكر والامر بالمعروف حسب ما يرضي الله ورسوله امرا وحيث الامر كما ذكر ومعلوما لذي حضرتكم يقينا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده وفي رواية اخرى ان الارض يرثها عبادي الصالحون وعلى هذا الوجه والدليل والبرهان القوي ان شاء الله تعالى وبمشيئة الرحمن الرحيم ومعونة الله عز وجل ونفوس الحكومة الخديوية نملك بلادكم قريبا وقد اختصرنا هذا القول خوف الاطالة فخذوه منا حسنا وصدقا وامتثلوا لامرنا انتم وجميع من تبعكم من الاقارب والاجانب طاعة وامتثالا لامر الله تعالى ورسوله ولعناية والى نعمتنا الخديوي الاعظم طبقا للنصوص الواردة بالقرآن العظيم ومتى ما حصل منكم ذلك فزتوا بالنجاة في الدنيا والاخرة انتم ومن معكم من المسلمين وبالشروط اللازمة علينا والميثاق القوي اننا لا نتعدى عليكم ولا على اموالكم جملة كافية زياده على ذلك نجري مكافاتكم حسب مرغوبكم بترتيبكم وتوليتكم على كرسي المنبر وتولية امر المسلمين كوننا بلغتنا فيكم اخبار الخلفاء الراشدون بالخلق الحسنة والفطنة والدراية الكاملة والرأفة والشفقة على المسلمين وعفافتكم من اخذ حقوقهم مع زيادة العدل والانصاف بينهما برد المظلوم من الظالم والله الموفق زياده على ذلك منعكم للسلطان ابراهيم على الدوام من التعديات والامور المغايرة ومحاربة عساكر الدولة المصرية بدون وجه جائز ولهذا الوجه قد استعقلنا غاية ونهاية واعتمدنا ورغبنا وصممنا على توليتكم عوضا عن ابراهيم المذكور بمشيئة الله تعالى ورسوله بالعهود والشروط الشرعية عليكم مضمونها استقامة احوالكم في مرضات الله تعالى من جميع الامور المغايرة وراحة المسلمين على الوجه المرغوب بالامن والامان لينالوا كل الخير ويسلموا من كل ضير والله الموفق والاعانة بالله العلي العظيم وها قد عرفناكم بما فيه الكفاية والامر اليكم فانظروا ماذا تأمرون مع رد الافادة اللازمة الينا في هذا وهذا ودمتم سالمين

صورة جواب ثامن نمره ٨

سلاما من عند زبير بيك رحمة الجميع الى امير جيوش افندينا ولي النعم

الخديوى الاعظم الى حضرة امير الامراء الكرام ووزير الاكرمين الفخام
محبنا السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين المتولى الان بالدوله
الفوراويه محترما مين   من بعد الف السلام وتقابيل الايادى
الكرام والسؤال عنا فهو مين تستطيبون بالصحه والسلامه ثم المبدى
تحريره اليكم انه ياحضرة الامير من ابتدى قيامنا من بلاد الفراتيت
بتاريخ ١٤ جماد اول سنة ١٢٩٠ بالكلف والمصاريف الجسيمه والعساكر
الكفايه على الحكومه المصريه لغاية دخولنا ببلاد عربان الرزيقات
بغرة رجب سنة ١٢٩٠ قد كان حررنا لكم عدة جوابات تنوف عن السبعه
جميعها فى خصوص اخبار ومفصلات كيفية حضورنا للبلاد العربان
لقصد ازالة فسادهم مطلقا ومنعهم من التعديات والامور المغايره
من ربط طريق المسلمين وخلافه من المحرمات واستقامت احوالهم
على مايرضى الله تعالى ورسوله امرا ودخولهم تحت احكام الدوله
الخديويه وعلى ذلك الوجه المرغوب قد حضرنا لقتال العربان المذكورين
وردهم بالقوة الجبريه من الطغا والبغا كما قال تعالى فقاتلوا التى تبغى
حتى تفيئ الى امر الله وبناء على ماذكر بالنصوص الشرعيه قد كاتبنا حضرتكم
بما فيه الكفايه وبطلب النجده والمساعده الينا كما هى عادة الدول
المتحابات ولا ندرى ان الامل فيكم يا سلطان ابراهيم يقع بخلاف المامول
وتجهزوا وزيركم احمد شطه ومقدومكم سعد النور وما معهم من
الشراكى والملوك وجملة اخلاط القبايل بالخيول العربيه والاسلحه
الناريه وتامروهم بالمحاربه والهجوم على عساكر الدوله المصريه بعد
الانذارات الشرعيه والمكاتبات المفيدة المرضيه بعدم اذن
فتنه تقع بيننا وبين الدوله المصريه نظرا للايتصالات والمحبات
الذى بينكم وبينها الى يومنا هذا وحجب دماء المسلمين وقد كان
لحضرة الامير جميع مانهيناكم عنه بالحجه والادب والنصوص
الشرعيه كتابا وسنه فلم صار لكم فيه قبول مطلقا واتبعتوا اقوال
العربان المفسدين فى الارض وما معهم من جنود ابليس المتاسسين
فى الفتنه بيننا وبينكم وعلى هذا الامر الضرورى عندنا يقينا وعند
كامل ذوات المعرفه انكم قصدتموه قصدا وعمدا واخترتموه لنفسكم
بالطغا وعجب النفس والغرور وتزيين الشيطان الرجيم اليكم بالافعال

الخبايثه

المتاين كما غركم انكم لا يغلب عليكم احدا وانتم من انهمك سناو لله تعالى
وحيث الامر كما ذكرو بما ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم
والحالة هذه في يوم الجمعه المبارك الموافق ٢٣ جماد اخر سنة ١٢٩١ اول
الظهر الساعه سبعه من النهار قد دخلنا بلادكم الذى هى داره مثمة
وزيركم احمد شطه الجانى على نفسه سابقا والقصد ادخالكم وادخال
جميع الاقطار الفوراويه تحت احكام الدوله الخديويه وبمشيئة
الرحمن الرحيم قريبا تكونوا من جملة الرعيه نظرا لما ابديتموه اولا
من التعديات والجاسرات والهجوم على عساكر الدوله الخديويه بدون
اقل اذنبا وقع منها اليكم ولا ادخال في حيازة من ديار كم بل انما الحضرة
عساكرها بالكلف والمصاريف الجسيمه للعربان فقط ومنعهم
من التعديات على اموال المسلمين ودخولهم تحت احكامها وسلوك
الطريق للواردين والمترددين بالامن والامان وانتم بالحضرة الامير
ابراهيم اويتوهم وقويتوهم واقمتوهم ببلادكم وعززتوهم واكرمتوهم
وجهزتوا معهم الجيوش بدونه وجها يوجبكم لمحاربة الدوله
المصريه بل انما هو اعانة للعربان الظالمين على معصية الخالق واناله
مقصودهم بربط طريق المسلمين وسفك دماهم ونهب اموالهم
وعلى هذا الوجه الضروري والتعديات ومخالفة شروط الدول
والممالكات الاسلاميه الذى وقعت منكم بعد الانذارات الشرعيه
كتابا وسنة فقد علم عندنا يقينا بالادله والبراهين القويه والنصوص
الشرعيه انكم صرتم من ضمن المحاربين كما اشتهرت افعالكم وتعدياتكم
على الدوله الخديويه وسوقكم الى العربان المفسدين في الارض
ولذلك الاوجه الضروريه والمخالفه الذى وقعت منكم فقد اوجب
الله تعالى علينا محاربتكم مطلقا حتى تستقيموا انتم ومن معكم من
الطغاة المفسدين في الارض على موافقة الشريعه وتفتكروا ما سبق
من نعم الله تعالى عليكم وتدخلوا تحت احكام افندينا ولى النعم الخديوى
الاعظم دام الله اجلاله ونصر جيشه آمين واختصارا من التطويل
يا حضرة الامير ان كنت حاسب لنفسك عبدا من عباد الله تعالى
ومقرا بنعمته عليك وموقنا ان الارض لله يورثها من يشاء من
عباده فقم وبادر واخلع نفسك من هذه المهلكة بالتنازل والتسليم

العناية والى نعمتنا الخديوي الاعظم حسبة لله تعالى وتجنبا لدماء المسلمين الذى انت اميرا عليهم واستكفى بما عندك من النعم والخيرات وبالشروط والعهود والمواثيق الشرعية علينا اذا امتثلت وفعلت ذلك التسليم لوالى نعمتنا الخديوي الاعظم تركنا لك جميع ما عندك من الخزاين والاموال وصرت مكرما ومبجلا عندنا وعند والى نعمتنا الخديوي الاعظم ايضا ليكون معلومك تفصيلا بما فيه الكفاية والامر اليكم فانظروا ماذا تأمرون والا يا حضرة الامير اذا وسوس اليكم الشيطان الرجيم وسوّلت لكم انفسكم المحاربة مع الدولة المصرية فاعلم يقينا اتمام نعمتك كما قال الشاعر *

لكل شيء اذا ما تم نقصان * فلا يغر بطيب العيش انسان

هي الامور اذا ما شاهدتها دول * من سره زمن ساءته ازمان

والحال يا حضرة الامير قد اوريناكم بما فيه الكفاية مع علمكم يقينا انتم ومن معكم من الوزرا والمقاديم والشرافة والملوك بنزول زبير بيك رحمه الجميع الى امير جيوش افندينا ولى النعم الخديوى الاعظم ببلادكم المعروفة كما ذكرنا اولا ومعه الصولة العباسية والسلالة الهاشمية سادات قومها على كل مشكور من الخيل ضامري فان اطعتونا شكرنا فعالكم وامناكم واقمناكم بالعز والوقار وان خالفتونا وحاربتونا ابدناكم بكل مهند ولا شك فى نصرنا عليكم لاننا اليوث حربية ونسبة اصلية وسلالة هاشمية ولنا النصر من رسول الله عليه الصلاة والسلام كما قال اللهم انصر العباس وابناءه والدليل الآخر مجاهرتكم فى المعاصى بترويجكم الى الجراين زيادة عن الاربعة نسوة واعانتكم للعربان المفسدين فى الارض بربط الطريق واباحة دماء المسلمين وعبادتكم للاوثان الذى تنسبوها عادة اليكم من الاباء والاجداد ولكم بها اعتقاد قوى انها تنفع وتضر من دون الله تعالى وعلى هذه الاوجه المغضبة خالق السموات والارض فقد سلطنا الله تعالى على بلادكم واعاننا عليها بالنصر الخفى والمدد القوى ولا شك اننا اذا نزلنا بساحة قوم على حسب ضماير العالم بها الله تعالى فنساء صباح المنذرين والمعونة بالله العلى العظيم ودمتم سالمين

فى ٣ رجب سنة ١٢٩١

ثبت المراجع

١- جغرافية وتاريخ السودان،
نعوم شقير، بيروت، ١٩٦٧
٢- السودان فى قرن،
مكى شبيكة
٣- Ohrwalder, J., Ten Years' Captivity in the Mahdis's Camp. Tr.F.R. Wingate. London, 1892.
٤- Theobald, A.B., The Mahdiya : a history of the Anglo-Egyptian Sudan 1881-1899.
٥- Jackson, H.C., Black Ivory, or the story of El Zubair Pasha, as told by himself, Khartoum, 1913.
٦- بريطانيا فى السودان،
كرومر: ترجمة عبد العزيز أحمد عرابى، القاهرة، ١٩٦٠.
٧- الزبير باشا رجل السودان،
سعد الدين الزبير
٨- الفروسية فى الشعر الشعبى فى السودان:
سليمان خالد
٩- السور المنيع البأس فى اتصال نسب اجعل بأصله العباس (لجامعه عبد الله محمد الخبير) - إعداد وتقديم عبد الله على إبراهيم - جامعة الخرطوم، ١٩٨٢
١٠- قصة حياة الزبير باشا كما رواها للصحفية الأنسة فلورا شو عام ١٨٨٧م (تعريب خليفة عباس العبيد)

إصدارات مركز الدراسات السودانية

١- أزمة الإسلام السياسى - ٣ طبعات- نفدت	د. *حيدر إبراهيم على*
٢- ندوة الديمقراطية فى السودان	*مجموعة باحثين*
٣- لاهوت التحرير - طبعتان - نفدتا	د. *حيدر إبراهيم على*
٤- أعلام التنوير: ١- الأستاذ محمود محمد طه	*مجموعة باحثين*
٥- الهوية السودانية - نفد	*أ. طه إبراهيم*
٦- الوزير المتمرد	*مذكرات المهندس مرتضى أحمد إبراهيم*
٧- السودان وعقد التنمية الضائع	*أ. مبارك على*
٨- عنهما والإكليل والانتظار (نصوص قصصية)	*أ. صلاح الزين*
٩- الجزيرة : قصة مشروع ورحلة عمر	*مذكرات عمر محمد عبد الله الكارب*
١٠- الوحش الغريب (قصص أطفال)	*رسوم: حسان على أحمد* *النص: سمير عبد الباقى*
١١- السودان: المأزق الاقتصادى (سلسلة دراسات)	جماعى
١٢- السودان: البحث عن بديل (سلسلة حوارات)	جماعى
١٣- المهدى والعلماء	د. *عبد الله على إبراهيم*
١٤- السودان: حوارات الهوية والوحدة الوطنية	*أ. عبد العزيز حسين الصاوى*
١٥- زراعة الجوع فى السودان	د. *تيسير محمد أحمد على* *ترجمة محمد على جادين*
١٦- السودان: مستقبل التنمية والسلام	د. *عبد الغفار محمد أحمد* د. *سامية الهادى النقر*
١٧- مجلة «كتابات سودانية»	*الأعداد ١، ٢، ٣، ٤، ٥*